الشيخ العلاّمة السيد

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الشيخ العلامة السيد
أبو الحسن علي الحسني الندوي

شخصية صنعت التاريخ
في ضوء المشاهدات والتجارب الشخصية

السيد محمد الرابع الحسني الندوي
رئيس دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ

نقله إلى العربية
حسيب الرحمن مجيب الندوي

دار الغرب الإسلامي
تونس

© دار الغرب الإسلامي
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2012م

دار الغرب الإسلامي
العنوان : ص. ب. 677 ، تونس 1035

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل كان، أو بواسطة وسائل الكترونية، أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر.

كلمة المعرب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد النبي الكريم، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد

فهذا الكتاب الذي أقدم ترجمته العربية للقراء العرب يكتسب أهميته من جانبين، أحدهما أنه يتحدث عن شخصية فريدة في مجالها العلمي والتربوي والدعوي من شخصيات القرن العشرين في العالم الإسلامي كله، كما سيتبين للقراء عندما يقرؤونه، وثانيهما أنه صدر بقلم شخصية عرفتها منذ الصغر، وبل وتربت وترعرعت في حضنها، ثم لازمتها ملازمة الظل لصاحبه، فكان ما عرفت عنها وكتبت فيها كأرشيف يسجل كل خفاياها وخباياها، غير أن هذا الأمر - وهو أهم ما يمتاز به هذا الكتاب عن كل الكتب التي كتبت في حياة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسني الندوي - لم يكن ذا خطورة كبيرة بالنسبة لي، إذ كان ذلك شيئا طبيعيا، لكن ما كان أخطر وأعظم بالنسبة لي هو صدور هذا الكتاب بقلم كاتب إسلامي وأديب عربي كبير، له مكانة أدبية معروفة في العالم العربي والإسلامي، ويعرفه الناس بسلاسة قلمه وفصاحة لسانه، في كل من اللغتين العربية والأردية، فكان نقل هذا الكتاب الأردي إلى اللغة العربية من أصعب الأمور من هذه الناحية، إذ كان لا بد من أن يعرض عليه، فيفحصه بنظره الثاقب، ويقرؤه بذوقه الناقد، فيحدث فيه «مجزرة عامة» - وهي تسمية كنا نستخدمها ونحن طلاب لتصحيحات الأساتذة في كراستنا - بقلم التصحيح والتعديل وبالتالي يرفض تقديمه لمثل هذا العمل للقراء، غير أنه لم يعمل شيئا من هذا النوع، بل وتسامح معي كل التسامح، فتجاهل كل الضعف والركاكة، وأعرب عن سروره وتقديره لهذا العمل، فلا يسعني إلا أن أشكر لأستاذنا الكريم الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله ورعاه، لكل هذا التشجيع والتقدير، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يمد في حياته الحافلة بالأعمال، ويجزيه

خير ما يجزي به العاملين المخلصين، كما يجب أن أقدم الشكر للأخ عبدالحي الندوي الذي كان هو السبب في تعريب هذا الكتاب، والباعث على الاستمرار في العمل رغم ما كان يعتريني من فتور أحيانا وقنوط أحيانا أخرى، وكذلك أشكر للأستاذ محمد أكرم الندوي الذي شجعني على هذا العمل، وكتب تعريفا بهذا الكتاب، ومهد السبيل لتقديم الكتاب إلى الأستاذ الحاج حبيب اللمسي، صاحب دار الغرب الذي بادر بالموافقة على نشره من داره الغراء، فله الشكر والتقدير.

هذا وأدعو الله سبحانه تعالى أن يجعل عملي هذا في ميزان حسناتي، ويجزي كل من ساعدني على إتمام العمل، وخاصة عائلتي التي لم يكن من الممكن إتمامه بدون تضحية بكثير من حقوقها، خير الجزاء وأجزل المثوبة، ويحشر نا جميعا مع الذين أنعم عليهم من عباده الكرام، والله ولي التوفيق.

كتبه

حسيب الرحمن مجيب الندوي

الدوحة – قطر

تقديم

فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء العام، لكناؤ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن شخصية سماحة الشيخ العلاّمة السيد أبي الحسن علي الندوي رحمه الله تعالى شخصية عرفها العالم الإسلامي بفكره الإسلامي القويم في الوضع العالمي الراهن، وهو الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، واختياره طريق الدعوة الحكيمة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، في الحياة الفردية والاجتماعية، وذلك من خلال كتاباته وتأليفاته القيمة المفيدة، وفي رحلاته في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ولإلقائه خطابات مؤثرة كانت منبهة تنبيها لائقا لما كان يراه من الأحوال، ولما يمر به العالم الإسلامي من ظروف متجددة، ولما كان قد وقع في قرون ماضية في مناطق العالم الإسلامي في مختلف أدواره التي وقع العالم الإسلامي في آخرها تحت سيطرة الاستعمار الغربي، وأفكاره الملحدة المعارضة للفكرة الإسلامية تحت لافتة الديمقراطية والعلمانية.

لقد قام سماحته بتنبيه زعماء المسلمين وقادتهم على الخطر الذي يحدق بشعوب العالم الإسلامي المسلمة، كما أنه اعتنى بشرح العلاج اللائق بإصلاح الظروف والأحوال الفردية والجماعية معا، وكل ذلك يتجلى من أعمال حياته العملية وبتوجيهاته الدعوية والفكرية والاجتماعية، وقد اعتنى هذا الفقير إلى الله بأن يقوم بعرض حياته مع إيضاح الجوانب المهمة لأعماله وأحواله، وقمت بهذا العمل باللغة الأردية، وقد نال تقديرا وقبولا لدى القراء أبناء اللغة الأردية، ورأى الشاب العالم الأستاذ حسيب الرحمن مجيب

الندوي ضرورة نقل الكتاب إلى اللغة العربية لعله يفيد في إيضاح جوانب خاصة من أعماله المهمة مما لم يطلع عليها أهل اللغة العربية من محبي سماحته، ويسد بذلك حاجة أحس بها بعض محبي سماحته، وبذلك يصبح نقل الكتاب إلى اللغة العربية مفيدا.

فأنا أبدي تقديري للأخ الفاضل حسيب الرحمن مجيب الندوي المقيم بالدوحة قطر لعمله، وأدعو الله تعالى أن يجعل عمله هذا مقبولا عنده وعند قراء الكتاب، والله ولي التوفيق.

كتبه

محمد الرابع الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء العام

لكناؤ (الهند)

09/ 07/ 1431هـ

22/ 06/ 2010م

تعريف بالكتاب

بقلم الدكتور محمد أكرم الندوي
الباحث في مركز أكسفور الإسلامي لندن

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد عاش شيخنا الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوي (1332–1420هـ) رحمه الله تعالى أحرج مراحل التاريخ الإسلامي، لا في الهند وحدها، بل وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي. إنه نشأ والهند في قبضة الاستعمار البريطاني، وشاهد سقوط الخلافة، واستيلاء العلمانية على تركيا قاعدة الخلافة، وبذلك تفرق العالم الإسلامي إلى دويلات، وتمزقت الأمة الواحدة إلى أمم وشعوب شتى، متحاربة في كثير من الأحيان. إنه درس هذه الأوضاع دراسة واعية ونظر فيها نظرة الداعي المصلح والمفكر البصير، وعرض على رجالات العالم الإسلامي فكرته وخطة العمل تعود بها إلى المسلمين عزتهم وإلى العالم الإسلامي مجده التليد، وأثار بها روح الثقة بالنفس في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وكتب في موضوعات لم يكن يطرقها عامة الكتاب، ولا تخطر ببال كثير من العلماء والباحثين، وبقلب غير قلوبهم، وبصيرة غير بصائرهم، وأسلوب غير أساليبهم، وسرعان ما قبله المسلمون على اختلاف مذاهبهم، وبعد ديارهم كداعية مصلح وكاتب يحمل رسالة، وأصبح فارس الأمة المقدم، وقائدها العصامي، ورائدها الأول.

فلما وافاه الأجل كان الناس في الأسف عليه سواء، وكتب العلماء والباحثون مقالات وكتبا يشيدون فيها بمآثره وإسهاماته البارزة، ويستلهمون من أخلاقه وشمائله وسيرته العطرة، ومن أهم ما صدر في ترجمة حياته باللغة العربية (الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته) لشيخنا العلاّمة الدكتور يوسف القرضاوي، و(المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي) لشيخنا العلاّمة الأديب المفكر محمد واضح رشيد الندوي،

و(الأستاذ أبو الحسن كاتبا ومفكرا) لشيخنا الأستاذ نذر الحفيظ الندوي، و(الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي الإمام المفكر والداعية الأديب) لصاحبنا السيد عبد الماجد الغوري، وترجمة موسعة في سلسلة أعلام المسلمين لدار القلم، (أبو الحسن على الندوي)، و(نفحات الهند واليمن بأسانيد الشيخ أبي الحسن) كلاهما بقلم كاتب هذه السطور.

ولا شك أن تلك الكتابات تملأ فراغا كبيرا في الدراسة عن الشيخ وأهم معالم حياته، ولكن العيون كانت ترنو إلى خليفته وأقرب الناس إليه وهو ابن أخته شيخنا وأستاذنا علامة العربية الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله تعالى، فقد صحبه أكثر مما صحبه غيره، صحبه في دروسه ومحاضراته، وفي منزله وفي رحلاته، وفي مجالسه العامة والخاصة، وعايشه حياته العلمية، والدعوية، والفكرية، وعرف نواحي من حياة الشيخ لم يعرفها غيره، واطلع من أخلاقه وسيرته على ما لم يطلع عليه الآخرون، فكان المرجو منه أن يكتب عن الشيخ من خلال معرفته به ومعايشته له، ويشير إلى ملامح من حياته وسيرته عرفها عن معايشة وقرب.

ولم يطل الانتظار حتى أصدر بعد وفاة الشيخ بسبعة أعوام كتابا باللغة الأردية، وتلقته الأوساط العلمية والفكرية بالقبول، وتداوله أصحاب الشيخ ومحبوه بالقراءة والاستفادة منه، وما إن حصلت على الكتاب إلا وقرأته من أوله وآخره، وقد علقت بعض فصول الكتاب بقلبي، فلا أزال أعيد قراءتها، واعترف العلماء بقيمة الكتاب وخطورته، ونوهوا بذكره ورغبوا في أن يترجم إلى اللغة العربية، وكان على رأس من اهتم لذلك أخونا المبجل وصديقنا الوفي الكريم الشيخ عبدالحي الندوي المقيم في الدوحة عاصمة دولة قطر، حفظه الله تعالى، فكلف أحد زملائه وهو الأخ حسيب الرحمن مجيب الندوي بنقله إلى العربية، فأسرع إلى ذلك، ثم أعاد غير واحد من العلماء النظر في الترجمة، فوجدوها موفية بحق الأصل في فصاحة وبيان. وإنه لما يبعثنا على سرور بالغ أن الكتاب جاهز الآن للطباعة والنشر، حتى يستفيد منه القراء العرب من محبي الشيخ، والمستفيدين منه، وعددهم لا شك كبير.

إن هذا الكتاب الذي نقدمه إلى قراء العربية يتميز عما سبقه من الكتابات عن الشيخ الندوي في ناحيتين رئيسيتين: إحداهما أن هذا الكتاب - كما مضت الإشارة إليه- بقلم أقرب الناس إليه وأعلمهم به، جامعا بين العدالة والضبط، وبعيدا عن الغلو والمبالغة، والثانية أن هذا الكتاب تعرض لبيان العوامل وراء تكوين شخصيته، والتركيز

على أخلاقه وشمائله التي جعلته أسوة للناس، ومحببا لدى الناس، وهي ناحية أغفلتها الكتابات الأخرى إغفالا، أو مرت بها مرور الكرام، يقول شيخنا محمد الرابع الحسني الندوي مؤلف الكتاب مشيرا إلى هذه الناحية بعد الإشادة بفضل كتاب (في مسيرة الحياة) الذي ألفه الشيخ رحمه الله تعالى بنفسه:

«وأصبحت ترجمته الذاتية هكذا تاريخا لعهده وعصره بدون شك، وأما صفاته الذاتية وخصائصه الشخصية فقد صفح الشيخ الندوي رحمه الله عن ذكرها وبيانها، وذلك من تواضعه وعلو شأنه، والواقع أن جانب صناعة الرجال من جوانب حياته له أهميته الكبرى، وهو الذي يلقي الأضواء على إنجازاته ومؤهلاته العملية في الحياة بشكل أفضل.

شعورا بأهمية هذا الجانب أعرب بعض الناس عن ضرورة قيام بعض أقارب الشيخ الندوي رحمه الله الذين يكونون قد عايشوه ورأوه عن كثب بل وارتباط واتصال، بإبراز تلك الجوانب التي تصور حياته تصويرا أوسع بل وأكمل إلى حد قريب، فطلب إلي بعض الناس – شعورا بهذه الضرورة – أن أتمم هذا العمل المهم، فوافقت عليه بعد تردد وتلكؤ حيث إنني شعرت شخصيا بكون الطلب معقولا».

فالكتاب باقة أزهار ومجموعة شذرات من تلك النواحي الخلقية والروحية من شخصية الشيخ التي تعتبر بمثابة القدوة في سيرته والأسوة في حياته. إن هذه الشذرات إشراقات من حياته، وقبسات من سيرته، وليست إحاطة بجوانب عبقريته ونواحي عظمته، فحياة الشيخ وسيرته أوسع من ذلك بدرجات، وأعمق منه بطبقات.

إنها إشراقات من حياة الشيخ، إشراقات روحية صافية، وإنها قبسات من سيرة الشيخ، قبسات من نور تبعث الطمأنينة والهدوء في القلوب، وتستوقف القارئ يتملاها تمليا، وستظل هذه الإشراقات والقبسات في جوانب سيرته ووقائع حياته وسلوكه، وإنجازه معالم مضيئة، وقناديل منيرة لكل من يترسم أخلاق العلماء الربانيين، وشمائلهم، ويتوسم هدي الدعاة المصلحين ومنهج حياتهم، ويقتفي خطى الأئمة المهديين و آثارهم.

إن هذا الكتاب شرح لمكامن الإعجاب والتقدير في شخصية الشيخ، ودلالة على جوانب القدوة والأسوة في أسرته، إنه يقدم توجيها تربويا وتعليما سلوكيا من خلال شخصية فذة ونموذج فريد، وشاهدا حيا على فضائل وكمالات، ومكارم ومروءات،

ومحاسن أخلاق هي أشبه بما يروى عن السلف الصالح من التابعين ومن بعدهم من الدعاة المصلحين العاملين المخلصين، يعرض الكتاب لأول مرة قصصا نادرة ومواقف عجيبة من تواضع الشيخ وحلمه، وكرمه وسخائه، وسعة قلبه ورحمته على العباد، وصلة الرحم، وبساطة المعيشة، والزهد، إن الشيخ يذكر اليوم فيذكر بتلك المكان والفضائل والمحامد كما يذكر بإنجازاته العلمية، وأعماله الدعوية والفكرية، وجهوده الإصلاحية والتجديدية.

من أهم مزايا هذا الكتاب هو أسلوب الشيخ الواقعي المباشر، وهو أسلوبه في التعليم والتدريس، فقد رأيناه دائم الحرص على إيصال المعلومات بأسهل طريق إلى المتعلمين والسامعين، معطيا للدرس حقه من الشرح والبيان، ولا ينتقل بالطالب إلى موضوع جديد حتى يكون قد فهم ما مضى.

وإن كنا في حاجة إلى التذاكر وتلقي الدروس من سيرة العلماء الربانيين وهم أحياء فنحن إلى تذكرها بعد وفاتهم أحوج، فالشيخ كان ولا يزال شخصية متميزة ومدرسة سلوكية متكاملة، ونحن إذ نتحدث عن هذه الشخصية التي نكن لها جميعا الحب والتقدير نشكر شيخنا وأستاذنا السيد محمد الرابع الحسني الندوي على تأليف هذا الكتاب القيم رغم أشغاله الكثيرة ورحلاته الواسعة، فجزاه الله تعالى خيرا ونفعنا ببركاته ومتعنا بطول بقائه.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه
محمد أكرم الندوي
أوكسفورد
24 رجب 1431هـ

مقدمة الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور عبدالله عباس الندوي

أستاذ بأم القرى بمكة المكرمة، ومعتمد التعليم لدار العلوم لندوة العلماء لكناؤ

مضى على وفاة شيخنا الحبيب ومربينا الجليل العلاّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله ما يناهز ستة أعوام من الزمن، وقد دخلنا الآن في العام السادس، ولقد ظهر خلال هذه الفترة القصيرة كثير من الكتب والمؤلفات تتحدث عن حياة الشيخ الندوي رحمه الله وترجمته، في اللغة الأردية وفي اللغة العربية أيضا، منها ما هو ترجمة كاملة لحياته رحمه الله، مثل ما صدر بقلم الأستاذ بلال، وكان والده رحمه الأستاذ السيد محمد الحسني كاتبا قديرا معترفا بقوة قلمه ولسانه في العالم الإسلامي كله، وكان الأخير فلذة كبد الشيخ الندوي رحمه الله ومحط آماله وطموحاته، وقد جمع في ذاته المواهب والمؤهلات الفطرية الهائلة.

إن كتابة التراجم وخاصة لأهل العلم والدين والمشايخ الكبار كانت ذوقا وسليقة طبع عليها أفراد هذه الأسرة، يعبر عنها أحسن تعبير كتاب «نزهة الخواطر». وقد مثل هذه السليقة على النحو نفسه الشيخ الندوي رحمه الله أيضا في المجلد الأول من ترجمته الذاتية بعنوان «في مسيرة الحياة»، بينما تحدث في المجلد الثاني عن قصص العزائم التي شهدها في حياته العملية مثل إنشاء مجلس المشاورة الإسلامي، ومجلس التعليم الديني، وحركة رسالة الإنسانية، إلى جانب قصص الهزائم مثل سيطرة إسرائيل على مصر، وانهيار دكا وما إلى ذلك، وسجل انطباعاته عن جميع هذه الأحداث والأهوال، وعما مر به في هذه الأثناء من نشاطات هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين، وحركة الأدب الإسلامي، والأحداث العالمية والحديث الصريح مع العالم العربي والإسلامي، بأسلوب لم يكن فيه انحياز ولا تملق، بل أداء للواجب الذي يفرضه عليه دينه ورسالته، وإن كان هذا الأداء في إطار قانوني ومبدئي وسياسي، غير أنه كان في كل ذلك يفيض فورانا من طبيعته، وحماسا من قلبه، وعاطفة من داخله.

وكذلك ليس بقليل من كتبوا ترجمة الشيخ الندوي رحمه الله وأعربوا عن انطباعاتهم، وأبرزوا الجوانب الإلهامية من حياته، بل هم كثر، في اللغة العربية وفي اللغة الأردية أيضا،

ومنهم هذا العاجز كاتب هذه السطور، الذي ألف وقدم ضريبة حب ووفاء بعنوان «مير كارفان»، إلا أن الذي يستطيع أن يكتب في حياة الشيخ الندوي رحمه الله بأكبر قوة وأوسع معرفة في ضوء مشاهداته وتجاربه الشخصية هو الشيخ العلاّمة الشريف محمد الرابع الحسني الندوي، أطال الله عمره وحفظه من كل سوء، وكم خطر ببالي أنه صورة وتجسيد للشيخ الندوي رحمه الله، وقد شابهه صورة وشكلا لانتمائهما إلى محتد كريم واحد.

إن مما أكرم الله به الشيخ الندوي رحمه الله وخصه من منن عظيمة أنه رزقه بخليفة يشكل بنفسه انعكاسا له بلا خلاف، غير أنني كنت مع ذلك أود وأحبذ أن يقوم هو بنفسه بكتابة ترجمة لحياة الشيخ الندوي رحمه الله، وذلك لأن ما هو مسموع للآخرين عن حياة الشيخ الندوي رحمه الله يكون بالنسبة له حقيقة مرئية، فقد سمع الناس بأن ثقافة الشيخ الندوي رحمه الله وتربيته على جوهرة التقوى وإذكاء عاطفة خدمة الدين وأمنية التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله سبحانه وتعالى كانت عطاء من أمها، وثمرة لجهودها، ونتيجة لدعواتها وتوسلاتها إلى الله سبحانه وتعالى، و لكن هذا الأمر بالنسبة للشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ليس بمسموع، بل كان من صميم حياته، فقد عايش وشاهد بأم عينه ما كانت تقوم به جدته من الأم من أذكار وأوراد، ودعوات طوال، وصلوات في الليل، كما أنه لازمه في سفره وحضره، ولم يكن مجرد رفيق في السفر بل كان بمثابة وكيله، يصدر بيانات وتصريحات نيابة عنه بما كان يوافق رأيه وتفكيره، وظل هو المسئول عن تنفيذ جميع المسئوليات والأعمال التي كان الشيخ الندوي رحمه الله يقبلها في حياته.

بالرغم من أن الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي لم يقدم لنا شيئا يسمى بالترجمة لحياة الشيخ الندوي رحمه الله إلا أنه ذكر من المشاهدات والأحداث المهمة في حياته ما يبدو كأنه هو الذي جربه وعايشه، فظل يكتبه ويقدمه في مقالات بين فينة وأخرى، تحولت مجموعتها إلى كتاب وهو الذي بين يديك.

ولقد كتب الكثير من الناس وكلهم كتبوا بحب وولاء وعاطفة قلبية ولا أقلل من قدرهم بل «لكل زهرة أريجها ورائحتها، ولكل بلبل نشيده وغناؤه»، فكل من كتبوا إنما كتبوا عما شاهدوا وعايشوه، ولم يكن أحدهم كلف بأن يكتب، لكن على العكس عبر كل واحد منهم عما شعر، وأعرب عما أحس تجاه هذه الشخصية العظيمة، وبالتالي ظهر إلى النور باللغة العربية وباللغة الأردية أيضا كثير من مجموعات المقالات والانطباعات

ما بين صغيرها وكبيرها في هذه الفترة القصيرة، ولا يزال متواصلا بمختلف العناوين بفضل من الله سبحانه وتعالى.

إن المقال الذي دبجه الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي بعنوان «عوامل تشكيل شخصية الشيخ الندوي رحمه الله» يشكل أفضل تصوير لحياته رحمه الله الابتدائية، فقد ذكر الكاتب بعد ما أشار إلى أبرز الشخصيات التي ظهرت في أسرته منذ عام 1857م حتى العصر الأخير أن أسرة الشيخ الندوي رحمه الله من جهة أمه كانت إقطاعية ومرفهة لكن تحت سيطرة الدين وغلبته، فكانت الإقطاعية والتدين في الأسرة يسيران جنبا إلى جنب، وظل هذا التراث العظيم يورث النشء اللاحق صفات الزهد والعفاف، والدعوة والتضحية، والدعاء والمناجاة، وتزكية النفس والإنابة إلى الله، وبقيا هذان التياران مندمجين منسجمين في الأسرة وأفرادها. فلو حاولت أن أعبر عما قاله الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، بأسلوب الشاه ولي الله الدهلوي فيمكنني أن أقول إن مقتضيات البشرية وجذب الروحانية كانت قد تجمعت بأعلى مستوياتها في أسرته، وكان بين هاتين القوتين انسجام واتزان، دون افتراق ونزاع، وإن الطين الذي عجن منه عجين شخصية الشيخ الندوي رحمه الله لم تكن تشوبه رهبانية النساك والرهبان، ولا جشع الطماعين الذي لا يعرف النهاية.

إن العوامل التي ساهمت في تشكيل شخصية الشيخ الندوي رحمه الله أجمع عليها كل الكتاب والعارفين، وهو الأمر الذي كتبه الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي بأن تربية والدته، وتعليم الشيخ أحمد علي اللاهوري ودعوات الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ التهانوي، والعناية الروحانية من قبل الشيخ محمد إلياس مجدد الدعوة والتبليغ، والمحدث الكبير الشيخ محمد زكريا، والشيخ عبد القادر الرائيفوري بالإضافة إلى دعوات المشايخ الآخرين من أمثال الشيخ الشاه وصي الله الفتحبوري، والشاه محمد يعقوب المجددي، والشيخ محمد أحمد البهولبوري، جعل ذلك كله الشيخ الندوي رحمه الله محط العناية الإلهية الخاصة، وهذا هو ما كتبه الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي وهو أمر مصدق موثوق به، مجرب في بيته، مرئي بأم عينه.

غير أن هذا العاجز كاتب هذه السطور يرى رأيا آخر، يتمثل بأن الشيخ الندوي رحمه الله قام بتربيته تربية ظاهرة وباطنة والدته الكريمة وشقيقه الكريم الدكتور السيد عبدالعلي رحمهما الله وحولته هذه التربية الصالحة إلى جوهرة كريمة، اجتذبت عناية الصالحين المصلحين والمشايخ الكبار في عصره الذين كانوا يعملون في مجال ربط العباد

بربهم، والمخلوقين بخالقهم، فاحتفوا به احتفاء كبيرا، واعتنوا به اعتناء بالغا، فكان الأصل هو الجوهرة الكريمة التي استلفتت هؤلاء المشايخ الكبار إليها، وقد قرأنا في ترجمته أن المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا رحمه الله، وإمام التبليغ والدعوة الشيخ محمد إلياس الدهلوي، ومن بعدهما مثل الشيخ الشاه محمد يعقوب المجددي والشيخ الشاه وصي الله رحمهم الله جميعا عرفوا قيمته ومكانته في أول لقاء حصل بينه وبينهم، فاختصوه بعنايتهم، وجعلوه أقرب الأشخاص إليهم رغم تواجد الآخرين عندهم منذ مدة طويلة. إذ كانت السليقة موجودة، والمؤهلات متوافرة، والتربة صالحة، فكان الشيخ الندوي رحمه الله وردة حيثما حل وارتحل.

ولقد ذكر الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي بأسلوبه الرفيع نفس هذه المعاني التي حاولت أن أصفها لكم بأسلوبي الركيك، وهذه هي العوامل الرئيسية المهمة في تشكيل شخصية الشيخ الندوي رحمه الله.

بعد ما بلغ الشيخ الندوي رحمه الله نفسه عمر رشده وجد نفسه عضوا من أعضاء أسرة الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، والذي كانت مكارمه ومآثره تثير في نفوس أهل الإيمان مكامن الحب والشوق والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، والإنابة إليه، وتمني الشهادة في سبيله، فورث الشيخ الندوي رحمه الله هذه الصفات العالية، وطريقة الدعوة والإرشاد والتوجيه التي كانت خالية من الرياء والتظاهر، يراعي فيها لمشاعر كل من الملوك والمأجور.

خاطب الشيخ الندوي رحمه الله الملك سعود والملك فيصل في المملكة العربية السعودية، كما خاطب الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق، كما خاطب العاهل الأردني الملك عبدالله، كما خاطب الملك المغربي حسن، كما دعا وخاطب سكان القرى والأرياف القريبة من مدينة لكناؤ، وحاول أن يوصل إلى قلوبهم الرسالة الإلهية بما يوافق ويتطابق عقولهم ومدركاتهم. كانت طريقته في الدعوة والتوجيه هي نفس ما سار عليه الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني رحمه الله، الذي كان الله سبحانه وتعالى قيضه للدعوة في زمانه ومكانه، فكان حارسا للشريعة البيضاء في الهند. إنما الحارس للشريعة البيضاء الله سبحانه وتعالى ولكن الذين قيّضهم الله سبحانه وتعالى لهذه الخدمة العظيمة، واختارهم لبناء العالم وعمارته، سيعد الشيخ الندوي رحمه الله أيضا منهم، إن لم يكن هنا فهناك، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة دون أدنى شك أو ارتياب، لأن أول

خطوة خطاها الشيخ الندوي رحمه الله في حياته كانت في أرض الدعوة ومجالها، وعلى أرض الارتباط بالله سبحانه وتعالى، ولم يلفظ نفسه الأخير إلا عند ما جرت على لسانه الآية القرآنية الكريمة (فبشره بمغفرة وأجر كريم).

إن نظرية التعليم التي كان الشيخ الندوي رحمه الله يحملها لم تكن نبتة نبتت في إطار جدران المدرسة الضيقة، لكن الشيخ الندوي رحمه الله كان قد فحص مقاييس الشرق والغرب، واختبر معايير التعليم ونظمه، ودرس واطلع على المؤهلات التي كانت مطلوبة في هذه النظم التعليمية في مختلف المراحل التاريخية، وعرف ما كان معيار التفوق في مختلف الأزمنة والأمكنة، كما عرف المؤهلات التي ينبغي أن يكتسبها ويستغلها القائمون بأعمال الدعوة الدينية في هذا العصر الأخير، ومن هنا قام بإعداد منهج تعليمي جديد، وكان الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ساعده الأيمن في تنفيذه وتطبيقه، وبالتالي كان هذا الموضوع يستحق أن يسلط عليه الضوء من قبل الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي رئيس دار العلوم لندوة العلماء، وقد قام بهذا العمل أحسن قيام وأجمله وهو بين يديك الآن.

لم يكن الأدب في رأي الشيخ الندوي رحمه الله زخرفة الألفاظ والعبارات، ولكنه إذا اقتبسنا قول سيد علي الطنطاوي _____ والأدب هو ما كتب عنه سيد قطب: «ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال - بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام - وشاركت في تأليف مجموعة (القصص الديني للأطفال) في مصر، مأخوذا كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد من غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي بين يدي جاء أكمل من هذا كله».

وكتب عنه معالي الشيخ عبدالعزيز الرفاعي _____

اطلع العاجز كاتب هذه السطور على هذه المعلومات الضئيلة لأنه قرأها منشورة في مختلف المجلات والجرائد، والكتب والمؤلفات ولكن الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي أدرى مني بكثير بالخطوط التي كانت تنبني عليه نظرية الشيخ الندوي رحمه الله للتعليم، وقد كتب الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي:

(كان الشيخ الندوي رحمه الله قد اطلع من خلال احتكاكه بأقربائه المثقفين ثقافة عصرية، ومن خلال دراسته المباشرة اطلاعا كاملا على أسباب والرقي الأوروبي والتفوق الأوروبي، فكان لا يعتبر تفوق الشعوب الغربية في المجالات الدنيوية نتيجة لتفوقهم

العقلي والفكري، بل نتيجة للأسباب والعوامل العلمية والعملية المعينة، فقد كان على قناعة تامة بتفوق العقل التي يشكله الإسلام، وتفوق المنهج الذي ترشد إليه النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، وكان يعتقد أنه إذا اخترنا هذا المنهج للعمل، واستفدنا من الوسائل العلمية والعملية المتوفرة التجريبية التي استفادت منها الشعوب الغربية لتبلغ ما بلغت إليه من تطور ورقي فإننا نستطيع أن نحرز رقيا أكبر، ومكانة أرفع مما لدى الشعوب الغربية)

ويستطرد الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي فيقول:

(كان الشيخ الندوي رحمه الله يفكر في الجانبين من التعليم، أما جانب التعليم العصري فإنه من الضروري في هذا المجال أن نرى ما هي مقتضيات العصر فيما يتعلق بالحياة الدينية والعملية، ثم نختار من مواد التعليم العصري ما يتعلق مباشرة بالجوانب الفردية والاجتماعية من الحياة وفق هذه المقتضيات، ونحصل المقدرة عليه، وأما فيما يخص بالتعليم الديني فإنه من الضرورة أن نشعر بتفوق الإسلام الفطري والديني على الأفكار والنظريات الأخرى، وأن نقتنع بتفوقه واستعلائه، ونقوم بتحصيل المقدرة الصحيحة على الأعمال الدعوية لكون الأمة المسلمة خير أمة أخرجت للناس. كان الشيخ الندوي رحمه الله يعتقد أن النشء الجديد يجب أن نقوم بتشكيل مناهج تعليمه وتربيته بأسلوب يمكنهم من إحراز تلك القدرات والمؤهلات المذكورة أعلاه. وأما بالنسبة لجامعات ومؤسسات التعليم العصري فإن الشيخ الندوي رحمه الله كان يرى أن المقررات الدراسية فيها من العلوم الاجتماعية والإنسانية قام بإعدادها حملة الفكر الغربي الذين هم في عقيدتهم ملحدون وماديون، فهذه المقررات لا تفي بضرورة الأمة المسلمة ولا تنسجم مع مزاجها وفكرها).

إن الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي لم يستوعب فحسب نظرية الشيخ الندوي رحمه الله التعليمية ولكنه تمثلها تمثلا كاملا، وكذلك كان حال الشيخ محمد الحسني المرحوم، ومما يميز هذين الشيخين عن الآخرين أنهما لم يعرفا نظرية التعليم هذه من خلال مجرد الدراسة، بل كانا قد أشربا هذه النظرية، وتمثلاها تمثلا حقيقيا، فأصبحا أنفسهما عيونا كان الشيخ الندوي رحمه الله ينظر من خلالهما، وهو الأمر الذي يشكل ميزة أسرتهم أيضا.

إن هذا الكتاب وهو متضمن لمقالاته في مختلف جوانب حياة الشيخ الندوي رحمه

الله، لم يكن بإمكان غيره - حسب رأيي المتواضع - أن يؤلفه، طالما لم يسعد بنفس الصحبة والملازمة التي حصلت للشيخ محمد الرابع الحسني الندوي وللشيخ محمد الحسني قبله.

وأما فيما يتعلق بالأدب الإسلامي فإنه لم يكن مقصورا - مثل ما سبق أن ذكرنا - على إدخال مواد دينية معينة في المقررات الأدبية. إن الكتب التي يتم إعدادها حاليا لوزارات التعليم في البلدان العربية وخاصة المملكة العربية السعودية تتضمن جزءا كبيرا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فتدرس فيها عدد من السور وأبواب الحديث، وقد قبلت وزارة التعليم الأردنية تدريس بعد الكتب التي تدرس تحت وزارة التعليم السعودية، وأما مصر فلها الإمامة في هذا المجال، وقد أدخلت الكتب التي تم إعدادها فيها في مقررات جميع البلدان الخليجية، والدول العربية بل وفي المغرب ومراكش، والجزائر وموريتانيا، وليبيا، وما إلى ذلك، فالمقررات الدراسية التي تم إعدادها في جميع هذه البلدان للابتدائية والثانوية لا تخلو موادها الأدبية من المواد الدينية.

ولكن نظرية الشيخ الندوي رحمه الله للتعليم كانت تختلف عن نظرية التعليم المصرية، فكان يدخل الدين في الأدب فيعجنه كما يعجن الطحين بالملح أو السكر، وما كان يعجبه تعريف الأدب المعاصر. وأما تفضيل الكتاب والمؤلفين العرب لكتب الشيخ الندوي رحمه الله على الكتب التي هم مؤلفوها فلم يكن السبب في ذلك أن كتب الشيخ الندوي رحمه الله كانت مطبوعة بغلاف جذاب، ومواد مصورة وتلوين فاخر. كان عمل الشيخ الندوي رحمه الله في مجال الأدب عملا تجديديا، غير هيكل الأدب وعنوانه، إلى أن بدا تعريف الأدب الذي كان متداولا ورائجا منذ قرون خاطئا، ولما بدأ الكتاب والأدباء في مصر وبلاد الشام حركة الأدب الإسلامي عرضوا رئاستها على الشيخ الندوي رحمه الله نفسه، وقام الشيخ الندوي رحمه الله بتقديم ذلك الأدب الإسلامي الذي تظهر روائعه حاليا في مجلة المشكاة الصادرة من مراكش، ومجلة الأدب الإسلامي الصادرة من الرياض، ومجلة كارفان أدب الصادرة من الهند.

وعندما عزمت الحكومة الهندية العلمانية آنذاك على نشر علم الأساطير الهندوسية وأرادت أن تعرض الإسلام في المرتبة السادسة أو الثامنة ضمن جملة الديانات الأخرى ذات التقاليد والعادات المحلية قام الشيخ الندوي رحمه الله بمعارضة هذه الخطوة معارضة شديدة، ولما تصدى لها الشيخ قاضي عديل عباسي المرحوم على طريقته أيده الشيخ الندوي رحمه الله تأييدا علنيا مطلقا. كان الشيخ الندوي رحمه الله لا يعير أية أهمية

لمصدر العمل أو مبدئه، فما كان يعتقد أن العمل إذا بدأ في بيته فهو مفيد وإلا فعقيم بلا جدوى، بل كان يعير الأهمية للعمل إذا كان عاملا على إجلال مكانة النبي الكريم، وإعلاء كلمة الله العظيم، فكان يقبل أي عمل إذا كان بأعلى مستويات فكر الإنسان، سواء أجاء من الشرق أم من الغرب، فكان مقدرا لمدرسة ديوبند كما كان ناصحا لمدرسة سهارنفور، وكان كل مكان يذكر فيه اسم الله بمثابة قبلته ومحط عنايته، وكان معاديا عداء شديدا لكل ما ومن يقصر في هذا الجانب سواء أكان ذلك جمال عبد الناصر الذي كانت دعاياته الشخصية تجتاح العالم العربي من المحيط إلى الخليج، فلم يعر له أية أهمية أو اعتبار، وأنكر عليه إنكارا سافرا بكل ما أوتي من قوة، وحماس. فإذا كان فرد من الشعب الهندي المقهور والمضطهد الذي لا يستطيع أن يحرك ولا ورقة واحدة في الحكومة، إذا كان يتصدى لرئيس بلاد يبلغ سكانه خمسين مليون نسمة، ويمتلك النيل والفرات، ويحتل عرش فراعنة مصر، ويعتبر فلذة كبد روسيا وأمريكا، فهذا هو ما يسمى بالغيرة الهاشمية، التي أنهضت الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد من مكانه ومستقره، وهذا هو التراث الذي ورثه الشيخ العلاّمة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله رحمة واسعة.

لقد ظهرت كتب كثيرة باللغة العربية وباللغة الأردية في ترجمة الشيخ الندوي رحمه الله، ولا تزال تظهر، وقد أصبح اسمه رحمه الله عملة نافقة رائجة، وتقوم دور النشر العربية بنشر كل ما ينتمي إليه بكل فخر واعتزاز، حتى المقدمات والتحليلات والآراء عن الكتب المؤلفة في ترجمته بدأت مجموعاتها تنشر وتوزع، وهي نعمة من الله سبحانه وتعالى، وثمرة لقبوله عند الله جل وعلا.

أعتقد أن المكتبة الإسلامية تكون قد منيت بفراغ لا يسد إذا كان الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي لم يكتب هذا الكتاب، وإن الشيخ محمد الرابع لم يؤد بكتابته حق خاله عليه فحسب بل قدم خدمة عظيمة للأمة الإسلامية أيضا.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويجعله في ميزان حسناته.

عبد الله عباس الندوي
مكة المكرمة
2005/5/29

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتمهم سيد المرسلين وإمام المتقين محمد بن عبدالله الصادق الأمين وعلى آله وصحبه وذريته ومن تبعه ودعا بدعوته واستن بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد!

طرح على أديب كبير من بلاد الشام وقاض من قضاة المحكمة العليا سابقا في مقابلة إذاعية سؤال: ما هي أحب البلاد إليك؟ قال: وطني الشام، ثم مدينة صديقي الشيخ العلاّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي مدينة لكناؤ. وكذلك قال عالم عراقي لأحد المسئولين الحكوميين الهنود بأننا لا نعرف الهند إلا بلكناؤ، ولا نعرف الأخيرة إلا بسبب الشيخ العلاّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي. هذه الانطباعات وأمثالها التي سمعناها في العالم العربي تدل دلالة واضحة على عالمية شخصية الشيخ الندوي رحمه الله. ولكن لماذا وكيف تشكلت هذه الشخصية العالمية؟ ومن هنا برزت الحاجة بشدة إلى أن نعرف العوامل والأسباب التي لعبت دورها في تشكيل شخصية الشيخ الندوي رحمه الله.

من أهم هذه العوامل تربية الشيخ الندوي رحمه الله ودراسته المنزلية وبيئته العائلية التي امتازت بالتدين الشديد، والقيم النبيلة، والمجتمع الصالح الطيب، واتصالها الوثيق بالعلم الأخلاق والأدب في جانب، وفي جانب آخر كانت هناك رغبة أكيدة وحرص شديد وجهاد ونضال لإنقاذ البلاد من الاستعمار الأجنبي، ولاستقلالها من براثن العدو الغاشم. كان جده الكبير الشيخ السيد فخر الدين الخيالي شاعرا وأديبا، ووالده الكريم الشيخ عبدالحي مؤرخا ونقدا، ومؤلفا في السيرة، وأخوه الكبير الدكتور عبدالعلي طبيبا حاذقا، ومجمع البحرين الجديد والقديم، وأمه الكريمة كانت صالحة معترفا بصلاحها وتدينها في الأسرة، وحاملة للعلم والأدب، وشاعرة صاحبة ديوان، وأخته أيضا كانت مؤلفة وكاتبة، وفوق ذلك كله كان رأس الأسرة الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه

الله أنموذجا رائعا لرهبان بالليل وفرسان بالنهار، فأثرت هذه العوامل المتنوعة كلها تأثيرا كبيرا في تشكيل شخصية الشيخ الندوي رحمه الله فجعلته يجمع في ذاته كل هذه الصفات والخصائص التي كانت منتشرة في أفراد أسرته، فاجتمعت في شخصية الشيخ الندوي رحمه الله جوانب مختلفة، فكان عالما وأديبا، ومجاهدا ومناضلا لتشكيل المجتمع الهندي مؤسسا على المثل الإنسانية العليا، وحريصا على بناء البلاد وتطويرها، وإيجاد الأخوة والمواساة والتعاطف بين أبناء الوطن، والارتقاء بالمسلمين خلقا وعلما في جميع مجالات الحياة. وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد شهد العصر الذي كانت فيه بلاد الهند مستعبدة للاستعمار الأجنبي فعرف الظلم والاستبداد الذي مورس عليها على أيدي الاستعمار، وعرف التخلف والضعف الذي عانى منه المسلمون بصفة خاصة، مما أداه إلى تقدير قيمة الحرية والاستقلال، فلما استقلت البلاد من براثن الاستعمار أحس الشيخ الندوي رحمه الله بشدة بضرورة تقدم أبناء الوطن وارتقاء سكان البلاد في ضوء القيم الدينية والمثل الإنسانية العليا، ليحتلوا أعلى مراتبهم، ويحصل المسلمون على ما لهم من حقوق دينية، وشخصية دينية مستوفاة غير منقوصة، وأن يعيشوا في البلاد مع أتباع الديانات الأخرى بمشاركتهم في أمور البلاد بتعاطف ومواساة ومساواة. فلما دخل الشيخ الندوي رحمه الله في ميادين العمل قام بعمله في جانب على جبهة التعليم والتدريس، وفي مجال إصلاح المجتمع وتهذيب الأخلاق في جانب آخر. كان الله سبحانه وتعالى قد اختص الشيخ الندوي رحمه الله ببلاغة وتأثير في قلمه ولسانه، فاستخدمهما أحسن استخدام، ونفع بهما في مجال التعليم وإصلاح المجتمع. كان الشيخ الندوي رحمه الله قد درس دراسة متعمقة لتاريخ الشعوب والأمم، فاستوعب العوامل والعلل التي ترفع الشعوب وتحطها، فاستفاد بها استفادة كبيرة في أعماله. ولكن لم يكتف بخطبه ومحاضراته وكتبه ومؤلفاته في هذا الصدد بل بادر إلى الاجتماع واللقاء مع الشخصيات والمسئولين ذوي النفوذ والتأثير، لتوجيه عنايتهم إلى خدمة البلاد وتطويرها، وقدم ما وسعه من التعاون لكل من قام بخدمة البلاد. كان أسلوب الشيخ الندوي رحمه الله أسلوب الناصح والمتعاطف وأسلوبا واضحا بسيطا لا التفاف فيه، فكان يعتبر لذلك مخلصا وتقيا لدى جميع الزعماء والقادة على اختلاف أفكارهم وتنوع نظرياتهم، وكان يتمتع بالشعبية والقبول عند الجميع. كان الشيخ الندوي رحمه الله عالما كبيرا بالدين وعلومه، فاحتل مكانة مرموقة وشعبية واسعة بين علماء المسلمين، وبدأ العالم الإسلامي ينظر إليه في وقت قصير نظرة الحب والإجلال، والتقدير والاحترام. وإن كان الوطن الأصلي للشيخ الندوي رحمه الله مديرية راي بريلي،

غير أنه تربى وترعرع في مدينة لكناؤ، ثم صال وجال في مجال عمله في نفس المدينة فكانت له صلة بها قوية.

يعرف جميع المثقفين من المسلمين ما كان للشيخ الندوي رحمه الله من رغبة واهتمام بشئون المسلمين الملية التعليمية والدينية، من مستوى التفكير والقيادة، وما حصل لهم من فائدة من هذا الاهتمام البالغ. كان الشيخ الندوي رحمه الله إلى جانب اهتمامه الخاص بأمور المسلمين يهتم بصلاح البلاد ورفاهيتها، غير أن عنايتهم انصبت بتركيز في ما يتعلق بالمسلمين، من تعليمهم، وشخصيتهم وسلوكهم، قضايا الحفاظ على دينهم وشريعتهم. أما ما يتعلق بتعليم المسلمين فكان المحط الأصيل لفكره وعمله هو دار العلوم لندوة العلماء التي كانت تأسست قبل قرن من الزمن على أساس الجمع بين الجديد النافع والقديم الصالح، فارتقى بها الشيخ الندوي رحمه الله خلال رئاسته لها لمدة أربعين سنة ماضية لتكون مؤسسة تعليمية عالمية شهيرة ومقبولة على مستوى العالم، كما أنه قام بمبادرة في مجال التعليم الابتدائي لأطفال المسلمين في هذه البلاد ذات الأغلبية الهندوسية لإنشاء المجلس التعليمي الديني، وأشرف على النظام الذي أقيم تحت مظلته وترأسه ما بقي على قيد الحياة.

شارك الشيخ الندوي رحمه الله في الحركة العظيمة التي قادتها هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند للحفاظ على الشريعة الإسلامية في الهند، وانتخب رحمه الله رئيسا لها بعد وفاة رئيسها الشيخ المقرئ طيب رحمه الله، وبقي يحتل هذا المنصب حتى آخر لحظة من لحظات حياته، ولعب دورا رئيسا في حل مشاكلها وقضاياها، كما أدى النصح للبلدان والمؤسسات والجمعيات الإسلامية خارج الهند وقدم تعاونه لها.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يهتم إلى جانب اهتمامه بالأمة الإسلامية وقضاياها بالنصح للإنسانية جمعاء، فأنشأ حركة رسالة الإنسانية، وكان يشرك فيها كل المحبين للخير والسلام من جميع الأديان والمذاهب، ويوجههم إلى ما فيه الخير والرفاهية للبلاد والشعب، فكان الشيخ الندوي رحمه الله يحيط بعنايته كل المستويات الملية والوطنية والدولية، وجعلها كلها مجال عمله واهتمامه، وعاد بالتقدير والاحترام والإشادة على ما قدمه من أعمال وخدمات على جميع هذه المستويات. كان الشيخ الندوي رحمه الله لا يتقاعس عن تقديم المعونة حيث كان يراها ضرورة، وكان لا يكف عن الانتقاد والاستنكار حيث كان يرى انحرافا أو قصورا، وكان يقوم بالعمل الجريء لتوجيه عناية الناس إلى الحفاظ على مصلحة الأمة الحقيقية، وكان يستخدم تحقيقا لهذا الغرض

أسلوب الخطاب العام لعامة الناس، وأسلوب اللقاء والإفهام للمسئولين الحكوميين. إن الأسلوب الذي كان اختاره الشيخ الندوي رحمه الله للقيام بالخدمات الملية والدينية كان يستخدم فيه من الأساليب ما كان مناسبا لمكانة المخاطب وتكوينه العقلي، مع التقدير والاعتراف لأعماله وجهوده، إنه كان ينتقد من كانوا يستحقون النقد ولكن بأسلوب فيه حب ولطف وشفقة، فكانوا يحتملون حتى مر الكلام وشديده، فاستفاد في هذا الصدد من الفرص التي سنحت له للاجتماع بكبار زعماء بلاده ورؤساء البلدان الأخرى، بكل استغناء وزهد فيما عندهم، مشعرا إياهم بأنه لا يهدف من ذلك كله أي غرض مادي، بل إنه النصح المجرد وليس غير، ويمكن الاطلاع على شيء من تفصيلاته فيما ورد ترجمته الذاتية مقالاته ومذكراته السياحية.

أما المجال العلمي والفكري فقد صدر من قلم الشيخ الندوي رحمه الله عديد من المؤلفات الموقرة والمؤثرة، التي أطبق صيتها ليس شبه القارة الهندية فحسب بل العالم الإسلامي قاطبة، ومنها ما تلقي بغاية من التقدير والإكبار، وقد اعتبر بعضها من بين أهم الكتب وأكثرها تأثيرا وقيمة على مدار القرن العشرين.

وأما الأدب فقدمه الشيخ الندوي رحمه الله نافعا للحياة الإنسانية، وكوسيلة فعالة للحصول على ما ينفع الإنسان والإسلام، وجعل العالم الإسلامي كله يقر بصلاحيته هذه، مما أدى إلى إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي ظل الشيخ الندوي رحمه الله رئيسا لها مدى الحياة، وأقيم مكتبها الرئيسي في مستقر الشيخ الندوي رحمه الله بلكناؤ. لم تكن أعمال الشيخ الندوي رحمه الله مقصورة في هذا الصدد على المجال النظري والحركي، بل وقدم الشيخ الندوي رحمه الله بنفسه روائع أدبية تعتبر نماذج عملية للفكرة الأدبية التي كان يحملها ويدعو إليها.

من بين المزايا الفكرية والنظرية التي كان يحملها الشيخ الندوي رحمه الله المزيج المتميز لما يسمى بإصلاح الباطن وتزكية النفس، الذي حصل عليه الشيخ الندوي رحمه الله من خلال ارتباطه الخاص بالعلماء العاملين بالسنة، والعاملين في مجال تربية النفس وإصلاح الباطن، والاستفادة منهم، مما أحدث في طبيعة الشيخ الندوي رحمه الله زهدا في الدنيا، والاستغناء عنها، والقناعة بما عنده، وغلبة تصور الآخرة، وهي صفات زادت المحبين له والمرتبطين به حبا وارتباطا وتعلقا به، كما زادت أعماله تأثيرا ونفعا، وجهوده نجاحا وشعبية.

كان مجال عمل الشيخ الندوي رحمه الله من الاتساع والاختلاف والتنوع، ومجال اهتمامه بالأمة الإسلامية، ومصلحة الوطن والشعب من تعدد الجبهات والجوانب ما ندر أن اجتمع في شخص واحد، وهذا هو السبب في أن وفاة الشيخ الندوي رحمه الله اعتبرتها كل الطبقات والجماعات من الأمة الإسلامية فاجعة كبرى، وليست الأمة الإسلامية فحسب بل وشاركهم في هذا الشعور الأليم من غير المسلمين أيضا من كان ناصحا ومحبا للوطن وأبنائه، واعتبروا وفاته خسارة فادحة، وأعربوا عن حزنهم وأسفهم العميقين، وأعلنوها فراغا لا يتوقع سده وملؤه بسهولة. إن الأعمال والجهود التي بذلها الشيخ الندوي رحمه الله في مجال العلم والدين ولصالح البلاد والأمة توجب على المقدرين لها أن يهتموا ويفكروا في استمرارها ومواصلتها.

لقد بادر العديد من الكتاب وأصحاب القلم بإعداد الكتب والمؤلفات في حياة الشيخ الندوي رحمه الله وأحواله وأفكاره، ومنهم أخونا الدكتور عبدالله عباس الندوي رحمه الله، الذي ألف كتابا بعنوان مير كاروان(أمير القافلة)، نشر في حياة الشيخ الندوي رحمه الله نفسها، كما كتب الشيخ الندوي رحمه الله نفسه ترجمته الذاتية في مجلدات ضمنها أحداث حياته، وهي وحدها كان من الممكن أن تكون فيها كفاية لتقدم للقراء الكرام مادة دسمة للشخصية الاستثنائية التي برزت في هذا القرن، واكتسبت التقدير والاحترام على المستوى الدولي، وهي من المفروض أن تكون أكثر واقعية ووضوحا في بيان ما لهذه الشخصية من مزايا وخصائص، وما لابسها من الأحداث والوقائع، وهي كذلك في بعض الجوانب إلا أن الشيخ الندوي رحمه الله قد أجزل واختصر في بيان الخصائص والمزايا الذاتية بينما أسهب واستطرد فيما يتعلق بالأمة الإسلامية وقضايا البلاد، وأصبحت ترجمته الذاتية هكذا تاريخا لعهده وعصره بدون شك، وأما صفاته الذاتية وخصائصه الشخصية فقد صفح الشيخ الندوي رحمه الله عن ذكرها وبيانها، وذلك من تواضعه وعلو شأنه، والواقع أن جانب صناعة الرجال من جوانب حياته له أهميته الكبرى، وهو الذي يلقي الأضواء على إنجازاته ومؤهلاته العملية في الحياة بشكل أفضل.

شعورا بأهمية هذا الجانب أعرب بعض الناس عن ضرورة قيام بعض أقارب الشيخ الندوي رحمه الله الذين يكونون قد عايشوه ورأوه عن كثب بل وارتباط واتصال، بإبراز تلك الجوانب التي تصور حياته تصويرا أوسع بل وأكمل إلى حد قريب، فطلب إلي بعض الناس – شعورا بهذه الضرورة – أن أتمم هذا العمل المهم، فوافقت عليه بعد تردد

وتلكؤ حيث إنني شعرت شخصيا بكون الطلب معقولا، غير أن مشاغلي من الكثرة والتنوع بما كان يمنعني من القيام به بشكل منتظم، فقررت بأن أعرض هذا الجانب من حياته شفهيا في مختلف المناسبات والفرص، وأن يقوم شخص مؤهل بتسجيل ما أقول في هذا الموضوع.

وبالتالي بدأت أملي مشاهداتي ومعلوماتي حينا فحينا، ورأيت من المناسب أن أختار لهذا الغرض الأستاذ السيد محمود حسن الحسني الذي هو الابن الكبير لبنت أخي، وكان متصلا بالشيخ الندوي رحمه الله في أواخر أيامه، كما أن له سليقة في الكتابة والمطالعة، وكان مطلعا على كثير من المعلومات والمواد لاتصاله بالشيخ الندوي رحمه الله، وقد قام بهذا العمل أحسن قيام، ورتب المعلومات التي أمليتها عليه في مختلف الموضوعات والجوانب أحسن ترتيب، وهكذا أصبح شريكا لي في إعداد هذا الكتاب إلى حد كبير، وربما لم يكن بإمكاني أن أنجز هذا العمل لولا تعاونه واهتمامه بالموضوع.

إن ما ذكرته في هذا الكتاب هو عبارة عن مشاهداتي الشخصية، ونتائج الاطلاع عن كثب على حياة الشيخ الندوي رحمه الله، وأرجو أن يكون هذا الكتاب قد وفى بالحاجة التي أعرب الناس عن ضرورة الوفاء بها، وهو مطلب لا يخلو من فائدة.

إن ما جعل الناس يرشحوني للقيام بجمع المعلومات الخاصة بهذه الجوانب من حياة الشيخ الندوي رحمه الله ربما يرجع إلى واقع أنني كنت أكثر الناس اتصالا بالشيخ الندوي رحمه الله وأكثرهم فرصا لمعايشته منذ شبابه إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى، فقد كان رحمه الله خالي غير أنه أدى واجب النيابة عن والدي السيد رشيد أحمد الحسني كل الأداء فيما يتعلق برعايتي ورعاية أخوتي. كان الوالد رحمه الله ينتمي إلى أسرة إقطاعية، وكان أبوه وهو جدي السيد خليل الدين أحمد رحمه الله، (ابن أخي الشيخ السيد ضياء النبي الحسني رحمه الله)، يتمتع باحترام كبير، ومكانة موقرة في وطنه لكونه من الإقطاعيين. اهتم الجد اهتماما كبيرا بابنه الوحيد السيد رشيد أحمد الحسني، الذي كان يجد شيئا من الإعاقة في نطقه وسمعه، إلا أنه كان قد استطاع أن يكتسب قدرة على التفهم والقراءة والتعبير عما في نفسه إلى حد كبير، وكان قادرا على القيام بضرورات الحياة بأحسن طرق وأجمل أسلوب، غير أن مجال عمله كان مرتكزا بشكل أكبر على الإطار الإقطاعي، حيث كان حول تربيتنا نحن الإخوة إلى أخوالنا الكرام رحمه الله.

ولما جاء عصرنا كان استقلال بلاد الهند من سيطرة الاستعمار قد حان، إلا أن وسائل

الحياة في ذلك الحين لم تكن فعالة، وكانت سيطرة الإنجليز على نظام الحياة والتعليم من القوة والاستحكام ما جعل الناس يعتبرون نظام الحياة ونظام التعليم الإنجليزي هو وحده كفيلا بالنجاح في المستقبل، غير أن أخوالي كانوا من العلماء المعروفين، وما كانوا يفضلون إلا نظام التربية الدينية والتعليم الديني، فكان جدي من جهة الأم الشيخ السيد عبدالحي الحسني رحمه الله بينما كان عالما متميزا في جانب، كان طبيبا معروفا في جانب آخر، وكانت أعماله الفكرية والعقلية منصبة في إطار الإسلام، وكان رئيس دار العلوم لندوة العلماء أيضا، وهذا هو الطريق الذي كان اختاره لأولاده أعني الدكتور السيد عبدالعلي الحسني، والسيد أبا الحسن علي الحسني الندوي رحمهم الله جميعا، مضافا إلى ذلك أن جدتي من الأم التي كانت تتحدر من أسرة أعمامي، كانت أكثر نساء الأسرة تدينا وصلاحا، واتجاها دينيا، وكانت غيورة على الدين والشريعة الإسلامية، فكان لها تأثير كبير على ابنتيها أعني والدتي الكريمة السيدة أمة العزيز، وخالتي الكريمة السيدة أمة الله تسنيم بصفة خاصة، وهي التي أصحبت مسئولة عن تربية الأولاد تربية صحيحة بعد وفاة والدها في وقت مبكر.

وعلى كل حال، فقد حولت والدتي رحمها الله مسئولية الإشراف على تربيتنا وتعليمنا إلى أخوالنا الكرام، وأيدها والدنا الكريم في هذا القرار، وإن كان الأخير قد رأى الاتجاه والنزعة إلى التعليم العصري في أقربائنا من العمومة، وأحس بأهميته وضرورته لدرجة ما، إلا أنه آثر لنا نظام التعليم الديني نفسه، وهكذا كنا نحن الإخوة تحت إشراف خالينا ورعايتهما في التربية والتعليم، بل وأنا قضيت معظم حياتي الدراسية تحت تربيته المباشرة، وهذا هو السبب في أنني سعدت أكثر من غيري بخدمته والتعاون معه في أعماله العلمية، وخاصة فيما يتعلق بأعماله العربية، وتمتعت فرصا أكثر من غيري لأرافقه في رحلاته التي كان معظمها إلى البلدان العربية، كما اشتغلت ما شاء الله أن أشتغل بإعداد مسوداته العلمية وطبعها ونشرها، وهكذا تيسر لي في مناسبات كثيرة أن أكون معه، وأساعده في كثير من أعماله، وأطلع على قراراته في بعض المسائل المهمة، وأكسبتني هذه الخدمات المتواضعة رضاه واطمئنانه إلى حد كبير.

فبينما تمتعت بشفقته لكوني ابن أخته في جانب، كان حبه قد شغف قلبي لكونه أستاذا لي ومربيا في جانب آخر، كما وجد انسجام كبير وتوافق عظيم بيننا في طريقة التفكير والعمل لطول الصحبة والخدمة في أعماله الفكرية والعقلية، وربما كانت هذه هي العوامل

التي جعلت الناس يرشحون اسمي لبيان صفاته الذاتية الخاصة وأحواله القريبة.

كانت صلتي بالشيخ الندوي رحمه الله غير مقصورة على نسبة الخئولة بل كانت تمتد إلى العمومة أيضا، حيث كان جدي من الأب، وجدي من الأم أخوين من الخئولة والعمومة، وكانوا منحدرين من جد واحد إذا رأيناهم في سلسلة النسب، والفارق الوحيد بين الصلتين أن صلتي به من الخئولة كانت أقرب. وصلتي هذه بالشيخ الندوي رحمه الله شرف لي وكرامة، وهذه هي الصلة التي تثلج صدري وتبهج قلبي وأنا أوافق على طلب إعداد وكتابة هذه المقالات في جوانب من حياة الشيخ الندوي رحمه الله. أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني هذا العمل ويجعله في ميزان حسناتي.

ولقد قدم لي الأستاذ السيد محمود حسن الحسني الندوي تعاونا كبيرا في نقل هذه المقالات وترتيبها وإعدادها للطبع والنشر، كما تعاون معي الأستاذ السيد بلال عبدالحي الحسني الندوي وقد كان وثيق الصلة بالشيخ الندوي رحمه الله في أواخر أيامه، إضافة إلى ذلك كان للشيخ إقبال أحمد الندوي أيضا تعاون كبير متنوع في إعداد هذا الكتاب وله تعاون معي في أعمالي العلمية الأخرى أيضا من ذي قبل. إنني أقدر لتعاون هؤلاء الثلاثة تقديرا كبيرا، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم بأحسن ما يجزي به العاملين الصالحين.

وإلى جانب ذلك أخص الشيخ الدكتور عبدالله عباس الندوي بالشكر الجزيل والتقدير العظيم لما دبجه من مقدمة لهذا الكتاب بقلمه السلس وأسلوبه الرائع الأدبي.

ولا يفوتني أن أشكر لشقيقي العزيز الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الندوي حفظه الله حيث إنه أيضا ألقى نظرة على هذا الكتاب وأتحفني بمشورات مفيدة نافعة، فجزاه الله خير الجزاء.

كما أشكر جزيل الشكر لكل من ساعدني وتعاون معي بأي شكل كان في إعداد هذا الكتاب، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعله نافعا للأمة الإسلامية، وسببا لي في الأجر والمثوبة. آمين.

كتبه

محمد الرابع الحسني الندوي

مقيم بدار ضيافة المهندس شميم أحمد الأنصاري

ديهره دون

1 جمادى الأولى المصادف لـ 9 يونيو عام 2005م.

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

موجز عن حياة العلاّمة الداعية الإسلامي الكبير
الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

ولد الداعية الكبير العلاّمة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله في تكية كلان من مديرية راي بريلي عام 1332هـ المصادف 1913م، (تقول الروايات العائلية بأن ولادته كانت في 6 خلون من شهر محرم الحرام، المصادف لخمس خلون من شهر ديسمبر في يوم الجمعة). إن قرية الشيخ الندوي تقع في ضواحي مديرية راي بريلي، وتسمى بدار الشاه علم الله، وتعرف في لسان العامة بـ تكيه كلان. وهذه هي القرية التي ولد فيها الشيخ الندوي و بها قضى أوائل أيام طفولته. ولم يكن يسكن هذه القرية إلا أقرباء الشيخ الندوي الذين كان معظمهم من المثقفين، ومن الطبقة المتوسطة من المجتمع. وفي هذه البيئة تربي الشيخ الندوي وتلقى دراسته الأولية. ولما بلغ الشيخ الندوي تسع سنوات من عمره توفي والده رحمهما الله، وكان رجلا متميزا من علماء الدين، وطبيبا شهيرا إلى جانب كونه محققا وباحثا، حيث كانت مهنة الطب هي المصدر الوحيد لمصاريف العائلة، كما كان مشرفا أعلى للمؤسسة التعليمية الكبرى مثل ندوة العلماء.

كانت والدة الشيخ الندوي رحمهما الله امرأة صالحة عفيفة، ذات أخلاق فاضلة وسيرة عالية، ولها باع طويل في العلم والأدب، وهي التي سارت بابنها البار الشيخ الندوي مسيرة العلم الديني والدعوة الإسلامية بدلا من أن تسير به على درب الرقي والازدهار من الناحية الدنيوية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله أصغر أولاد والديه، وكانت له أختان تكبرانه في السن، وتعتنيان به عناية بالغة لكونه أصغر منهما في العمر، فكان الشيخ الندوي يتمتع بحدبهما عليه ورأفتهما به في البيت، وكانت الأختان تحملان مثل والدهما ذوقا علميا بل نزعة

علمية ودينية على ما كانت عليه الأسرة. وكان من تأثيرهما على الشيخ الندوي أنه عشق الكتب قبل أن يفهمها وهو ناعم الأظفار، ويضاف إلى ذلك ما كان عليه من تأثير لذوق الوالد الجليل وشوق الأخ الكبير للعلم والأدب.

كان شقيق الشيخ الندوي رحمهما الله الدكتور السيد عبدالعلي الذي كان يكبره بعشرين عاما في العمر قد سار بعد ما أكمل دراساته الشرعية على درب أبيه فتعلم الطب اليوناني، واختار الطب الحديث فحصل على شهادة M.B.B.S، غير أنه حرم رعاية الوالد الكريم قبل أن يتم دراساته الطبية، مما أدى بهذه العائلة الصغيرة إلى أنواع من المشاكل.

أكمل شقيق الشيخ الكبير رحمهما الله دراساته وهو يعاني من هذه المشاكل والعقبات، واختار الطب الحديث مهنة وحرفة نجح فيها ونال شعبية وقبولا، فاستطاع أن يسد الفراغ الذي كان قد حصل بسبب وفاة والده رحمه الله، وعني بتربية الشيخ الندوي رحمهما الله عناية بالغة. وتحت رعايته الكريمة أكمل الشيخ الندوي رحمه الله دراساته الشرعية، وتعين بمنصب مدرس في دار العلوم التابعة لندوة العلماء لكناؤ في الهند.

كان الشيخ رحمه الله قد اهتم باكتساب علوم الحديث والتفسير والأدب اهتماما خاصا أثناء حياته الدراسية، فكان التفسير والأدب من أهم موضوعاته أثناء حياته التدريسية، وبما أن الشيخ الندوي رحمه الله كان له ذوق عال للأدب العربي، ومعرفة علمية دقيقة فيه فكانت له ميزة وتفوق في تفهيم معاني القرآن الكريم وشرح كلماته وعباراته.

كان للشيخ الندوي رحمه الله أستاذان ممتازان في الأدب العربي، أحدهما الشيخ خليل عرب رحمه الله الذي ساعد الشيخ الندوي رحمه الله على تكوين ذوق وأهلية في الأدب أثناء حياته الدراسية، كما أن الشيخ الندوي رحمه الله تمتع حتى بعد ما أصبح مدرسا، بعناية الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، وكان الشيخ الأخير ماهرا في العلوم الأدبية، فساعد الشيخ الندوي على المعرفة الدقيقة بالخصائص الفنية للأدب. أما في الأدب الأردي فكان الشيخ الندوي رحمه الله قد استفاد فيه من بعض أقاربه الأعزة وعلى رأسهم الشيخ أبو الخير برق رحمهم الله جميعا.

ارتحل الشيخ الندوي رحمه الله إلى مدينة لاهور حيث استفاد من أستاذ شهير صاحب أسلوب انفرد به في تفسير معاني القرآن الكريم، والذي كان يمتاز أيضا بتزكية الباطن وصفات الربانية، فشارك في دروسه التفسيرية بشكل نظامي، وكان قد درس عليه كتاب

حجة الله البالغة في إحدى رحلاته السابقة. وكان الشيخ الندوي على علاقة به فيما يخص تزكية الباطن وكان قد أقام عنده تحقيقا لهذا الغرض لمدة من الزمن أيضا. أما الحديث النبوي الشريف على صاحبه الصلاة والسلام فكان اكتسبه من الشيخ حيدر حسن خان التونكي شيخ الحديث بندوة العلماء، كما رحل إلى دار العلوم بديوبند فاستفاد فائدة إضافية في الموضوع من الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمه الله شيخ الحديث في دار العلوم بديوبند.

قام الشيخ الندوي بتأليف أول كتاب باللغة الأردية – وهو لم يتجاوز من عمره إلا 23 عاما – في سيرة المجاهد المجدد الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد أمير المؤمنين صاحب حركة الإصلاح والجهاد في الهند، بعنوان «سيرة سيد أحمد شهيد»، فسد به أهم ضرورة من ضرورات العصر، وقد استقبلت هذا الكتاب الشريحة المثقفة من المجتمع المسلم بغاية من التقدير والاحترام حيث اعتبرته ضرورة العصر. تحقق هذا الكتاب عامل شهرة واسعة وسمعة طيبة للشيخ الندوي رحمه الله في الطبقة المثقفة المتدينة في طول البلاد وعرضها.

بدأ الشيخ الندوي رحمه الله بالعمل على تأليف هذا الكتاب عام 1936، وأتمه وأصدره في مدة ثلاث سنوات.

لقد أدى تأليف هذا الكتاب إلى إحداث إرادة للعمل في الشيخ نفسه، مما جعله يقوم بجولات في شبه القارة الهندية بأكملها، ويجمع معلومات عن الشخصيات والرجالات العاملين في مجال الدعوة إلى الإسلام ونشره بين عامة الناس، وبهذا اطلع على مزاياها وخصائصهم في ميادين العمل والتي ساعدته على اختيار منهج للعمل للأهداف الدعوية والدينية.

ففي الوقت الذي اجتمع فيه الشيخ الندوي رحمه الله لهذا الغرض بالدعاة إلى الدين، والقائمين بالتربية والتزكية اجتمع كذلك بالشاعر الإسلامي الفكر والاتجاه الدكتور محمد إقبال أيضا، وكان ذلك آخر اجتماع بينهما حصل بعد تأليف كتاب «سيرت أحمد شهيد». وكان الشيخ الندوي سبق أن قد لقي الدكتور محمد إقبال في رحلاته السابقة إلى لاهور، فأعجب الشيخ الندوي أيما إعجاب بالأسلوب الشعري الذي كان يمتاز به الدكتور في التعبير عما يتصل من موضوعات برفعة الإسلام وعلوه، ونظر إلى فكرة الدكتور إقبال للإباء الإسلامي والحمية الإسلامية وشعره الإسلامي نظرة تقدير وإكبار، مما أدى

بالشيخ الندوي إلى أن يردد هذه النظرة الإسلامية في مؤلفاته وكتبه بأن ينبغي للإنسان المسلم أن يختار إعلاء كلمة الإسلام وقيادة العالم والثقة بالنفس والتطلع إلى المعالي وأن يقبل هذه المعاني كلها على أنها منحة خاصة اختصه الله بها دون سائر الأمم، وهذه النظرة الإسلامية، ومصطلح الإباء الإسلامي الذي اخترعه الدكتور إقبال ظاهرة للعيان ظهورا كاملا في دواوينه الشعرية.

فاختار الشيخ الندوي رحمه الله إلى جانب تدريسه للمواد المقررة له في دار العلوم التابعة لندوة العلماء أن يفرغ بعض أوقاته للقيام بأعمال تكوين الفكر والعقل الإسلاميين، وتربية النشء الجديد فكرا وعلما، كما أنه لقي الأستاذ الشيخ أبا الأعلى المودودي رحمه الله، وأعجب بكتاباته وأسلوبه لخطاب العقل الجديد بشكل مؤثر، وأحس بأهميته وتأثيره، كما أنه قدر أهميته بالنسبة للعقل المثقف الجديد، إضافة إلى أنه كان على ارتباط خاص وثيق بالشيخ أحمد على اللاهوري، والشيخ عبد القادر الرائيفوري لإصلاح الباطن وتزكية النفس، ونال من الشيخين ثقتهما وأعطافهما، كما أنه تشرف بخلافتهما، وقد تركت تربيتهما وتوجيهاتهما على قلب الشيخ رحمه الله ومنهجه العملي أثرا كبيرا، وإلى جانب ذلك تيسرت له فرصة لاستيعاب حركته للدعوة والإصلاح وفهمها عن كثب، ورآها مهمة للغاية، وبدأ يشارك فيها مشاركة فعلية متكاملة، مما ساعده على التمتع بعناية الشيخ محمد إلياس رحمه الله بشكل استثنائي، وحصلت له كذلك فرصة لمصاحبته ومعاونته، وكان الشيخ رحمه الله يعتبر هذه الساعات من أثمن ساعات حياته، وكان الشيخ الندوي رحمه الله على صلة بالعالم الجليل المحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله منذ أوائل شبابه، وازدادت هذه الصلة قوة وثقة مع مرور الأيام، حتى أصبح الشيخ رحمه الله أحب الناس إليه، وأعزهم عليه، وبقي الشيخ الندوي رحمه الله أيخ ' يعامله معاملة التلميذ لأستاذه، والمسترشد لمرشده[1].

إن العمل الكتابي المميز الرائع الذي قام به الشيخ رحمه الله للفت انتباه الطبقة المثقفة من المسلمين إلى مكانتهم وأهميتهم في ميادين الفكر الديني والدعوي الإسلاميين ظهر بعنوان «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، الذي أصدرته دار نشر موقرة مصرية عام

(1) لفهم طبيعة العلاقة بين هذه الشخصيات يرجي الرجوع إلى الرسائل التي جرت بينهما وهما على قيد الحياة.

1949م، ونال القبول والانتشار المدهشين في العالم العربي والإسلامي، وكان الشيخ الندوي رحمه قد أتم هذا العمل الكبير ولم يبلغ إلا 32-33 عاما من عمره، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الأردية بعنوان «انسانى دنيا پر مسلمانوں ک ے عروج و زوال کا اثر». وقد أحرز هذا العمل الكتابي من التأثير والقبول ما فاق التأثير والقبول الذي ناله كتابه الأول بعنوان «سيرت سيد أحمد شهيد» باللغة الأردية، بين الأوساط المثقفة والدينية في شبه القارة الهندية.

حاز هذا الكتاب كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» على إعجاب المثقفين والإسلاميين من العرب، حتى عدوه أهم الكتب وأروعها في القرن العشرين، وبلغ من الانتشار والإعجاب لدرجة أنه لم يبق هناك أستاذ أو طالب إسلامي الفكر والنزعة في العالم العربي والإسلامي إلا وقرأه وأحس بأهميته وقيمته.

كان هذا المؤلف للشيخ الندوي في الواقع عبارة عن نتيجة لدراساته الموسعة لتاريخ ارتقاء المسلمين وسيادتهم ودورهم القيادي للعالم الإنساني، ثم انحطاطهم وتخلفهم، إلى جانب الأسباب الحقيقية لرقي أوروبا وازدهارها. وكان الشيخ الندوي قد أعرب فيه عن آرائه وأفكاره التي كان توصل إليها بفعل من تأثير محيطه المنزلي عليه منذ الصبا، ومن نتائج دراسته للمحاولات التجديدية والإصلاحية التي كان قام بها المجددون والمصلحون في الهند في عصورهم المختلفة، وذلك بأسلوب علمي وبحثي في ضوء أوضاعه المعاصرة التي كان يعيشها.

قام الشيخ الندوي رحمه الله بأول رحلة للحج عام 1947م، وبرحلة ثانية عام 1950م، وبرحلة ثالثة عام 1951م، وقام خلال هذه الرحلة الثالثة بجولات وزيارات علمية ودعوية أيضا في البلدان الشهيرة من العالم العربي وخاصة جمهورية مصر العربية، وسوريا، والسودان، والأردن، وفلسطين، وألقي فيها محاضرات وأجرى لقاءات، ولقي الشيخ الندوي رحمه الله من التقدير والاحترام والإكبار وترك كلامه من التأثير والنفع ما يفوق البيان إذ كان لا يحتاج إلى ترجمان لشرح أفكاره السامية وآرائه القيمة، بل كان يعبر عن نفسه بنفسه بلغة المخاطبين العرب، بأسلوب عربي ومستوى أدبي يساويان مستواهم ومقدرتهم، كان قد حصل عليها الشيخ الندوي رحمه الله نتيجة لتعلمه اللغة العربية بالطريقة العملية المباشرة، كما أنه استحوذ على قلوب المخاطبين من أهل اللغة الأردية لقدرته على البيان والخطابة بهذه اللغة بشكل مؤثر.

إن أعمال الدعوة والتربية العقلية والفكرية على تنوعها واختلافها التي بدأها الشيخ الندوي رحمه الله أثناء تدريسه لمناهج دار العلوم لندوة العلماء أخذت من اهتمامه وفكره ووقته ما صعب معه الاستمرار بعملية التدريس والتعليم للمناهج المقررة في دار العلوم، فاستقال الشيخ عن مسؤولية التدريس التي كان يتولاها بشكل نظامي منذ عام 1934م، وفرغ نفسه رسميا للعمل التربوي والدعوي بعد عشر سنوات من هذه الوظيفة، غير أنه استمر عليها تطوعا ما سمح الوقت والظروف.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد طارت شهرته الآن وطبقت بعد شبه القارة الهندية آفاق العالم العربي أيضا، فدعي بشكل رسمي إلى جامعة دمشق لإلقاء المحاضرات فأقام فيها لتحقيق ذلك الغرض مدة شهر كامل عام 1956م، وألقى فيها محاضرات شكلت أول جزء من كتابه «رجال الفكر والدعوة» وهي المحاضرات التي وسع الشيخ الندوي رحمه الله نطاقها فيما بعد بإضافات وزيادات قيمة فامتدت من العصر الأول إلى العصر الحديث، وجاءت فيما يقارب 6 مجلدات باللغة العربية وبنفس العدد باللغة الأردية.

إن شهرة الشيخ الندوي رحمه الله بالأعمال الدعوية والفكرية والعلمية زادته تقديرا وإكبارا في عيون المسلمين، فاختير رئيسا لعدد من المعاهد والمؤسسات العلمية والدينية، حيث تم تشكيل مجلس التعليم الديني بعد المؤتمر التعليمي المنعقد في شهر ديسمبر من عام 1959م في مديرية بستي من ولاية أترابراديش، وكان الشيخ رئيسا له، كما أنه تم تأسيس المجمع العلمي الإسلامي بلكناؤ في دار العلوم لندوة العلماء في نفس السنة بمبادرة من الشيخ الندوي نفسه وذلك لتنوير عقول الطبقة المثقفة الجديدة بالفكر الإسلامي، وكان الشيخ رئيسا له.

في عام 1961م، قام الشيخ الندوي رحمه الله بزيارة علمية ودعوية لدولة الكويت، حيث قدمت له دعوة لزيارة الحجاز المقدس، فقام الشيخ الندوي رحمه الله برحلة ثالثة إلى الحجاز عام 1962م، وعندئذ تأسست الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، فتم اختيار الشيخ الندوي رحمه الله عضوا في مجلسها الأعلى، كما أن رابطة العالم الإسلامي تم إنشاؤها نفس السنة، فكان الشيخ من أعضائها المؤسسين، وفي نفس الزمن تقريبا تم إنشاء مركز إسلامي في جنيف(سويسرا) كان مؤسسه ورئيسه الداعية الحق والزعيم الإسلامي الدكتور سعيد رمضان من كبار علماء مصر، فكان الشيخ الندوي من أعضائه المؤسسين أيضا. وبعد سنة عندما حدثت سلسلة من الاضطرابات الطائفية في شرقي

الهند، مما أدى إلى تفشي الضعف واليأس بين المسلمين، وكان يخشى أن هذا اليأس الذي بدأ يمد لسانه بهذه الطريق إذا لم يتدارك فإن المسلمين بصفتهم مسلمين سيكونون عرضة للانهزامية والتخلف الكبيرين، فدعا الشيخ الندوي رحمه الله اجتماعا على مشورة من الشخصيات البارزة المسلمة العديدة للنظر في هذا الخطر الداهم عقد في رحاب دار العلوم لندوة العلماء، وتم تشكيل مؤسسة قومية وملية مشتركة في مدينة لكناؤ عرفت «بمجلس المشاورة» فكان الشيخ الندوي عضوا تأسيسيا فيه أيضا، كما أنه اختير رئيسا لندوة العلماء بعد وفاة رئيسها الحالي الدكتور السيد عبدالعلي عام 1961م، وكان قد عمل كمشرف تعليمي لها سنوات عديدة قبل.

فيما بين 196 و1977م، كان مرض الشيخ الندوي في عينيه قد تفاقم لدرجة أنه لم يستطع أن يقوم بنفسه بأعمال القراءة والكتابة، فاضطر إلى أن يعتمد في الغالب على الإملاء والسماع، وفي هذه الحالة نفسها تحققت سائر أعماله العلمية. وفي هذا الوقت بالذات ظهرت مؤلفات قيمة عديدة غير أنه لا يمكن لأي إنسان أن يحس بأنها تمت دون عين تنظر، وكان الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الفترة يستعين بتلامذته حيث كان يأمرهم بقراءة مصادر معينة، إلى جانب الإملاء عليهم بما يشاء.

بدأ الشيخ الندوي رحمه الله حركة رسالة الإنسانية عام 1974م، لئلا تقتصر أعمال الدعوة والإصلاح على المسلمين وحدهم، بل لكي تشمل كافة سكان البلاد، وتخاطب الجميع، مما ترك أثرا طيبا على الطبقة المثقفة من أهل البلاد دون تمييز على أساس من الدين والعنصر.

كانت فكرة جعل التعليم منسجما مع ضرورة الأمة والعقيدة، وجعل الأمة منسجمة مع حاجة الإنسانية فكرة ساورت نفس الشيخ الندوي منذ البداية نفسها، فدعا إليها الشيخ الندوي في كتاباته ومقالاته وخطبه ومحاضراته، واهتم بإعداد منهج دراسي أيضا ليسد به هذه الحاجة، كما أنه قام شخصيا بتأليف عدد من الكتب لتعليم اللغة العربية وآدابها، اعتبر أحسن كتب في الموضوع في هذا العصر، وكذلك أمر تلامذته بإعداد كتب في الموضوعات الأخرى نالت القبول والإعجاب.

في عام 1975م، دعا الشيخ الندوي مؤتمرا عالميا في نفس هذا الموضوع في رحاب دار العلوم لندوة العلماء، عرف «بالمهرجان التعليمي الخامس والثمانين لدار العلوم ندوة العلماء» لمرور 85 سنة على قيام دار العلوم، ولكون الموضوع منسجما مع رسالة ندوة

العلماء، وأعمالها، وكان هذا المؤتمر التعليمي ناجحا بكل المقاييس، وازداد نجاحا وأهمية بما تمتع من تمثيل ومشاركة مندوبين من مختلف مناطق العالم الإسلامي.

وفي نفس الزمن فيما بين 1976-1975م اتبعت الحكومة الهندية أساليب الإكراه والعنف لتنفيذ سياستها بضبط الولادة أو تحديد النسل، إلى أن فرضت حالة الطوارئ في البلاد، فقام الشيخ الندوي يعلن بكل جراءة وصراحة بكونها خطأ ومنافية للحقوق التي تمنحها الديمقراطية، وأرسل كتابا في هذا الصدد إلى السيدة إنديرا غاندي رئيسة وزراء حكومة الهند آنذاك، واجتمع بها أيضا ليجاهرها بالحق والصراحة، كما أنه لفت انتباه عامة الناس في خطبه ومحاضراته العامة إلى الظروف والأوضاع السيئة التي كان تعاني منها البلاد، فأدت هذه المحاولات إضافة إلى جانب التبرم والاستياء العام بين الشعب من الظروف السائدة السيئة أن فقد حزب المؤتمر الوطني أصواته في الانتخابات اللاحقة، ونزعت منه الحكومة، وهكذا جاء تحول السلطة في البلاد من أيدي حزب المؤتمر الوطني الذي كان يمسك بزمامها منذ ما يقارب 30 عاما من الزمن.

قام الشيخ الندوي رحمه الله في عام 1977م برحلة إلى أمريكا، كان هدفها المشاركة في مؤتمر المسلمين المقيمين هناك، وفي هذه الرحلة تم إجراء جراحة في عينه، وعاد إليه من البصر بما يكفي الحاجة، كما أنه قام في هذه الإقامة التي امتدت لشهرين في أمريكا بزيارات وجولات في مختلف مدن أمريكا ومناطقها، ولفت عناية المسلمين المقيمين في هذه البلاد النائية وفي البيئات غير الإسلامية إلى أهمية الحفاظ على شخصيتهم الإسلامية وضرورتها.

شارك الشيخ الندوي رحمه الله في مؤتمر إسلامي كبير عقد في باكستان عام 1978، وألقى محاضرات في كبرى جامعات البلاد، ومؤسساتها العلمية والدينية، وقد جمعت هذه المحاضرات ونشرت في مجموعة مقالات مفيدة ورائدة[1].

وفي عام 1979م، قام الشيخ الندوي رحمه الله برحلة مهمة إلى الإمارات العربية المتحدة، حيث اجتمع بكبار الشخصيات التي لها نفوذ وتأثير، ولفت انتباههم وعنايتهم - و هم في حالة من وفرة الرخاء الاقتصادي، وكثرة الثروات الهائلة وتحت سيطرة الحضارة

(1) نشر هذه المجموعة المجمع العلمي الإسلامي بلكناء بعنوان الدعوة إلى الفكر والعمل، ونالت قبولا واسعا.

الحديثة – إلى مسئولياتهم الإيمانية والخلقية، ومقتضياتها.

في عام 1980م، أكرم الشيخ الندوي رحمه الله بجائزة فيصل العالمية، اعترافا له بخدماته العلمية والدينية، فأمر الشيخ رحمه الله بتوزيعها على المؤسسات العاملة في المجالات التعليمية والعملية للمسلمين، كما أنه شارك في نفس السنة في المؤتمر العالمي للسيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام الذي عقد في دولة قطر، وألقي فيه خطبة مؤثرة بليغة، أشاد بها الجميع، وفي نفس العام عقد المهرجان في دار العلوم الإسلامية بمديرية ديوبند على مرور قرن من الزمن على تأسيسها، فشارك فيه الشيخ الندوي رحمه الله وألقى فيه خطابا مؤثرا ورياديا اعتبر خلاصة المهرجان.

في السنة التالية وهي سنة 1981م، قدم الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة إلى ندوة العلماء، لزيارة الشيخ الندوي رحمه الله، والاجتماع به، فرحب به الشيخ واستقبله استقبالا لائقا، ولفت انتباهه وعنايته إلى ما يجب عليه من مسئوليات تجاه الإسلام والمسلمين، وإلى واجباته الوطنية والقومية، وفي نفس السنة عقد مؤتمر عالمي برئاسة الشيخ الندوي رحمه في رحاب دار العلوم لندوة العلماء، تقرر موضوعه «البحث عن عناصر إسلامية في الأدب العربي خاصة، وفي آداب اللغات الأخرى عامة». شارك في هذا المؤتمر نخبة من الشخصيات الكبرى من العالم الإسلامي يجدر بالذكر منهم سعادة الشيخ السيد عبدالعزيز الرفاعي، سكرتير مجلس وزراء المملكة العربية السعودية سابقا، وسعادة الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا، و الدكتور زكريا البري وزير الأوقاف المصري، والشيخ عبدالله إبراهيم الأنصاري مدير الشئون الدينية في دولة قطر.

في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر عام 1981م، حصلت للشيخ الندوي رحمه الله رحلة إلى الحجاز للمشاركة في اجتماعات مهمة عقدتها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وقدم فيها الشيخ مقالا قيما ومهما في موضوع «دور الحديث النبوي في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته».

في شهر أكتوبر عام 1981م، أكرمت جامعة كشمير الحكومية الشيخ الندوي رحمه الله بشهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب.

في عام 1982م قام الشيخ الندوي رحمه الله برحلة مهمة إلى سريلانكا، كما أنه قام في نفس العام بالإشراف على المؤتمر العالمي بعنوان «الإسلام والمستشرقون» الذي عقدته

دار المصنفين بأعظم جراه.

في عام 1983م تأسس المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد البريطانية، وكان حدثا استثنائيا نظرا إلى علمانية الجامعة وشهرتها، ودعي الشيخ الندوي رحمه الله لقبول عضويته، وهو الذي اختير رئيسا له.

في عام 1983م تم اختيار الشيخ الندوي رحمه الله رئيسا لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند وهي مؤسسة أنشئت للحفاظ على الشريعة الإسلامية في الهند عند ما توفي رئيسها الحالي الشيخ المقرئ محمد طيب رحمه الله.

وفي بداية عام 1984م نفسه، أنشئت مؤسسة عالمية لترويج التصور الإسلامي للأدب باسم «رابطة الأدب الإسلامي»، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعمل لتأييد فكرته وتعزيزها منذ ما يقارب أربعة عقود من الزمن، فكان الشيخ الندوي رئيسا لهذه المؤسسة العالمية أيضا، وكان قد عقد مؤتمر عالمي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء عام 1981م للنظر والمناقشة في الموضوع، شارك فيه المثقفون والكتاب وأساتذة الأدب وهم يمثلون مؤسساتهم ومدارسهم.

وفي عام 1986م، قام الشيخ الندوي رحمه الله بلقاءات وزيارات متكررة لرئيس الوزراء الهندي آنذاك بمعية الشيخ السيد منة الله الرحماني رحمه الله الأمين العام لهيئة الأحول الشخصية للمسلمين، تحت شعار حركة الحفاظ على الشريعة الإسلامية، واستطاع فيها أن يقنعه بأن يقوم بالإقرار على قانون في البرلمان الهندي يوافق الشريعة الإسلامية. وإن النجاح الذي أحرزه الشيخ الندوي في هذا الصدد اعتبر أكبر نجاح لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين فيما يتعلق بالحفاظ على الشريعة الإسلامية وصيانتها.

في عام 1986م سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى استانبول في تركيا للمشاركة في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي، وعاد إلى بلاده عبر باكستان، حيث التقى بالرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق، وتجشم الجنرال مشقة السفر بنفسه إلى كراتشي عندما سمع خبر قدومه إليها. فلفت الشيخ الندوي رحمه الله عناية الجنرال ضياء الحق في اجتماع بينهما إلى أن يحاول تحسين العلاقات الثنائية بين الهند وباكستان، فأصغى إليه الجنرال ووعده بالقيام بذلك.

وفي نفسه السنة شارك الشيخ الندوي رحمه الله في مؤتمر الفكر الإسلامي السنوي المنعقد في الجزائر، وقدم فيه مقالا مفيدا مؤثرا، كما أنه تبادل الآراء فيما يتعلق

بالدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي مع كبار المفكرين والشخصيات المعنية في العالم الإسلامي.

وفي عام 1987م سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى ماليزيا على دعوة من مؤسسة علمية كبيرة فيها، وألقى فيها محاضرات وخطبا في مؤسساتها التعليمية والدعوية، كما أنه ألقى خطابا حول أهمية الدعوة الإسلامية وضرورتها في الجامعة الإسلامية العالمية، وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد عودته من سفر ماليزيا أصيب بجروح في معدته، واشتدت آلامه، مما أدى إلى إيقاف تحركاته ونشاطاته لعدد من الشهور.

وفي عام 1988م سافر الشيخ الندوي رحمه الله للمشاركة في اجتماع لرابطة العالم الإسلامي، وكان قد وصلته دعوة من أبوظبي أيضا، وكان الشيخ الندوي رحمه الله لم يسافر إلى الإمارات العربية المتحدة لحد الآن خصيصا للأهداف الدعوية، فرأى الشيخ الندوي رحمه الله من المناسب أن يلبي هذه الدعوة المقدمة إليه، وكان يرافقه معي في هذه الرحلة المهندس محمد عثمان[1]، كما أن الدكتور تقي الدين الندوي كان مقيما بها من ذي قبل، وفكان مشيرا ومساعدا للشيخ خلال إقامته وجولاته هناك. ألقى الشيخ الندوي رحمه الله محاضرة في حفلة على مستوى شبه رسمي، ونبه على أن مجتمعنا الإسلامي يجب عليه أن يعمل بالتعاليم الإسلامية، وأن يتمسك بالاتزان والاعتدال والحكمة، ليكون مجتمعنا مجتمعا إسلاميا يتصف بالاتزان والقسط، وتلقيت محاضرته هذه بالقبول والإعجاب، ونشرت فيما بعد بعنوان «ترشيد الصحوة الإسلامية» في شكل كتيب. وتقرر خلال هذه الرحلة أن يكون للشيخ الندوي رحمه الله محاضرة في كلية البنات من الجامعة، وكان عميدها آنذاك شقيق العالم السوري الأستاذ محمد المبارك، فأكرم الشيخ الندوي رحمه الله إكراما كبيرا، وأولاه رعاية كريمة لما كان الشيخ الندوي رحمه الله يتمتع به من علاقة طيبة وصلة حميمة بالشيخ الأستاذ محمد المبارك. اجتمعت الطالبات والمدرسات في قاعة الكلية، وخطبهن الشيخ الندوي رحمه الله وهو على المنصة، ووجههن إلى صبغ الحياة وصوغها حسب مقتضيات الإسلام وروحها، ونبههن على ضرورة وأهمية الحفاظ على السيرة والأخلاق والإسلاميتين مع الفكر الديني الصحيح في هذا العصر الحديث

(1) المهندس محمد عثمان من مخلصي الشيخ الندوي رحمه الله، وكان يفرغ من أوقاته ما يبذله لتأمين الراحة للشيخ أثناء سفراته، وقد حصل المهندس عثمان على جنسية أمريكية.

الذي تمارس فيه الضغوط بجميع أنواعها وألوانها، كما أن الشيخ الندوي رحمه الله أجرى لقاءات شخصية مع عديد مع رجال الحكومة والمسئولين عنها، يجدر بالذكر منهم مدير الجامعة والمستشار الخاص الشيخ زايد رئيس الإمارات العربية المتحدة رحمهم الله جميعا.

في عام 1990م خطط المركز الإسلامي بأكسفورد الذي كان يرأسه الشيخ الندوي رحمه الله، برنامجا ليتم التعارف بينه وبين المسئولين الحكوميين للمملكة، وتم تنفيذ البرنامج لما كان الشيخ الندوي رحمه الله مسافرا إلى المملكة العربية السعودية. وبهذه المناسبة تم اللقاء بين الشيخ الندوي رحمه الله في رفقة عدد من أعضاء المركز الإسلامي وبين الأمير سلطان، الذي كان إلى جانب كونه وزير الدفاع مشرف لجنة الدعوة الإسلامية أيضا، وتواصل الحديث بينهما حول موضوع الدعوة الإسلامية وقتا طويلا، فأعرب الأمير هو الآخر عن أفكاره الإسلامية. ثم سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى الرياض، وجرى اللقاء بينه وبين الأمير سلمان الذي كان حاكما أيضا لمنطقة الرياض، والأمير عبدالله وكان ولي العهد آنذاك، وقد أصبح ملكا الآن، وكذلك اجتمع بالأمير أحمد، الذي كان نائبا لوزير الداخلية، وبهذه الطريقة تم إبراز أهمية الفكر الإسلامي وأعمال الدعوة الإسلامية التي كان يقوم بها الشيخ، كما تم التعريف بالأعمال التي تتم في مجال توعية العقول والأذهان بالفكر الإسلامي من خلال المركز الإسلامي في أوروبا بأسلوب مناسب ناجح، وتيسرت للشيخ الندوي رحمه الله فرصة لأن يعبر أمام أهل الحكومة والسلطة عن الأفكار التي كان يراها من النزعات التغريبية، وعن المنهج المتزن والفكر السديد الإسلاميين اللذين كان يراهما عامل تدارك وتصحيح لأخطاء المسير.

وفي جانب آخر كانت قضية المسجد البابرى قضية ساخنة للغاية، وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد عطف انتباه السيد راجيف غاندي رئيس وزراء الهند سابقا إلى الإسراع بتسوية لهذه المشكلة، وأن يتدارك الأمر قبل أن يتفاقم، وأشار عليه بأن إبقاء المعابد والمساجد على ما كانت عليه يوم استقلال البلاد طبقا للمبادئ والقوانين هو الحل الأمثل لمثل هذه القضايا، واقترح بأن يتم الاجتماع - إلى جانب ذلك اللقاء - بأعظم علماء الهندوس في مدينة مدراس المعروفين بـ (شانكار آتشاريا) وهو أحد أربعة شانكار آتشاريا، وكان هذا الاقتراح مؤيدا من قبل الشيخ عبد الكريم باريكه، السيد يونس سليم حاكم ولاية بيهار، والسيد كرشن كانت حاكم ولاية آندهرا براديش، والذي

ارتقى إلى منصب نائب رئيس جمهورية الهند أيضا، فقام الشيخ الندوي رحمه الله برحلة في معية هؤلاء السادة، إلى مدينة مدراس، وتم اللقاء مع شانكار آتشاريا، فاتفق معهم شانكار آتشاريا على أن يبقى المسجد مسجدا، ويمكنه أن يبذل جهوده ومحاولاته في هذا الصدد، ولكن لا بد لذلك أن تشكل لجنة تقوم بمثابة لجنة تولية المسجد، ويشرف عليها شانكار آتشاريا، وتضم في أعضاءها بعض الشخصيات الهندوسية أيضا إلى جانب أعضائها المسلمين، وبهذا يمكنه أن يقوم بعمل تسليم المسجد إلى المسلمين بممارسة الضغوط على عامة الهندوس من قبل اللجنة.

حمل الشيخ الندوي رحمه الله هذا المقترح إلى نيو دلهي، وأطلع عليه لجان المسلمين الخاصة بقضية المسجد البابري، غير أن هذه اللجان رفضت هذه المحاولات والجهود التي بذلها الشيخ الندوي رحمه الله دون استشارتها، وبالتالي لم يمكن أن يتم وضع رغبة شانكار آتشاريا في تسوية لهذه القضية موضع التنفيذ، ولم ير الشيخ الندوي رحمه الله من المناسب أن ينفرد بتنفيذ هذه الخطة، وترك القضية تحت رحمة من هذه اللجان النشطة والعاملين النشطين أنفسهم، وقد تم التذكير بالموضوع مرارا من قبل شانكار أتشاريا، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله التزم بالصمت تجاه هذا التذكير.

عند ما بلغ السيد في بي سينغ إلى كرسي رئاسة الوزراء للحكومة الهندية، تم استغلال هذه المناسبة أيضا، واقترح تفاديا لخطر بدء العمل في رحاب المسجد ومحيطه من قبل الطرف الثاني بأن يتم تحويل الأراضي المحيطة بالمسجد إلى حيازة الحكومة المركزية، فأيد الشيخ الندوي رحمه الله هذا الاقتراح على أنه إجراء احتياطي، فتم تحويل الأراضي إلى حيازة الحكومة المركزية بمرسوم صادر من الحكومة، غير أن المعنيين بقضية المسجد البابري اعتبروا هذا الإجراء خطأ كبيرا، فتكلم الشيخ الندوي رحمه الله مع رئيس الوزراء، وتم إلغاء المرسوم، ونأى بنفسه عن أن يقوم بأي عمل في هذا الصدد على رأيه الشخصي، ولكن القضية على كل حال بدأت تستفحل وتتفاقم، إلى أن هدم المسجد البابرى وأصبح خبرا بعد عين، وازدادت القضية تعقيدا وخطورة، وما باءت اللجان الخاصة بالمسجد البابرى التي كانت تصخب وتصيح، وتطلق تصريحات وبيانات، إلا بالفشل والخزي والعار، وحولت القضية إلى أخيرا إلى هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لتسويتها والبحث عن حلها. ولا تزال هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين ملتزمة بالطريقة القانونية والقضائية لتسوية هذه القضية، وقد شكلت من قبلها لجنة

قانونية تشرف على الإجراءات القانونية وتقوم بمتطلبات المحاكم.

وفي عام 1993م تقرر عقد المؤتمر العالمي للأديان في شيكاغو، فأرسل الدكتور حامد عبدالحي وهو شقيق الدكتور أحمد عبدالحي الجراح الشهير من مدينة باتنا، وكان من المنظمين للمؤتمر، ومن المتصلين بالشيخ الندوي رحمه الله اتصالا وثيقا، دعوة إلى الشيخ الندوي رحمه الله للمشاركة في المؤتمر، وأشار بأن مشاركته فيه ستكون نافعة، وبما أن الشيخ الندوي رحمه الله كان من المقرر من ذي قبل أن يسافر إلى أكسفورد، فإنه قبل هذه الدعوة لما رأى أن ذلك يساعده على التواصل واللقاء مع من كان قد نشأت بينه وبينهم علاقات طيبة أثناء إقامته لعلاج العين في أمريكا، وعلى تبليغ رسالته والتعبير عن آرائه خلال هذه المشاركة، غير أنه قرر أن لا يسافر إليهم إلا بعد انتهاء برامج أكسفورد، مما أدى إلى تأخير سفر الشيخ الندوي رحمه الله ليومين، فوصل إلى أمريكا قبل يوم واحد فقط من نهاية المؤتمر، وكان الاعتقاد بأنه سيلقى الخطاب في آخر يوم من أيامه، ويتم طرح رأي الشيخ الندوي رحمه الله في المؤتمر خلال حضوره هناك.

راح الشيخ الندوي رحمه الله إلى قاعة المؤتمر، وكانت بداية البرنامج على وشك، وكان القاعة قد غصت بالحضور، وكان يتوافد إليها الممثلون عن الديانات المختلفة واحدا تلو الآخر. بدأ الممثلون عن بعض الديانات ينشدون ما كان عندهم من الأدعية والكلمات، بينما كان الشيخ الندوي رحمه الله جالسا في مكان معزول ينتظر دوره للحديث، فإذا به شعر بظلمة شديدة تسود الجو، لدرجة أنه لم يرض بالبقاء والمشاركة فيه وأصر على العودة. والواقع أن الرحلة كلها لم يكن قصد منها إلا تحقيق هذه الغاية، وكان قد رافقه في الرحلة كاتب هذه السطور أيضا، وكانت نفقات السفر على المنظمين للمؤتمر، بواسطة الدكتور حامد عبدالحي، غير أنه لما أحس بإصرار الشيخ الندوي رحمه الله على العودة، وافق على ذلك برحابة الصدر، وقال بأننا لا نحتمل مضايقة الشيخ الندوي رحمه الله، وإن كان لنا فيها خسارة، فعاد الشيخ الندوي رحمه الله، واعتذر إلى الدكتور حامد عبدالحي على عدم مشاركته في البرنامج نتيجة لأحواله القلبية، وشكر له على رحابه صدره، ومكث الشيخ الندوي رحمه الله في شيكاغو يوما أو يومين، يجتمع فيه بأحبائه وأصدقائه وكذلك يوما في نيويورك يلتقي بإخوانه وأحبته فيها، ثم عاد إلى الهند.

وأتيحت للشيخ الندوي رحمه الله في نفس السنة فرصة للسفر إلى بلاد تاشقند وسمرقند وبخارى، وذلك لأن المركز الإسلامي الواقع بأكسفورد، الذي كان يرأسه

الشيخ الندوي رحمه الله، حصل موافقة من الرئيس الأوزباكستاني على عقد مؤتمر في حياة الإمام البخاري رحمه الله، وإنشاء جامعة باسمه، تتم فيها برامج البحث والدراسة فيما يتعلق بالإمام البخاري رحمه الله، واقترح لذلك مدينة سمرقند، حيث كانت المدارس الدينية قائمة، ولا تزال بناياتها حية باقية، وفيها مقبرة تيمور لنغ أيضا، إضافة إلى تواجد مقابر المجاهدين المسلمين الذين نزلوا بها بقيادة سيدنا قثم بن عباس رضي الله عنهما. أقرت الحكومة هذا الاقتراح، وقرر له التاريخ، وأرسلت الدعوة إلى عديد من المدرسين لصحيح البخاري في مختلف بقاع العالم للمشاركة في هذا المؤتمر، وكان الشيخ الندوي رحمه الله رئيس المركز الإسلامي، الذي كان منظم هذا المؤتمر، وأنا عضو فيه، وبالتالي وصلت الدعوة إلينا نحن الاثنين كما أن الدعوة وصلت إلى الشيخ ناصر علي الندوي أستاذ صحيح البخاري في دار العلوم لندوة العلماء أيضا، فبدأت الرحلة وصلنا سمرقند مرورا بطاشقند، وكانت المدينة قد ازدانت بالعلماء والمحدثين من مختلف أرجاء العالم، وكان المناخ ملائما وطيبا، فانعقد المؤتمر، وقدمت فيه المقالات القيمة، وعرض فيه (model) نموذج للجامعة المقترحة باسم الإمام البخاري رحمه الله، نال استحسان الجميع وإعجابهم. وكان من ضمن المشاركين في المؤتمر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الذي جعل حضوره هناك الجو أكثر طيبا وبهاء، وبمشورته تمت الرحلة إلى مدينة بخارى، واعترضتنا قبل دخول المدينة تلك القرية السعيدة التي كانت مستقرا للخواجة بهاء الدين النقشبندي، وبها يوجد ضريحه.

أقمنا في هذه القرية مدة يسيرة ثم تحركنا نحو مدينة بخارى، وزرنا جامع بخارى الذي كان يدرس فيه الإمام البخاري رحمه الله، كما زرنا بجانبه مدرسة البخاري التي لا تزال قائمة، ولكن بحالة متدهورة متخلفة، واجتمعنا بالطلاب فيها أيضا، وبلغنا أن بعض كتب الشيخ الندوي قد أدخلت في منهجها الدراسي. أنس بنا أهل المدينة أنسا كبيرا، وبعد إقامة ليلة في تلك المدرسة رجعنا قافلين إلى سمر قند، وقد استمتع الناس بإفادات الشيخ أبي غدة رحمه الله، وبما جرى بينه وبين الشيخ الندوي رحمهما الله من حديث علمي شيق، وكان معنا في هذه الرحلة السيد سلمان الحسيني الندوي أيضا، وكان عامل ارتباط واتصال أكثر لما يتمتع به من صلة شخصية بالشيخ أبي غدة رحمه الله، وقمنا بزيارة الآثار التاريخية في سمر قند بعد العودة.

في عام 1996م، قدم إلى الشيخ الندوي رحمه الله مفتاح الكعبة شرفها الله، في رحلة إلى الحرمين الشريفين، وسعد بفتح الكعبة المشرفة، وقد كان له شرف الدخول فيها مرارا وتكرارا، غير أن هذه السعادة لم تكتب له إلا هذه المرة.

في العام التالي سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى باكستان للمشاركة في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي الدولي، في لاهور، حيث جمع اللقاء بينه وبين الرئيس الباكستاني آنذاك فاروق أحمد لغاري، الذي أعرب عن بالغ حبه وزائد صلته بالشيخ الندوي رحمه الله، واستفادته منه، كما حصل اللقاء بعد عدة شهور بينه وبين الأمير حسن في الأردن، الذي كان يقوم بأعمال الدولة فيها نيابة عن الملك، وأكرم الشيخ الندوي رحمه الله أيما إكرام، واحتفى به أيما احتفاء.

في عام 1998م تم تكريم الشيخ الندوي رحمه الله بجائزة شخصية عام 1998 الدولية في دبي، كما قدمت له بعد بضعة شهور الجائزة العالمية من قبل حكومة برونائي، والتي يتم منحها برعاية المركز الإسلامي بأكسفورد، وقام الشيخ الندوي رحمه الله بتوزيع ما حصل له من أموال ضمن هاتين الجائزتين أيضا على المؤسسات العلمية والدينية، وعلى الشخصيات الدينية والعلمية الهامة.

في 22 رمضان المبارك عام 1420 الهجري المصادف 31 ديسمبر عام 1999م انتقل الشيخ الندوي رحمه الله إلى جوار ربه في وطنه بدائرة الشاه علم الله، تكية كلان، في مديرية راي بريلي، قبيل صلاة يوم الجمعة، وتم دفنه في ليلة 23 رمضان المبارك بعد صلاة العشاء في المقبرة العائلية التي دفن فيها السيد الشاه علم الله الحسني رحمه الله[1] بالإضافة إلى والده، ووالدته، وشقيقه، وشقيقاته، وأبناء شقيقاته، وأبناء أشقائه.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد تدهورت صحته منذ سنوات عديدة، وكان قد أصيبت بنوبة من الشلل/ الفالج قبل عشرة شهور من وفاته، وإن كانت آثارها الظاهرة قد زالت بشكل تدريجي، غير النقاهة في جسمه كانت لا تزال باقية. كانت صحته عند الوفاة جيدة على ما بدا، وتوفي رحمه الله بنوبة قلبية على ما ظهر، وكان لسانه رطبا عندئذ

(1) كان السيد الشاه علم الله الحسني رحمه الله باني هذه القرية المعروفة بتكية كلان، وكانت من أعظم الشخصيات الدينية في عصره، وكان الملك المغولي السلطان محيي الدين أورنغ زيب رحمه الله على صلة به صلة حب واسترشاد.

بتلاوة القرآن الكريم، ولم يكد يتلو الآيات الأولى من سورة يس حتى لبى داعي أجله وانتقل إلى رفيقه الأعلى.

إن حادثة وفاة الشيخ الندوي رحمه الله الموجعة أحدثت موجة حزن وألم في العالم الإسلامي كله، وصلي عليه صلاة جنازة الغائب في كل من العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وأقيمت له دعوات الاستغفار والرحمة، كما صلى عليه صلاة جنازة الغائب ودعا له في الحرمين الشريفين أيضا في ليلة السابع العشرين من رمضان المبارك، جم غفير من الناس الأتقياء الصالحين. عقدت ندوات ومؤتمرات في أمكنة متعددة تخليدا لذكراه الطيبة، ولا تزال سلسلتها مستمرة، كما أنشي باسمه مؤسسات وجمعيات، وأصدرت المجلات والجرائد المختلفة أعدادها الخاصة بالشيخ الندوي رحمه الله، وأقيمت الأكاديميات، والمجامع، كما منحت له بعد وفاته جائزة الشاه ولي الله الدهلوي برعاية معهد الدراسات الموضوعية بنيو دلهي، وجائزة مؤسسة أيسسكو العالمية، واستلمها أقرباؤه وتلامذته.

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وغفر له وأدخله في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

الباب الثاني

التربية والتعليم وعوامل تشكيل الشخصية

العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية الشيخ الندوي رحمه الله

قضى الشيخ الندوي رحمه الله أيام طفولته في بيئة كانت بيئة المسلمين المثقفين في شمالي بلاد الهند، وكانت أسرته من خؤولته أسرة إقطاعية، وكان ذلك الزمن زمن الحكم الإنجليزي صولة وجولة في الهند، وكانوا قد عانوا الإجراءات الانتقامية من قبل الإنجليز جراء فشل المسلمين في الثورة عام 1857م مما كان قد أوقعهم في حالة من الخوف والفزع، وكانت عظمة الإنجليز وشوكتهم قد تمكنت وخاصة من قلوب الطبقات وعقولها من المجتمع التي لم تكن على نصيب من الثقافة الإسلامية والتربية الدينية، وهذا بالطبع أدى إلى نشوء وانتشار نزعة - بشكل عام - إلى تعلم الثقافة العصرية الحديثة التي كانت مناهجها وروحها مستمدة من الإنجليز، والتي أدخلت ورسخت في القلوب عظمة الإنجليز وسطوتهم وأسقطت منها ووضعت عظمة التعليم الإسلامي وأهمية التربية الإسلامية، فزالت عظمة أهل الدين والعلوم الإسلامية وهيبتهم من قلوب طبقات المجتمع المسلم التي يمكن أن توصف بأهل الدنيا، غير أن طبقة علماء الدين الإسلامي الذين كان عددهم قليلا جدا، كانوا مستمرين بإضاءة مشاعل الهداية والترشيد. كانت أسرة الشيخ الندوي رحمه الله من أبيه وأمه معا هي أسرة واحدة تقريبا، وكانت تسكن في مكان واحد وفي قرية واحدة. وإن كان أسرته من الخؤولة ينتمون إلى الطبقة الإقطاعية، غير أنها كانت تكن للدين، أهميته، وتشعر بعظمته، وخاصة جد الشيخ الندوي رحمه الله من الأم الشيخ السيد ضياء النبي رحمه الله كان ذات شخصية صالحة تقية في عصره، وكانت المناطق المجاورة قد استفادت منه من الناحية الدينية، إلا أن أفراد أسرته كانوا متأثرين بالثقافة العصرية الحديثة لكونهم من أفراد الطبقة الإقطاعية، وكانت هناك حالة من الصراع النفسي الخفي، الذي كان يترك آثاره على أجيال ذلك العصر الناشئة. كانت

أم الشيخ الندوي رحمها الله قد اكتسبت أثرا خاصا من والدها رحمه الله الذي كان رجلا صالحا، وموجها دينيا، وكانت ذات إيمان راسخ قوي، وهكذا كان الشيخ الندوي رحمه الله قد تمتع بإشراف وعناية دينية من الوالد والوالدة كليهما، لكن الشيخ الندوي رحمه الله عايش الاتجاهين للحياة لقضاء طفولته في البيئة التي كانت خليطا نوعا ما.

توفي والد الشيخ الندوي رحمه الله عند ما بلغ الشيخ تسع سنوات من عمره، فقام مقام الوالد شقيقه الأكبر الذي كان يتبع خطى والده اتجاها ونزعة، إضافة إلى أنه كان مثقفا بالثقافة العصرية أيضا، و وتوفي الوالد رحمه الله عندما كان في أواخر مراحل ثقافته العصرية – وقد تعلم العلوم الإسلامية الدينية من ذي قبل- فكان قد اكتسب محاسن المنهجين التعليميين، فكان يحمل بسبب ذلك نزعة دينية، وإيمانا راسخا وثقة غير متزعزعة بها، ولم يكن مبهورا من الاتجاهات التعليمية الحديثة لكونه عارفا بها ومطلعا عليها، فبينما كان الشيخ الندوي رحمه الله مؤمنا بالقيم الدينية التي كانت تحملها أمه، وتريد أن تزرعها في قلب ابنه البار في جانب، فكان يتمتع في جانب آخر بالتربية الشاملة من قبل شقيقه الأكبر الجامع للصفات الحميدة، فقضى الشيخ الندوي رحمه الله عمره بعد التاسع منه في تربية وعناية مزدوجة، مما أدى إلى تمتعه ببصيرة بأوضاع العالم وأحواله في جانب، وتزوده بالتقوى والصلاح والنزعة الدينية في جانب آخر، وكانت المشكلة الاقتصادية بعد وفاة والده رحمهما الله هي الأخرى مشكلة تتطلب الصبر والاحتمال، والتي لعبت بدورها في تعزيز صفة القناعة والتقوى في شخصية الشيخ الندوي رحمه الله، كما أنه اكتسب إلى جانب ثقافته الدينية العميقة جميع المعلومات التي تحصل من خلال دراسة العلوم والثقافة العصرية، فأحدثت المؤهلات العلمية التي حصلت له من كلا المجالين العلميين الديني والعصري في ذاته ثقة نفسية واكتفاء ذاتيا، الأمر الذي كان عاملا كبيرا على حمايته من الشعور بمركب النقص أمام العقول المتغربة، والمستسلمة لهيمنة الثقافة العصرية، فقد استفاد الشيخ الندوي رحمه الله من تربية والدته رحمها الله صفات القناعة والزهد والحمية الدينية، ومن فكر شقيقه – رحمه الله- الواسع واتجاهه النبيل ثقة وقوة في الفكر والعمل.

شعر الشيخ الندوي رحمه الله بشدة بعد إتمام تعليمه الرسمي بأهمية المحاولات وبذل الجهود في إخراج الأمة الإسلامية الهندية من التخلف والرعب والنفسي، ودرس لذلك سيرة وأحوال السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، وهو من أسرته نفسها، والذي

قام بأعمال وإنجازات تجديدية، وترجم دراسته في شكل مؤلف ريادي، وقد استعرض الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب الأحوال والأوضاع التي تتكفل بإيقاظ الحماس والعاطفة، وتعزيز الثقة بعظمة الأمة وإنجازاتها في نفوس الطبقة التي تحمل الشعور بمسئوليتها تجاه الأمة الإسلامية، فنال الكتاب قبولا واسعا وشعبية كبيرة، وبه بدأت سلسلة أعماله الدعوية و نشر أفكاره الرفيعة، والتي أخذت آثارها تمتد وتنتشر على نطاق أوسع، وهي متجلية ظاهرة طيلة حياته.

إن التربية النوعية التي تمتع بها الشيخ الندوي رحمه الله منذ طفولته، إن الأساتذة والمربين الذين تمتع بتوجيهاتهم في مختلف مناحي حياته، لم تكن إلا نعمة وفضلا من الله سبحانه وتعالى، وكان لتوجيه المربين المرشدين، والتربية المنزلية فضل كبير في تكوين شخصية الشيخ الندوي رحمه الله وخصائصه الفكرية والدعوية المؤثرة، يوجد ذكره بشكل عام في سيرته الذاتية، كما يوجد فضل هذه التربية في تكوين مزاج الشيخ الندوي رحمه الله الذي يميزه عن معاصريه بميزات على رأسها رغبته في نفع الآخرين، والاحتياط في الانتفاع الدنيوي الشخصي، ومعاملة الجميع بالخلق الحسن والتواضع، وتقدير المؤهلين لمؤهلاتهم، وجعل الهدف الدعوي نصب أعينه في جميع محاولاته ومجهوداته، وتحمل الضرر، وحماية الآخرين منه، وعدم طلب الانتقام حتى من معارضيه، وأداء الحقوق لأهلها بكل صبر واحتمال، وكبت رغباته ومطالبه إثر تبيان الحق، واحترام الكبار وتوقيرهم، والاستفادة منهم، والتواضع والانخفاض أمامهم، والشفقة والحدب علي الصغار، وتوجيههم وترشيدهم، والاهتمام بتربيتهم، كان ذلك كله من خصائص الشيخ الندوي رحمه الله.

واجه الشيخ الندوي رحمه الله في سبيل الإصلاح الاجتماعي والدعوة والتربية الدينية، وإبلاغ رسالة الحق كل طبقة وفئة من طبقات وفئات المجتمع، فواجه الشيخ الندوي رحمه الله كلا من الأثرياء، والحكام، والفقراء، والعامة والخاصة، ونال التوقير والاحترام أيضا من قبل الأثرياء والحكام، غير أنه لم يطلب منهم فائدة دنيوية، بل أعرض عن قبول مثل هذه الفوائد حتى عندما تيسرت له الفرص، بينما عامل عامة الناس والفقراء والمعوزين منهم معاملة أخوية وبأسلوب أخوي.

إن الفضل في اتصاف الشيخ الندوي رحمه الله بهذه الصفات والمزايا يرجع إلى مربيه العظام، وإلى بيئته التي عاش فيها، وقد خص منهم الشيخ الندوي رحمه الله بالذكر خاله

السيد عبيدالله وكان حافظا للقرآن الكريم، وذا شخصية جذابة ومحببة لدى الجميع. كانت والدته رحمها الله تعتني عناية كبيرة بتكوين نزعاته الخلقية في طفولته تكوينا صحيحا، وكانت تهتم أكثر ما تهتم بجانبين: أولهما أن يكون التدين والإخلاص في العمل لديه نفس ما كان لدى سلفه وكباره، الذين كان أقربهم إليه زمنا جده من الأم وهو الشيخ الشاه ضياء النبي رحمه، و فيمن فوقه السيد أحمد بن عرفان الشهيد من الفرع الثاني من الأسرة، ثم جد السيد أحمد الأكبر، وكبير الأسرة، جد الشيخ الندوي رحمه الله من أمه الشيخ الشاه علم الله رحمه الله، فكانت تحكي له قصص هؤلاء الصالحين الكبار، وتروي له صفاتهم الحميدة بأسلوب شيق، وإن كانت السيدة كثيرة الحدب على ابنه هذا، وشديدة الحب له لكنها لم تتعامل معه أبدا بأسلوب فيه الشفقة والتغافل، بل استمرت على توجيهه وتلقينه بمواساة الفقراء والمحتاجين، ورعاية الضعفاء والمساكين، واجتناب الملاهي والنشاطات الترفيهية غير المفيدة، كما أنه لم تمنعه قط من الأعمال الشجاعة الباسلة، فظل الشيخ رحمه الله منذ شبابه يرغب ويهتم بالألعاب المفيدة، مثل لعبة الهاكي، والكرة الطائرة، إضافة إلى السباحة والتدرب على استخدام البندقية من الألعاب الرياضية التي اختارها مع أقرانه وزملائه، ولكن والدة الشيخ الندوي رحمه الله التي كانت أكثر النسوة في أسرتها وبيئتها تدينا وعقلا، وأكثرهن علما وأدبا، ظلت تنهاه عن كل ما فيه لهو ولغو من الأعمال، وعن الشعور بالتعالي والترفع الزائد، والاعتداء على الآخرين، وغمط حقوقهم، وكانت تحاول دائما أن يجنبه في حياته العادية من أن يحدث في نفسه التمييز بين الفقير والثري، وبين الخادم والمخدوم على أساس من التفاوت الطبقي، ومثاله أن الشيخ الندوي رحمه الله ضرب – وهو صغير– ابن خادمته التي كانت تطبخ لهم لسبب من الأسباب فدخلت الخادمة تشكو إلى والدته، فطلبته وطلبت ابن الخادمة، وقالت له: اضربه، فتحرجت الخادمة، وقالت: كيف يمكن لابني أن يضرب ابنك؟ غير أن أم الشيخ الندوي رحمهما الله أصرت على ما قالت، ولما لم ترض الخادمة بهذا رغم الإصرار، أخذت يده وضربت به الشيخ الندوي رحمهما الله.

وكانت هذه التربية هي التي جعلت من طبيعة الشيخ الندوي رحمه الله أنه لم يحتقر شخصا، ولم يعتد على أحد أبدا طيلة حياته، وكانت طبيعة الشيخ الندوي رحمه الله هذه ملازمة له حتى بعد تمكنه من المناصب القيادية الرفيعة، وتمتعه بالشهرة العالمية الواسعة، لا شك أن الشيخ الندوي رحمه الله واجه الغضب الشخصي من أناس أحيانا، ومورس

عليه الظلم والعدوان أحيانا أخرى، غير أنه لم ينتقم منهم قط – على حد معرفتي – رغم قدرته على الانتقام منهم. قام بعض الناس بحملة إعلامية عليه، فلم يكتف الشيخ الندوي رحمه الله بالسكوت عنه، بل نهى جميع أهل القلم ممن كانوا على صلة به عن الخوض في هذا الغمار، والرد عليه، وسلم أمره إلى ربه جل وعلا، فكانت النتيجة أن الله سبحانه وتعالى محا عن الوجود كل تلك المخالفات والمعارضات، ولم تكتب الغلبة والانتصار إلا لصفاء طبعه، وطيب قلبه، وقد واجه الشيخ الندوي رحمه الله في الصدد مراحل صعبة حرجة، وكان فيها براء، غير أنه لم يقم بالإجراء الانتقامي، وكانت براءته هي التي مع مرور الزمن.

إلى جانب التربية والعناية التي أسدتها والدة الشيخ الندوي رحمه الله إليه في طفولته، كانت الدعوات التي دعتها له هي الأخرى دعوات استثنائية، منها ما كانت منظومة، ونشرت بعنوان «أبواب الرحمة»، تدل قراءته على مدى تألمها، وحرقة قلبها على ابنها. كانت والدة الشيخ الندوي رحمها الله امرأة صالحة عابدة، ملتزمة بالأوراد والأذكار، ومواظبة على صلوات التهجد، وقيام الليل، جياشة بالحمية للدين والغيرة عليه، إضافة إلى أنها عندما ترملت وما زال ابنها صغيرا، ازدادت مسئوليتها بعد وفاة الوالد ازديادا كبيرا، اشتدت حرقة قلبها اشتدادا عظيما، وكثرن دعواتها كثرة بالغة، لم يكن من الممكن للإنسان أن يفكر – نظرا إلى الأوضاع السائدة والإمكانات المتاحة حينئذ – في أنه سيتحقق حتى القليل منها، والواقع أنها لم يقدر لها أن تتحقق كثيرا في حياتها، غير أنها تحققت كلها بشكل تدريجي، وكم يمكن أن تكون فرحتها عند ما يخبرها الله سبحانه وتعالى في قبرها بنتائج دعواتها. كانت رحمها الله شديدة الثقة والإيمان بدعائها، وكانت قد ألفت رسالة في بعنوان « الدعاء والقدر» أيضا، توقعت فيها استجابة دعواتها، وهي رسالة خطية، ومؤثرة جدا.

تمتع الشيخ الندوي رحمه الله بعد طفولته بتربية شقيقه الكبير، الذي كان يجمع بين القديم والجديد، وقد تربى على يدي والده تربية خاصة، واطلع على الأوضاع والظروف السيئة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، كما كان مطلعا على الأسباب والوسائل الصحيحة للخروج بالأمة من حالة التخلف والتردي إلى مقام الرقي والازدهار، ومن العجز والانكسار إلى القوة والانتصار. فحاول أن يربي شقيقه الصغير ويعده لهذا الغرض، وأتاح تحقيقا لهذا الغرض فرصا لزيارة كبار شخصيات التربية والإصلاح في

عصره، ووفر لدراسته ومطالعته كتابات ساعدته على تكوين طبيعة الشيخ الندوي رحمه الله الإصلاحية والدعوية والتربوية، والقيادية، فأتيحت للشيخ الندوي رحمه الله فرصة للحضور عند المصلح المربي في عصره وهو الشيخ أحمد علي اللاهوري، والاستفادة من تربيته وتوجيهه، كما سعد من خلاله بلقاء الرجل الصالح والمربي العظيم في عصره الشيخ خليفة غلام محمد، وتشرف بالبيعة على يديه، واستفاد منه دعوات وتوجيهات، وكذلك اجتمع أثناء إقامته في لاهور بشاعر الشرق وترجمان الإسلام الدكتور محمد إقبال أيضا، واستعان بكلامه الشعري في أعماله الدعوية والفكرية، وأتيحت له كذلك فرصة للحضور عند العلاّمة حسين أحمد المدني وهو شيخ الحديث في دار العلوم بديوبند، واستفاد منه في دراسة الحديث النبوي الشريف على صاحبه الصلاة والسلام، وفي مجال التربية والتزكية، مما زاد الشيخ الندوي رحمه الله اهتماما وعناية بالتقوى والربانية، وعزز لديه الرغبة في المحيى والممات في سبيل الله، وسافر إلى الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي رحمه الله، بصدد العمل في المجال الدعوي، وانتسب إلى عمله، مما شعر بعده الشيخ الندوي رحمه الله بفرق كبير في قلبه ونفسه، وتأثر تأثرا كبيرا باهتمام الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي وتألمه للدين والأمة الإسلامية، ودعوته وصحبته، واستحضار النية والتمسك بالإيمان والاحتساب لديه في كل عمل من الأعمال، ثم شفقته وعطفه عليه بشكل خاص.

تمتع الشيخ الندوي رحمه الله بتربية أمثال المربي الكبير الكامل، الشيخ عبد القادر الرائيفوري، وبإشراف وتوجيه المشرف المخلص العظيم العلاّمة المحدث محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله، فاستفاد من الشيخين الكبيرين استفادة كاملة، وبقي شاكرا لهؤلاء العلماء والمشايخ طول حياته، ودرس الشيخ الندوي رحمه الله - إضافة إلى هؤلاء - أعمال جميع أبرز العاملين في مجالات الدعوة والإصلاح، ونصرة الدين والحق في ذلك العصر.

ومن مزيد فضل الله سبحانه وتعالى عليه أنه حصل دائما على الأساتذة المهرة، وكان منهجه في التعلم والدرس أقرب إلى المنهج التعليمي التقليدي القديم، وهو منهج أكثر إفادة وأشد قربا إلى الفطرة، والذي يتعلم فيه الطالب فنا من الفنون ويكمله ثم يتقدم إلى فن آخر، وقد امتاز الشيخ الندوي رحمه الله أيضا بأنه تمتع في هذا المنهج بكبار الأساتذة وخبراءهم، الذين حاولوا أيضا أن يرسخوا في عقل الشيخ الندوي رحمه الله وقلبه خصائص الفن المعني وأساسياته، فتعلم الشيخ الندوي رحمه الله كل فن من الفنون

بطبيعته وخصائصه.

بدأ الشيخ الندوي رحمه الله دراسته بالتعليم المنزلي، وتمتع فيه بإشراف عمه الشفيق العطوف الشيخ السيد عزيز الرحمن الحسني، الذي قام بواجب تعليمه اللغة الأردية والفارسية والتعليم الابتدائي، وكانت له ملكة عظيمة في تعليم الأطفال الصغار، وكان مشرفا على مكتبة دار العلوم التابعة لندوة العلماء، لكناؤ، والتي كانت حينئذ في قلب المدينة، فكان الشيخ الندوي رحمه الله يختلف إليه بانتظام، وكان يعلمه بما هو ضروري من الشدة والشفقة.

كانت بداية تعلمه اللغة العربية - وهو في دراساته المتوسطة - بأسلوب فطري للغاية. إن والد الشيخ الندوي رحمه الله كان يستخدم اللغة العربية في أعماله الكتابية، فكانت هناك رغبة واهتمام باللغة العربية في محيط البيت، وكان شقيقه الأكبر قد مر بهذه المرحلة من ذي قبل، وكان قد درس اللغة الإنجليزية أيضا، فكانت فكرته في تعليم اللغة مؤسسة على التجارب الحديثة، وخلاصتها أن عادة تقديم تعليم قواعد الصرف والنحو على تدريس النص واللغة هي عادة غير صحيحة، ومخلة بالمنهج الصحيح لتعليم اللغة، وأما البداية بتعليم النص فهي أقرب إلى المنهج الطبيعي الفطري للتعليم، كما يتعلم كل طفل لغة أمه بالطريقة الفطرية، فهو لا يتعلم فيه فهم اللغة فحسب، بل يتعلم استخدامها أيضا، فقام شقيقه بتوفير كتب المناهج المصرية، وسلمه معها إلى فاضل عربي الأصل، مقيم في حيه نفسه، وهو الشيخ خليل بن محمد العرب، وكان الشيخ قد درس في ندوة العلماء لكناؤ أيضا، غير أنه كان حافظ على لياقته وسليقته العربية، فاعتنى بتدريسه اللغة العربية على طريقة أهلها، وعامله معاملة العم لابن أخيه، بحيث إنه يكون دائم النصح والخير له، و فيعتني به عناية تامة كذلك، فعلمه الشيخ خليل بن محمد المناهج الدراسية العربية التي كان تم إعدادها في القاهرة وبيروت، وحاول أن تكون صلته باللغة العربية مثل صلته بلغة الأم، فأثر ذلك منذ بداية تعلم اللغة العربية نفسها على مقدرة الشيخ الندوي رحمه الله، وكان ذلك أثرا أساسيا، وفائدة رئيسية، جعلته يشكر لأستاذه ما بقي على قيد الحياة، وكان الشيخ خليل يحاول أن يوجد في نفسه إلى جانب تعلمه اللغة العربية طبيعة طلابية، وأدبا طلابيا، فكان يستخدم لهذا الغرض ما كان يتطلب من الشدة والقسوة أيضا، الأمر الذي كان مسموحا له من قبل شقيق الشيخ الندوي رحمه الله، وأمه، وقد ذكر الشيخ الندوي رحمه الله نفسه حدثا من هذا النوع في سيرته الذاتية

«في مسيرة الحياة» بعنوان «التوفيق الإلهي» على النحو التالي:

«لقد ابتليت أيام القراءة على الشيخ خليل مرة بمحنة كانت في بادئ الأمر هينة تافهة، ولكنها كانت ذات أثر حاسم في نجاحي في تحصيل اللغة العربية وآدابها ودراستي للعلوم العربية، حدث أن شكا أستاذي في اللغة الإنجليزية، وأخذ علي قلة الأدب معه، وكان ناشئا عن سوء تفاهم، (من الإحساس بأنني أغلقت الباب بقوة بعد أن اعتذر عن التدريس ذلك اليوم لسبب معين) وكان الشيخ كبير الثقة به والتقدير له، وتأثر الشيخ بذلك واستأذن أخي الأكبر أن يؤدبني على ذلك، وقد كانت عنده حدة فزاد هذا الحادث الطين بلة واشتعل الشيخ غضبا، وضربني على ذلك ضربا شديدا موجعا زاد على حجم الخطأ والحادث، وأحس الشيخ فيما بعد أنه أفرط وخرج عن حد الاعتدال واعتذر إلي في ذلك.

وصل الخبر بطريق من الطرق إلى الوالدة برائي بريلي، فسألتني وقالت: علمت أن الشيخ خليل ضربك ضربا مبرحا تخطى الحد، فهل الخبر صحيح؟ ووفقني الله تعالى عند ذلك، فدافعت عن الشيخ، وأثبت أن الحق كان معه في تأديبي وضربي، واطمأنت الوالدة واستمرت دراستي، وأنا أعتقد أن هذا الموقف المشرف السعيد الذي كان نتيجة توفيق من الله تعالى ليس غير، لعب دورا حاسما في مستقبلي فيما وفقت له من تذوق اللغة العربية وآدابها، ومساهمة متواضعة في خدمة العلم والدين عن طريقها، فإنه لو كان الوضع بالعكس من ذلك، ودافعت عن نفسي، وبرأت ساحتي، واتهمت أستاذي ومربي يتخطى الحد المعقول في العقوبة والتأديب لكان النتيجة بالعكس، وحرمت ثمرات تعليمه وتدريسه ونجاحي في اللغة العربية وآدابها، وذلك من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؟»[1].

كان الشيخ الندوي رحمه الله يشعر بهذه المنة العظيمة لأستاذه عليه، وكان يذكرها بعاطفة الشكر والتقدير.

وعلى كل، فإن الشيخ الندوي رحمه الله بدأ يكوّن لديه مقدرة وسليقة عربية على طريقة أهلها، جعلته بشكل تدريجي في مصاف العلماء والأدباء، الأمر الذي اعترف به العلماء والأدباء العرب أنفسهم من خلال دراسة كتاباته وخطبه ومحاضراته العربية.

(1) في مسيرة الحياة 1/ 79-80.

ثم أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بفضل آخر، وذلك أن عالما كبيرا ذا باع طويل من تونس وهو الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، حدث أن جاء الهند يزورها، فطلبه شقيق الشيخ الندوي – رحمه الله– الأكبر الذي كان يقدر للعرب قدرهم ويكن لهم احتراما كبيرا، عندما علم بمستواه العلمي، ومؤهلاته العلمية، ليعينه مدرسا في كلية اللغة العربية وآدابها في دار العلوم التابعة لندوة العلماء، وكان الشيخ الندوي رحمه الله آنذاك في المراحل النهائية لحياته الطلابية، فاتصل بالشيخ تقي الدين الهلالي لينهل من مناهله العربية الصافية، واستمر في الاستفادة منه مدة ثلاث سنوات، وكان الشيخ الندوي رحمه الله دائم الذكر لأهمية هذه الاستفادة، كما أنه كان كثير الشكر والامتنان لأستاذه الشيخ تقي الدين الهلالي. كان الشيخ تقي الدين الهلالي يشدد على استخدام الألفاظ والتعبيرات العربية بما يطابق مستواه من الصحة والفصاحة، ولم يكن يقبل أي قصور أو ضعف في هذا الباب، وإن كان رائجا بين العرب أنفسهم، وقد ذكر الشيخ الندوي رحمه الله كشهادة ودليل على مستواه في الفصاحة والصحة ما حدث بين العلاّمة الشيخ رشيد رضا، والكاتب المفكر أمير شكيب أرسلان من مناقشات حول فصاحة بعض الكلمات أو العبارات العربية، حيث إنهما احتكما إلى الشيخ تقي الدين الهلالي، واطمئنا إلى رأيه في الموضوع، مما يدل على أن الشيخ تقي الدين الهلالي من بين الشخصيات العربية كان حجة في معرفة اللغة العربية، كان الشيخ تقي الدين الهلالي يقف موقف الصرامة والحزم في أفكاره العلمية والفكرية، وكان موقفه هذا منسجما مع طبيعته المراكشية، فكان يصرح بخطأ ما كان يعتبره خطأ، وكان يتمشى مع نفس الموقف في حياته العادية أيضا.

كان هناك عدد من الأساتذة الصغار يتصل بالشيخ تقي الدين الهلالي صلة التلميذ بأستاذه أثناء إقامته في دار العلوم التابعة لندوة العلماء، وكانوا كلهم من زملاء الشيخ الندوي رحمه الله في الدراسة والتعلم، يجدر الذكر منهم الأستاذ مسعود عالم الندوي، والأستاذ محمد ناظم الندوي، والشيخ أبو الليث الندوي رحمهم الله جميعا، وبدأ الأستاذ مسعود عالم الندوي من بينهم إصدار مجلة عربية شهرية باسم «الضياء» أيضا، وكان يشرف عليها العلاّمة السيد سليمان الندوي والشيخ تقي الدين الهلالي رحمهما الله، وكان الشيخ الندوي رحمه الله والأستاذ محمد ناظم الندوي عضوين في مجلس إدارته، كان الأستاذ مسعود عالم الندوي رحمه الله يرجح رأي الشيخ تقي الدين الهلالي بأن التعبيرات الحديثة التي دخلت اللغة العربية في العصر الحديث، لن تكون – وإن كانت صحيحة من حيث

اللغة- أفصح إذا اختلفت عن التعبيرات القديمة، وبالتالي لا يستحسن استخدامها، بينما كان الشيخ الندوي رحمه الله يرى ويقول بأنه إذا كان تعبير عربي يستخدمه الثقات من الكتاب العرب فلا يصح هذا القدر من التشديد على منع استخدامه، فكان هناك بين الشيخ الندوي والأستاذ مسعود عالم الندوي رحمهما الله في هذا الصدد - رغم ما كان بينهما من علاقات ودية عميقة- اختلاف وهو بدوره لم يكن شيئا مستنكرا نظرا إلى صحة الموقفين، غير أن موقف الشيخ الندوي رحمه الله هذا كان سببا في رشاقة أسلوبه، وشعبية كتاباته، و به سبقت كتاباته العربية، لكن موقف الشيخ تقي الدين الهلالي ونظرته هذه تدل على محافظته الشديدة على خصائص اللغة العربية، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يراها صحيحة من حيث المبدأ، وكان يرى الالتزام بها ضروريا ما أمكن أيضا، وخلاصة القول إن الشيخ الندوي رحمه الله استفاد استفادة عظيمة من الشيخ خليل بن محمد في البداية، ثم الشيخ تقي الدين الهلالي فيما بعد، في تكوين ملكة في اللغة العربية وآدابها، وكان دائم الاعتراف لهما بذلك طيلة حياته.

بدأ الشيخ الندوي رحمه الله دراسته المتوسطة بالتمكن من اللغة العربية آدابها، ووصلها بالاستفادة من الأساتذة البارعين في فن الحديث النبوي الشريف على صاحبه الصلاة والسلام، وكان الشيخ حيدر حسن الطونكي وهو شيخ الحديث في دار العلوم لندوة العلماء، أستاذا بارعا، ومتمكنا في فن الحديث، وكانت له روابط وصلات مع أفراد أسرة الشيخ الندوي رحمه الله المقيمين في مديرية تونك، فساعده في دراسة الحديث النبوي الشريف مساعدة خاصة، فدرس عليه الشيخ الندوي رحمه الله أمهات كتب الحديث الشريف، ونال شهادة خاصة، وهذه هي الشهادة التي استمر الشيخ الندوي رحمه الله على منحها لطلابه وتلامذته.

وقضي الشيخ الندوي رحمه الله خمسة أو ستة شهور في دار العلوم بديوبند عند الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله أستاذ الحديث النبوي فيها، ليعزز دراساته الحديثية، فجلس في دروسه وحصصه الدراسية، واستفاد منه مزيدا في هذا الفن العظيم، إلى جانب رحلته إلى لاهور بعد ذلك ليستفيد من الشيخ أحمد علي اللاهوري، في فن تفسير معاني القرآن الكريم، كما اشترك في دروس كتاب حجة الله البالغة للشاه الدهلوي الذي كان يعلمها بالمستوى الممتاز، ونال الدرجة الأولى في الامتحانات، وهكذا ظهرت في تخصصاته العلمية هذه الفنون الثلاثة بشكل خاص، وهي اللغة العربية آدابها، والحديث

النبوي الشريف وتفسير معاني القرآن الكريم، التي تعلمها من كبار الأساتذة البارعين بعناية فائقة واهتمام بالغ.

علاوة على ذلك، ظل الشيخ الندوي رحمه الله يستفيد من ثلاثة من كبار العلماء البارزين استفادة خصوصية، كان أحدهم شقيقه الكبير الدكتور السيد عبدالعلي الحسني الذي كان يوجهه ويرشده إلى الاستفادة من جوانب متعددة من العلم والمعرفة، والدراسة فيها، وكان يوجهه إلى ما يجب الاطلاع عليه من جوانب من العلوم العصرية الحديثة والتي تجب معرفتها والتعمق فيها لعالم الدين، فأشار عليه بمطالعة ودراسة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والعلامة ابن الجوزي، والإمام الغزالي وأمثالهم من المفكرين والعلماء المسلمين، كما لفت عنايته إلى وجوب الاطلاع على الأوضاع السائدة للأمة الإسلامية، وتاريخها.

والشخصية الثانية كانت شخصية زوج عمته الشيخ السيد طلحة الحسني رحمه الله، الذي كان أستاذا في كلية لاهور الشرقية، وكان له اطلاع واسع على الأدب والتاريخ والعلوم الدينية، وأسلوب ممتاز لإفادة الطلاب إفادة علمية، فاعتنى عناية خاصة بتوجيه ابن أحيه هذا، وتربيته وإثراء ثقافته العلمية والفكرية والثقافية.

وأما الشخصية الثالثة فكانت شخصية العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله، الذي كان مشرفا تعليميا لدار العلوم التابعة لندوة العلماء، وكان يمتاز على جميع أقرانه ومعاصريه بالرسوخ والتمكن في العلم، استفاد الشيخ الندوي رحمه الله منه استفادة خاصة في مادة التفسير كما استفاد منه في اللغة العربية وآدابها تاريخها.

هذه الشخصيات المذكورة أعلاه هي التي لعبت دورا رئيسيا فيما يتعلق بتعليم الشيخ الندوي رحمه الله بصفتهم أساتذة ومعلمين، وأما الاستفادة الثانوية فكان ديدنه فيها أنه كان يستفيد ما أمكنه من المعلومات في فن معين من صاحبه عند اجتماعه به، وكان ذلك يتم بصفة عامة على مستوى الزمالة، في شكل مذاكرة علمية، ولم يكن الشيخ الندوي رحمه الله يرى أي عيب في مثل هذه الاستفادة حتى إنه لم يكن يستنكف عن تلقي معلومات قيمة وإن كان مصدرها طلابه وتلامذته، وعندما أتيحت له الفرص للعضوية في المحافل والمجالس العالمية، بدأت لقاءاته ومقابلاته مع العلماء المعروفين على المستوى الدولي أيضا، فلم يكن الشيخ الندوي رحمه الله يقصر لقاءاته على أمور إدارية واستشارية، بل كان يتحين فيها أيضا فرصا للمذاكرة العلمية، فبلغت مكانته العلمية والفكرية مبلغا

أكسبه الاحترام والتعظيم لما كان يتمتع به من علم غزير، معرفة واسعة، وكانوا يبادرون إلى كسب عضويته حتى في المجالس والمجامع التي كانت تحمل مميزات خاصة من الناحية العلمية والفنية. وكان الشيخ الندوي رحمه الله بصفاته الشخصية هذه يعتبرا عالما كبيرا وشخصية فذة على المستوى الدولي.

كان كل من الجانبين: الجانب العلمي والجانب الإنساني من شخصية الشيخ الندوي رحمه الله ممتازا بكرم من الله وفضل، وذلك لأن وفاة والده رحمه الله وهو طفل، يكون قد ترك أثرا نفسيا كبيرا على مزاجه، وجعله يشعر بالوحشة والضعف، مما يكون قد استدر عليه رحمه الله عز وجل، وقد خصه الله سبحانه وتعالى بنصره على نحو أنه تعالى يخص اليتامى إذا التزموا بالأخلاق الصالحة والسيرة الطيبة بمدد خاص منه.

وزد إلى ذلك أن نال حظا وافرا من عناية والدته وإشرافها، و ونصيبا كبيرا من دعواته الرقيقة الخاصة، ومما عمل على تشكيل شخصية الشيخ الندوي رحمه الله أحسن تشكيل، وتربيته أحسن تربية، إضافة إلى أن الشيخ الندوي رحمه الله عانى من كثير من الآلام والأمراض في جسمه، والتي ترفع درجة الإنسان وتطور شخصيته إذا كان الإنسان ذا عزيمة صادقة وهمة عالية، كان الشيخ الندوي رحمه الله يعاني من مرض بيجيش منذ صغر سنه، ولازمه هذا المرض لمدة طويلة، ولم يفارقه إلا بعد معالجات مكثفة، وعاني الشيخ الندوي رحمه الله بسببه من الآلام الكثيرة والمصاعب العظيمة أثناء سفراته ورحلاته الدعوية وأعماله العلمية، وبالتالي ظل يعاني من الهزال والضعف في الجسم لفترة طويلة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد مر في طفولته وشبابه بالأوضاع والظروف الشخصية الصعبة، مما كان يوحي بكل وضوح بأن الشيخ الندوي رحمه الله كان ضعيفا للغاية في جسمه، ويكابد آلاما وأمراضا كثيرة، وكان الأطباء أيضا يدركون هذا الأمر، لدرجة أن طبيبا من الأطباء عندما فحصه أثناء رحلته إلى لاهور، شخص فيه مرض ---- في العظام أو الأمعاء، وتنبأ بنهاية حياته في وقت عاجل أيضا. ولما سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى لاهور فيما بعد اجتمع بذلك الطبيب أيضا. كان الشيخ الندوي رحمه الله يقول لما رأيته شعرت بأن الرجل لا بد أن يفكر في أنني هو الرجل الذي كان هو تنبأ بنهاية حياته في وقت قريب.

وعلى كل، ظل شقيق الشيخ الندوي رحمه الله الذي كان ممتازا في المعالجة على الطريقة اليونانية وعلى الطريقة الحديثة (الإيلوباثي) يصف له أنواعا من الأدوية، إلى تمت السيطرة على المرض والقضاء عليه، وإلا فقد كان الشيخ الندوي رحمه الله يمر أثناء رحلاته وسفراته الدعوية بظروف حرجة بسبب صحته الضعيفة، حيث كان يصاب بمرض------ ويتعرض للضعف والنقاهة، وكانت معاناته أكثر وأشد عندما كان يقوم برحلاته في الأرياف والقرى، وكان شقيقه الأكبر دائما يخشى عليه مكروها في مثل هذه الرحلات، ولما تعافي الشيخ الندوي رحمه الله من هذا المرض عادت إليه صحته وتحسنت، غير أنه اشتد عليه السعال، وكان يطرأ عليه نوبة السعال بسرعة متزايد، وبشكل مستمر، لحد أنه لم يكد يمضي عليه خمس دقائق حتى كان يصاب بنوبة ثانية، إلى أن أصبح السعال علامة تشعر بوجوده أو قدومه، وكان السعال يؤثر سلبا على أعصابه بشدة، ظل يواصل العلاج ولم ينفعه، وأخيرا سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى دمشق كأستاذ زائر حيث أقام واستراح مدة شهر، فزال منه مرض السعال تلقائيا للأبد دون معالجة.

ولم يكد يمضي وقت طويل حتى أصيب الشيخ الندوي رحمه الله بألم في عينيه، فتوجه إلى الكلية الطبية بجامعة عليجراه الإسلامية للعلاج، وتم إجراء عملية جراحية في إحدى عينيه، غير أنها لم تستطع أن تفي بمتطلبات الصحة، واضطر الشيخ الندوي رحمه الله إلى أن يسافر إلى بومبائي لعملية أكبر جراحية أكبر، حيث تمت العملية على يدي طبيب مشهور، وكانت هذه العملية من كبرى العلميات الجراحية، وتتطلب إجراءات الاحتياط أيضا، وفي نفس الزمن حدثت اضطرابات طائفية عنيفة في مناطق راوركيلا وجمشيد فور، وتم تشكيل المجلس الاستشاري المسلم لمعالجة الظروف الناتجة في إحدى قاعات ندوة العلماء، واضطر الشيخ الندوي رحمه الله أن يشارك فيه بوصفه مستضيفا وداعيا لهذا المؤتمر، وأن يلقي فيه كلماته، الأمر الذي كان يتناف مع متطلبات الاحتياط، غير أنه ثبت إلى جانب ذلك أن الطبيب الذي كان قام بإجراء العملية في عينه تساهل في بعض الأمور العلاجية، مما أنتج في إضعاف باصرته، فأصابته نوبة ----- بعد وقت غير قليل، فراح لمعالجتها إلى مستشفى العيون الشهير الواقع في سيتافور، حيث أقام أكثر من شهر ونصف شهر، غير أنه لم يتم تشخيص علاج ناجع لإزالة هذا المرض بشكل دائم، فكان يتم علاجه مؤقتا من خلال العلمية، فيرتاح لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، ثم كانت

تعود إليه وطأة المرض بشدة، تضطره إلى العملية مرة ثانية. ما زالت هذه الظروف المليئة بالقلق والاهتمام قائمة أسابيع متعددة، فكلما كانت تشتد عليه النوبة، ويبلغ به القلق مبلغه، كان يضطر للخضوع للعملية، إلى أن بلغ عدد العمليات التي أجريت عليه ست أو سبع عمليات، وأصبحت العين بعد هذه العمليات المتعددة عينا جريحا، وعرضة للأمراض، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعاني من حالة عجيبة، إلى أن أهل عليه شهر رمضان، وانقضى في نفس هذه الحالة، ولم يكن للممرضين والمواسين له إلا أن يصلوا عليه صلاة العيد في المستشفى نفسه.

رجع الشيخ الندوي رحمه الله إلى العلاج على طريقة هوميوباثي، (وهي العلاج بالمثل)، وزالت عنه نوبات الألم بعد بداية هذه المعالجة، وأما ضعف البصر فلم ينفك عنه مع مواصلة العلاج، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله لم تفتر همته رغم هذه الآلام والمصائب، واستمر بأعماله الكتابية إملاء، وسماعا، وفي هذه الفترة صدر له عدد من مؤلفاته الهامة، واستمر على هذا الوضع من عشر سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، لم يكن يقدر فيها على القيام بأي عمل عملي أو أي عمل هام اعتمادا على عينيه، وكان دائم الحاجة إلى من يرافقه ويدله على الطريق أيضا، غير أن أعماله الكتابية ورحلاته الدعوية استمرت وتواصلت على العادة، إلى أن تمت أخيرا عملية جراحية خلال رحلته إلى أمريكا في عينه الأخرى التي أوشكت قوتها على النهاية بسبب ما نزل فيها من الماء، على يدي طبيب خبير ماهر في فلادلفيا عند نهاية جولته في أمريكا، وهي العملية التي أعادت إلى عينه بصارتها التي ظل يستخدمها الشيخ الندوي رحمه الله إلى أن توفاه الله عز وجل. رحمه الله رحمة واسعة.

ثم أصيب الشيخ الندوي رحمه الله بمرض النقرس، واشتدت عليه وطأته، وكان هو الآخر من الشدة بما ينفد الصبر والاحتمال ولم يكن بالأمر الميسور، لكن الشيخ الندوي رحمه الله ظل يواصل أعماله العلمية ومشاغله الدينية والدعوية باستمرار.

وحدث في حياته الشخصية إلى جانب ما كان يعاني منه من مرض (الاحتباس) وهو في مقتبل شبابه ما كان يذكره مرارا وتكرارا في أحاديثه وهو أن ابن أخته الكبير السيد محمود حسن (المتوفى 1942م) الذي كان فريسة للأمراض المختلفة منذ طفولته، وكان يصغر عن الشيخ الندوي رحمه الله بسبع أو ثماني سنوات في العمر، أدخل في القسم الأوربي من كلية الطب في مدينة لكناؤ وهو في شدة من مرضه، ولم يكن هناك من هو

أصلح من الشيخ الندوي رحمه الله ليرافقه في المستشفى، فقضى الشيخ الندوي رحمه الله وحده عدة أيام معه في المستشفى. كان الشيخ الندوي رحمه الله في متقبل العمر وهو مرحلة من مراحل حياة الإنسان يكون فيها أقرب إلى المزحة والظرافة، غير أن ما جربه الشيخ الندوي رحمه الله هناك من معاناة الإنسان المريض وخاصة في وحشة الليل هز قلبه هزا عنيفا، حيث كان يسمع آهات وصيحات ألم من مختلف أطراف القسم، وكان ابن أخته العزيز هو الآخر يصيح وينادي خاله عندما كانت تشتد عليه وطأة الألم، ولكن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن قادرا على فعل شيء، فكان يجري هنا وهناك، ويسارع إلى الممرضات المناوبات ويشتكي لهن ما كان يعانيه ابن أخته، دون جدوى. كان الشيخ الندوي رحمه الله يذكر بأن ما تركته علي نفسه هذه الليالي العديدة من أثر شديد حول الظرافة التي هي طبيعة في نفس الإنسان إلى مشاعر واقعية ومسئولة، الأمر الذي زاد في قلبه من أهمية الانتظام ومتطلبات المسئولية في الحياة.

رخص لابن أخته العزيز هذا من المستشفى بعد العلاج، غير أن الأمراض ما انفكت عنه طول حياته إلى أن توفي رحمه الله في عنفوان شبابه بعد 8 أو 9 سنوات. كان أخي الكبير يعاني من مرض T. B، وكان علاجه غير مكتشف حتى في الأيلوباثي في ذلك الوقت.

إن هذه الظروف المذكورة – وإن كانت من الأمور الجسمية – تركت آثارها في أعمال الشيخ الندوي رحمه الله وتشكيل خصائصه كل في دائرته، مما يساعد– إلى حد – على فهم ما كان يتحلى به الشيخ الندوي رحمه الله من صفات علو الهمة، والعزيمة، والصبر والاحتمال، والمواساة للإنسان، والشفقة عليه.

وأضف إلى ذلك أن التعليم الديني ومنهج العمل الديني الذي اختاره الشيخ الندوي رحمه الله لم تكن الظروف مواتية له بالنسبة للشيخ الندوي رحمه الله من نشأته حتى انتهى من حياته الدراسية، إذ كان بعض أقربائه وأحبائه المعاصرين كانوا يرون أن التعليم الديني ومنهج العمل الديني يتنافى مع الرفاهية والتسهيلات المادية في الحياة، ولم يكونوا يعتقدون مما يضمن النجاح في الحياة إلا الثقافة العصرية ومنهج العمل الحديث، فكانوا يبدون مواساتهم وأسفهم بين فينة وأخرى، بينما كان البعض من أقرانه يعربون عن آرائهم بأسلوب فيه تهكم وتعريض، الأمر الذي كان يتحمله الشيخ الندوي رحمه الله، وكان

يساعده فيه ما يجده من تعزيز وتعاضد من قبل والدته الكريمة، وشقيقه الكبير، وفي هذا السياق قال بعض أصدقاء زوج عمته في لاهور أثناء رحلته وإقامته عندما اختبروا ذكائه وفطنته بأنه ينبغي له أن يدرس التعليم الإنجليزي ليصل إلى منصب آئي سي اس، لا أن يتعلم العلوم الدينية ويضيع حياته، وكان الناس المثقفون في ذلك الوقت يحملون هذه العقلية وهذه النظرة المادية، وكان على الشيخ الندوي رحمه الله أن يعاني من هذه العقلية ويتحملها.

وفي هذه الظروف غير المواتية، والأوضاع الصعبة ظل الشيخ الندوي رحمه الله يطور شخصيته، ويجعل نفسه محافظا على القيم الإسلامية النافعة، وانتهى أخيرا إلى أن جعله الله سبحانه وتعالى ينال هذه المكانة العظيمة البارزة التي طالما يغتبطها الإنسان.

المزايا والخصائص والأخلاق والصفات

كان الشيخ الندوي رحمه الله متحليا بالخصائص والصفات المتعددة والمتنوعة. كان مفكرا ومصلحا ممتازا في جانب، ومعلما ومربيا ناجحا في جانب آخر، بينما كان كاتبا قديرا مؤثرا، وأديبا له أسلوبه الخاص في جانب ثالث.

جعل الشيخ الندوي رحمه الله صفتين خاصتين من صفاته حرز حياته، أولهما النصح للأمة الإسلامية، وثانيهما التضحية والحرص على تحقيق الأهداف مع القناعة والزهد في الدنيا، إلى جانب كرم طبعه، ودماثة خلقه، وحماسه للعمل، والفهم والفراسة، وعلو الهمة والهدف، من الصفات المميزة، وكانت هذه هي الصفات والمؤهلات التي قام الشيخ الندوي رحمه الله على أساسها بحل عديد من القضايا المصيرية، وترك أثرا عميقا طيبا على المفكرين والمثقفين والقادة والزعماء من شعبه وأمته.

يجدر بالذكر صفتان بارزتان من صفات الشيخ الندوي رحمه الله، أولاهما أنه كان رحب الصدر إلى أبعد حد ممكن، والثانية أنه كان كثير التجنب والتحاشي عن جرح مشاعر الآخرين، وكان يكن في قلبه مكانة عظيمة واحتراما كبيرا لكل من كان يساهم في بناء الأمة ونشر الدين، وكان يعترف لهم بهذه الحسنات، ويجتمع بهم، ويعرب لهم عن احترامه وتقديره، على شريطة أنهم لم يكونوا يقومون بما يتعارض مع القيم الأساسية والمبادئ المعترف بها في الدين والملة، فلم يكن اختلاف المذاهب الفقهية، وتباين المدارس الفكرية، وتنوع مناهج العمل سببا للتباعد والتصادم عند الشيخ الندوي رحمه الله، بشرط أن ذلك لا يؤدي إلى الإضرار بأصل الدين، وإضعاف الأمة، وعلى هذا الأساس والمبدأ كان الشيخ الندوي رحمه الله ينظر إلى دار العلوم بديوبند، ومظاهر العلوم بسهارنفور، ومدرسة الإصلاح بسراي مير، والجامعة السلفية ببنارس، وكذلك إلى جمعية علماء الهند، والجماعة الإسلامية الهندية وغيرها من المؤسسات والمنظمات على أنها تبذل جهودا في سبيل بناء الأمة، والرقي بها، والنصرة للدين، ونشره، ويعرب عن تقديره لها، ويعامل المسئولين عن هذه المنظمات معاملة الإخاء والمواساة، ويتعاون معهم كلما وحسبما دعت الظروف والحاجة.

والصفة الثانية من صفات الشيخ الندوي رحمه الله تمثلت في تجنبه لإيذاء الآخرين، وكانت هذه الصفة قد بلغت من الأهمية والمكانة عنده بدرجة أنه لم يكن يرد على أحد حتى وإن استهزأ به ونال منه، وكان يوجه مساعديه ومحبيه أيضا بأن لا يتخذوا منه موقف الانتقام، ولم يكن حتى يشتكي لمثل هذا الشخص إذا اجتمع به على مثل هذا العمل، بل كان يعامله معاملة طيبة، وشريفة، ولم يكن سبب ذلك أن الشيخ الندوي رحمه الله ما كان يتأذي بالاحتقار والإهانة، إنه كان مرهف الحس، كان يتأذى لمثل هذا العمل والموقف، و لكنه التزم بالتحمل والتسامح طول حياته.

إن إرادة السوء بالآخرين، والانتقام منهم لم يكن من صفات الشيخ الندوي رحمه الله، وكان يتحاشى حتى النقد للآخرين، والقدح فيهم، ولم يكن يذكر سوءا بلا حاجة حتى عمن كان يعتبرهم على خطأ وسوء، مما كان يوحي إلى من كان يخدمه بأن الشيخ الندوي رحمه الله لا يعرف شيئا عن الشخص الفلاني من معارضيه، وهذا يمكن أن يودي به إلى شرك خداعه وغشه، ولكن إذا لفت انتباهه إلى ذلك وجد أنه كان يعرفه معرفة جيدة، غير أنه لا يجهر به، وكان من نتيجة هذا الموقف الذي اتخذه الشيخ الندوي رحمه الله أن عددا ممن كان يبتعدون عنه اقتربوا إليه أخيرا نظرا لما لمسوه من موقف الحب والتسامح من قبل الشيخ الندوي رحمه الله.

من أهم صفات الشيخ الندوي رحمه الله ومزاياه كانت حماسته لخدمة الدين والأمة الإسلامية، والدفاع عنهما، فكان يقف موقفا حازما ممن كان يراه يضر بالدين والأمة الإسلامية، ويهاجم على الحقائق المسلمة من الدين أو حقوقه الأساسية، و ما كان يبالي في ذلك بأحد، أو يخاف فيه لومة لائم، ويمكن أن نرى أمثلة كثيرة في مقالاته وكتاباته المختلفة بكل سهولة، فقد عارض بل رفض نعرة القومية العربية رغم حبه الكثير واحترامه العظيم للعرب، وأنكر على الحكام الأتراك مواقفهم الإلحادية رغم تقديره واحترامه لهم لما لإنجازاتهم السابقة، وبدافع من هذه الحمية الدينية والغيرة الإسلامية استخدم قلمه ولسانه حسب ما دعت الحاجة بأسلوب مؤثر، وطريقة فعالة، وعارض معارضة صريحة علنية محاولات دمج الثقافة الإسلامية في غيرها من الثقافة في الهند، وألقى في هذا الصدد خطبا، وألف كتبا، وأطلق حركة نظرا لأغلبية السكان من غير المسلمين في الهند تدعو إلى أن تتاح الفرصة للجميع لأن يعملوا ويعيشوا على منهجهم وطريقتهم، وأن لا تحاول الأغلبية أن تفرض نظريتها للحياة ورواسبها الدينية والحضارية

على الأقلية، وأن يتعايش الجميع كالجيران الشرفاء.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يهتم بحاجات الأمة الاجتماعية، والتعليمية، والسياسية، ومقتضياتها على قدرها وأهميتها، وكان يقدم دعمه الضروري وتعاونه اللازم للعاملين في سبيل الأمة من غير أن يجعل اختلاف منهج العمل ووجهة النظر بينهم موضوعا للخلاف والصراع، فقد كانت له صلة المشرف بل صلة المسئول بكل من هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين، والمجلس الاستشاري المسلم، ومجلس التعليم الديني، لكنه كان إلى جانب ذلك يقدر تقديرا كاملا للمحاولات الإيجابية والأعمال الحميدة من قبل جمعية علماء الهند، والجامعة الإسلامية وغيرهما من المنظمات والجماعات، كما كان ينظر - غير المدارس الدينية التي كان عميق الصلة بها - إلى الجامعات العصرية مثل جامعة عليجراه الإسلامية، والجامعة الملية الإسلامية بنيو دلهي، وغيرهما من الجامعات والحركات التعليمية نظرة تقدير واحترام، ويقدر أهميتها وضرورتها، وكان يقدم ما أمكنه من المساعدات الأخلاقية والمعنوية في حل مشكلاتها وقضاياها، حيث كان يرى أن التفكير والاهتمام ببقاء الأمة والحفاظ عليها، والمحاولة للرقي بها وتطويرها، فريضة مشتركة بين كافة أبناء الأمة، وكان يعتبر العمل لهذا الغرض بعيدا عن الخلافات الفكرية والحزبية ضرورة، وكان ملتزما بهذه الفكرة، وكان يقدم ما كان في وسعه من تعاون تحقيقا لهذا الغرض، وهذا هو السبب في أن كافة الجماعات الإسلامية كانت تتفق علي رأيه، وتعتبره مستشارا مشتركا رغم اختلافات وجهات نظرها، وآرائها.

إن تعاون الشيخ الندوي رحمه الله ودعمه لمختلف الجماعات والمنظمات والأحزاب لم يكن يعني أنه لا يملك رأيا منفردا ومستقلا، بل كان يتعاون معهم جميعا لمجرد الحفاظ على وحدة كلمة الأمة، وبقائها ورقيها وهو يؤثر فيها مصلحة الأمة على المصالح والأغراض الفردية، وإلا فقد كان له رأي واضح معين في كل قضية من القضايا، وموضوع من الموضوعات، ولم يكن يداهن الاتجاهات الخاطئة والمنحرفة، بل كان يناضلها بأسلوب إيجابي، وهذا واضح وضح النهار في خطبه وكتبه.

لم تكن خدمات الشيخ الندوي رحمه الله في المجالات الدينية والملية تقتصر على شبه القارة الهندية، بل كانت تمتد لتشمل العالم الإسلامي كله، إلى ماليزيا وإندونيسيا في الشرق، وأفغانستان وتركيا، وإيران والدول العربية في الغرب، حتى المنظمات والجمعيات للمسلمين المقيمين في أوروبا وأمريكا هي الأخرى كانت موضوع تفكير الشيخ الندوي

رحمه الله واهتمامه، فكان يحاول أن يقدم من تعاونه ما يراه ضروريا حيثما كان، وكان يجهر بإنكاره ونقده وإصلاحه وتعديله حيث كان يلمس الضعف أو الانحراف، ويقوم بلفت الانتباه إلى الحفاظ على الإسلام الصحيح وعلى مصالح الأمة الحقيقية الصحيحة بجراءة وقوة، وكان يتخذ لعامة الناس أسلوب الخطاب العام، وللحكام أسلوب الاجتماع واللقاء والإفهام والتوضيح، فالنهج الذي اختاره الشيخ الندوي رحمه الله لأداء الأعمال الدينية والعلمية كان ينزل الناس على منازلهم، فكان يتخذ للمخاطب أسلوبا يناسب مكانه ومقامه، ويتكلم معه بما هو أحسن مع الاعتراف بصالح أعماله وجليل خدماته، فكان يبلغه بما يريد بأسلوب قوي وكلمات مؤثرة، وكان أسلوبه أسلوب الشفيق العطوف حتى ولو كان الكلام نقدا صريحا، وبالتالي كان نقده حتى وإن كان صارما صريحا مقبولا لما كان في أسلوبه من عطف ورقة، فاستفاد الشيخ الندوي رحمه الله من الفرص التي حصلت للتحدث مع كبار القادة والزعماء في البلاد، والحكام ورجال السلطات في البلدان الأجنبية في إبلاغ رسالته إليهم، فتكلم معهم مستغنيا عما عندهم مشعرا لهم بأنه لا يستهدف وراء ذلك مصلحة مادية، بل هو من محض النصح وطلب الخير لهم. يمكن الاطلاع على شيء من ذلك في قصة حياته العملية في مسيرة الحياة.

كان عمل الشيخ الندوي رحمه الله هذا عملا استثنائيا، فقد شاهدت بأم عيني مناسبات كان الجمع فيها بين التسامح والنقد أمرا في غاية من الصعوبة غير أنه أدى واجبه فيها بغاية من الحكمة والجرأة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يحاول أن يتأسى بأسوة النبوة على صاحبها الصلاة والسلام في أعماله الاجتماعية والملية، فكان يتكلم مع المخاطب بلسانه وعلى قدر فهمه، وبالتعاطف والملاطفة معه أخذا بعين الاعتبار ما فيه من مرض حقيقي.

إن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي وردت في القرآن الكريم حول نشر وإبلاغ رسالة الحق، وما ورد من تفاصيل من سيرة الرسول ﷺ هي التي كانت تشكل منارة ونبراسا لحياته العملية، كما استفاد الشيخ الندوي رحمه الله من أخبار العلماء والصالحين من أهل الإيمان والعزيمة وأدرك التنوع والاختلاف الذي وجد في أساليب عملهم وطرق دعوتهم، في مختلف الأزمنة والأمكنة، فكان أمامه صمود الإمام أحمد بن حنبل على كلمة الحق، وثباته عليها رغم الشدائد والمحن التي مر بها، واهتمام الإمام الغزالي رحمه الله بإصلاح الباطن وتزكية النفس مع كسب كمال ومكانة في العلم، وتوكيده

على أهمية التطهير الروحي، وقيام الإمام ابن تيمية بتوضيح القيم الدينية الأساسية ونقده وإنكاره على المساوئ والمفاسد المتفشية في المجتمع، ومقاومتها بكتبه ومؤلفاته، وعرض الدين الصحيح بأسلوب ناصع، والكلام الحكيم الذي صدر من لسان الشيخ جلال الدين الرومي بأسلوب الناصح والمربي، وتأكيد الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني على أهمية التوحيد، ومحاولته لإصلاح أحوال الحكام والملوك في وقته بأسلوب غير مباشر، والحياة الروحية والإصلاحية التي عاشها كل من العلماء الصالحين الشيخ نظام الدين الأولياء، والشيخ شرف الدين يحيى المنيري، والشيخ معين الدين الجشتي، وأساليبهم التربوية الحكيمة، وجهود الشيخ العلاّمة الشاه ولي الله الدهلوي في مجال الإصلاح في وقت تفشي الفساد الاجتماعي والتدهور الحضاري والفوضى السياسية، بحكمة وتعقل، والعمل على إصلاح نظام التعليم والتربية ثم قيام الشيخ السيد أحمد الشهيد ورفقائه وخلفائه بالهجرة والجهاد لإصلاح العقيدة والعمل.

وكان أمامه إلى جانب ذلك كله شخصية الشيخ السيد الشاه علم الله الحسني رحمه الله التي كانت شخصية ممتازة بالاستقامة والثبات على السنة والتوحيد، ومعارضة البدع والإنكار عليها.

كان السيد الشاه علم الله الحسني رحمه الله (المتوفى في عام 1096هـ) خليفة الشيخ السيد آدم البنوري خليفة الشيخ مجدد الألف الثاني رحمهم الله، وكان يعتزم الهجرة إلى المدينة المنورة فإذا بشيخه يشير عليه بالإقامة في مكان غير مأهول يسمى بتكيه كلان في راي بريلي، فراح وأقام هناك مسجدا، وعاش على قدر الكفاف، واستمر هو وأولاده في الأعمال التربوية والإصلاحية والتعليمية، ولم يقصر أو يتقاعس إذا مست الحاجة إلى جهاد وتضحية، وفيهم ولدت شخصية أمير المؤمنين السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، وتم هذا العمل التربوي والتعليمي أخيرا على يدي الشيخ الندوي رحمه الله وعلى طاق أوسع. كان الشيخ الندوي رحمه الله ينتمي من جهة والده إلى عمه السيد محمد إسحاق وإليه نفسه من جهة أمه. رحمه الله رحمة واسعة.

استفاد الشيخ الندوي رحمه الله من كل ذلك استفادة كاملة، واسترشد لنواحي حياته العملية المختلفة مما كان لدى هؤلاء الشيوخ والصالحين الكبار، وكان في ذلك كالنحل الذي يمتص من كل زهرة ما يحلو له من خلاصة ليصنع العسل الذي ينفع الآخرين، ولكنه يحمل في جسمه لسعة يستخدمها عندما يستثار أو يهانع، غير أن الشيخ الندوي

رحمه الله كان مختلفا عنه حيث إنه لم يكن ينتقم من أي شخص ما وسعه، وكم مرات وقع في موقف كان يتطلب جوابا صارما إلا أنه آثر الصبر والسكوت.

كان الشيخ الندوي رحمه الله ينشر أفكاره السامية بحكمة وتعقل، كما كان يدرك أخطار الانحراف والضلالة بسرعة، ويبادر إلى استخدام مؤهلاته العلمية والدعوية لإصلاح الحال والتربية والتعليم.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يجعل مصالح الأمة الأساسية والجماعية ووحدتها واجتماعها نصب عينيه بصفة دائمة، وكان يهتم لها اهتماما كبيرا، سواء أكان ذلك في مجال نشر الفكر الصحيح الصائب، أو مقاومة الضلالة والانحراف، أو العمل على توحيد الأمة الإسلامية ورفعتها، أو إعادة الأمة إلى مكانتها الرفيعة التي كانت تحتلها في الماضي، فكان الشيخ الندوي رحمه الله دائم المحاولة والمجاهدة لهذه الأعمال، وعليها كان يصرف قواه العقلية العملية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله دائم التتبع والتمثل للسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام فيما يتعلق بصلة الرحم، وكان يعامل أقربائه مهما بعدت القرابة والصلة بخلق وتعاون، ليكون قد أدى واجب صلة الرحم، فكان إذا خرج من البلاد أو المدينة وبلغه أن هناك أحدا يتصل به بصلة من القرابة كان يذهب إليه بصفة خاصة، ويتحدث إليه حديث لطف وأنس، وكان رحبا في ذلك لدرجة أنه كان لا يقصر حتى في الذهاب إلى من كان له صلة بأبيه ولو صلة صداقة، فكان يتودد إليه ويراعي لتلك الصلة مراعاة كبيرة، ولم يكن يكتفي بذلك بل كان يعامل أولاده أيضا معاملة الحب والاحترام، وكان يصل حتى قريب قريبه رجاء ثواب صلة الرحم، وأما من كان يتصل به بصلة قرابة قريبة كان يعامله معاملة استثنائية، وكان يصبر إذا أحس جفاء أو عدم اعتناء من قبل أحد أقربائه، غير أنه كان يصله إذا سنحت له الفرصة، وكان يتبع فيه الحديث الذي يقول صل من يقطعك، وقد شوهدت مواقف جليلة من هذا النوع في حياة الشيخ الندوي رحمه الله.

إلى جانب قيامه بصلة الرحم كان الشيخ الندوي رحمه الله يعامل جميع الناس معاملة الإكرام والإحسان، وكانت عادته في إكرام المؤمن صفة بارزة في حياة الشيخ الندوي رحمه الله، فكان يعامل حتى خدامه معاملة سواسية وعادلة، وكان يجلسهم إلى جنبه على المائدة في بعض الأحيان أيضا، وكانت قد ربته أمه الصالحة هذه التربية في طفولته، فكانت آثارها ظاهرة وملموسة بهذا الشكل.

وكان يهتم اهتماما كبيرا لاحترام الإنسانية، فكانت قضية بناء الإنسانية تتغلب على جميع أفكاره وآرائه، وعند ما نشأت هناك قضية تعرض فيها السيخ للظلم والاعتداء من قبل طائفة الأغلبية، وبلغه الخبر تألم لذلك تألما شديدا ولم تغمض له عين، فناشد الناس للامتناع عن ذلك وحذرهم من مغبته الوخيمة، وترك ذلك أثرا طيبا على جميع طوائف الناس، ولم تستفحل القضية، بل كان بسبب همه وأخلاقه أن الناس الذين كانوا قد حملوا معهم الأغراض بطريقة غير مناسبة بدؤوا يردونها إلى أصحابها.

كانت حياة الشيخ الندوي رحمه الله حياة بساطة وتواضع، في الملبس وفي المسكن أيضا، فكان لا يختار منها إلا ما كان يطابق الشريعة الإسلامية دون تبجح وتظاهر بالفخامة، ولقد شاهد ذلك حتى أقرب الناس إليه بشكل واضح، وقد ذكره بعض الناس في مقالاتهم وكتاباتهم أيضا، كما أنه لم يكن يسلك مسلكا مختلفا في حياته المنزلية أيضا، فكان بسيطا في الداخل كما كان بسيطا في الخارج، يؤدي الحقوق لأصحابها، ويعامل أهل بيته معاملة تناسب درجة قرابتهم. كان هناك عم للشيخ الندوي رحمه الله، ولم يكن مرفها جدا، وكان يسكن في جزء من بيت الشيخ نفسه، وكان يحتاج إلى من يخدمه لعجزه وشيخوخته، وتوسخ سرواله مرة بسب ضعف طبيعي في صحته، فحمله الشيخ الندوي رحمه بالرغم من مكانته وشهرته في العالم إلى النهر القريب وغسله، ولم يفوض الأمر إلى أحد غيره على أساس أنه عمه وهو المسئول عنه.

وأما أمه وشقيقه الكبير فكان الشيخ الندوي رحمه الله خفض الجناح لهما دائما، واستفاد كثيرا من خلال خدمة والدته، واعتبر شقيقه بمثابة والده بعد وفاته، واستفاد من توجيهاته وتعلياته استفادة كبيرة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يعامل أخواته وشقيقاته معاملة حب وود، وكان يعتبر أخته الكبرى التي كانت أمي بمثابة والدته بعد وفاتها، ويعاملها كما كان يعامل أمه معاملة أنس وشوق، فكان يجلس عندها ويتحدث إليها، وكان ذلك ديدنه أثناء إقامته في راي بريلي. وأما أخته الأخرى وهي أمة الله تسنيم والتي كانت تعرف اللغة العربية أيضا كان قد ضمها الشيخ الندوي رحمه الله إلى بيته بعد فراق زوجها، وهي أيضا كانت تكبره في السن، فظل يعاملها معاملة احترام ومحبة، حتى توفيت رحمها الله رحمة واسعة.

وكذلك كانت له أختان من بنات خالته، وكان زوجاهما قد توفيا، فكان يسكنهما أيضا معه ويعاملهما معاملة احترام وإكرام.

لم يرزق الشيخ الندوي رحمه الله بأولاد، فكان يعامل أولاد أخواته وإخوانه معاملة أولاده، فأشرف على دراستهم وتعليمهم وتربيتهم، وهذا هو السبب الذي أتاح لنا فرصة للسير على طريقة ومسلك اختاره لنا.

كان الشيخ الندوي رحمه الله مواظبا على العبادة والذكر في حياته الشخصية، غير أنه لم يكن يتظاهر بها، أما مواظبته على الصلوات فكانت على مرأى من الناس جميعا، وأما الذكر والعبادات الأخرى فكانت تتم بحيث لا يراها الناس، لكنه كان ملتزما بها ومواظبا عليها، فكان يتلو سورة يسين أكثر من عشر مرات على الأقل كل يوم، ويهدي ثوابه لأعزته وأقربائه المرحومين، وكان لا ينسى فيه نصيبا لمن أحسن إلى الدين والأمة، فكان يسمي في أدعيته من تيسر له من العهد الأول الإسلامي إلى يومنا هذا بكل احترام وحب، وكان يدعو لهم عن ظهر الغيب، فكان يذكر فيه مربيه والمحسنين إليه، الذين تعاونوا معه وأخلصوا له، وكان ذلك عملا لا يتخلف عنه، ويتمه بكل اهتمام وإخلاص، كما كان مواظبا على تلاوة القرآن الكريم فكان يقوم بتلاوة قدر من القرآن الكريم بعد الانتهاء من حاجاته الضرورية بشكل أكيد.

كان الشيخ الندوي رحمه الله بالرغم من التزامه بالأمور الدينية ومواظبته على العبادات والاهتمام بها لم يكن يتظاهر بها من خلال تلقين الآخرين بها مرة بعد أخرى، بل كان موقفه في ذلك موقفا ينجذب إليه الآخرون عن طواعية أنفسهم، فلم يكن يأمرهم أو يؤكد لهم عليها بالقول واللسان في غالب الأحيان، وكان مواظبا على صلاة الليل ربما منذ الطفولة لأنني رأيته يصلي منذ صباي، حيث كنت أسكن بعد ما دخلت في إشرافه في نفس الغرفة التي كان يقيم فيها الشيخ الندوي رحمه الله.

كان الشيخ الندوي رحمه الله غاية في النصح للأمة ونصرة الدين، وكان دائم التفكير في هذا الموضوع، وكان هذا هو الهدف والقصد من وراء مشاركته في كل برنامج يحضره، وفي كل كلمة يقولها وفي سطر يكتبه، ولأجل ذلك فقط كان يجتمع بكبار الشخصيات والحكام والرؤساء في غالب الأحيان، وكان لا يبتغي منفعة ذاتية أو توصية لأحد من أقربائه ليكون عمله هذا خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى، بل كان يعتذر لمن كان يريد أن يعمل له شيئا لإرضائه.

أكرم الشيخ الندوي رحمه الله بأربع جوائز عالمية بعد ما طار صيته وانتشرت شهرته، منها جائزة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية، وجائزة القرآن الكريم في

الإمارات العربية المتحدة، وجائزة حسن بلقيبة في مركز أكسفورد الإسلامي، وجائزة سيرة النبي ﷺ في إسلام آباد، وكانت كل من هذه الجوائز تشتمل على مبلغ كبير من المال، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله وزع كل الأموال على المؤسسات الإسلامية، والشخصيات الصالحة، والمحتاجين و المعدمين، ولعلي لم أكن خاطئا إذا قلت بأنه لم يستخدم منها لذاته ولو فلسا واحدا، بالرغم من أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن مرفها من الناحية المادية، غير أنه ما كان يصرف على حاجاته إلا ما يجيئه من منافع نشر كتبه ومؤلفاته، ولم يكن مبلغا كبيرا.

إن هذه الأعمال التي كان اختارها الشيخ الندوي رحمه الله لنصرة الدين والنصح للأمة الإسلامية كان يؤديها بكل التزام بالمواعيد، فكان قد وزع الأوقات للأعمال، وكان يهتم لاستخدامها الصحيح، كما كان يأمر الآخرين أيضا بالاستعمال الصحيح للوقت.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد اختار لمختلف أعماله مساعدين مختلفين، وكان يستخدم كل واحد منهم في المجال الذي كان هو مؤهلا له، ويطابق تكوينه العقلي والفكري، كما كان للشيخ الندوي رحمه الله مساعدون يشرفون على أعمال ندوة العلماء، والمجلس التعليمي الديني، والمجمع العلمي الإسلامي، ومجلس المشاورة، وهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، وحركة رسالة الإنسانية، وحركة إصلاح المجتمع، وما إلى ذلك من الأقسام والشعب، وكان على رأسهم الشيخ محمد منظور النعماني، الذي كان رفيقا محترما للشيخ الندوي رحمه الله ومستشار مؤتمنا له، وكان يليه الدكتور محمد اشتياق حسين القريشي الذي كان يساعد في مختلف أعماله وأشغاله، كما كان يساعده الشيخ محمد معين الله الندوي في أعمال متعددة أخرى، في الوقت الذي كان يساعده فيه الدكتور عبدالله عباس الندوي في بعض الأعمال، بينما كان يساعده في الأعمال الاجتماعية والملية الشيخ عبد الكريم الباريكه، والبروفيسور أنيس جشتي، والقاضي عبدالحميد الإندوري، كما كان يساعده الشيخ السيد محمد مرتضى المظاهري، والشيخ محمد برهان الدين السنبهلي، ويوجد في زاوية من زوايا نفس هذه القائمة اسم كاتب هذه السطور.

كان من منهج الشيخ الندوي رحمه الله أنه ما كان يدخل أحدا من مساعديه في مجال غيره، فكان يقصر كلا منهم على المجال الذي يحدده الشيخ الندوي رحمه الله في ذهنه، وما كان يراعي في اختيار مساعديه إلا أداءه لنفس الأعمال التي كان يختاره لها،

ومن الظاهر أن لكل شخص مجاله للعمل حسب مؤهلاته وطاقته، وكان الله سبحانه وتعالى قد وهب الشيخ الندوي رحمه الله ملكة خاصة للتعرف على المؤهلات والنزعات العقلية والعملية.

وكان من عادة الشيخ الندوي رحمه الله أن يختار طرقا وأساليب لتطوير مؤهلات الناس وحفز طاقاتهم، فكان يقربهم إليه بهدف تربيتهم وتنمية قواهم، وهكذا كان للشيخ الندوي رحمه الله نصيب كبير في إعداد عدد من النشء الجديد للأعمال الكبار.

كان الشيخ الندوي رحمه الله إلى ذلك كله رحب الصدر ولين الطبيعة، فكان يبذل ما وسعه في الوفاء بحاجات المحتاجين، وكان يلاطفهم ويعاملهم معاملة حسنة إذا لم يقدر على مساعدتهم في بعض الأحيان، وكان يراعي مشاعر الآخرين لدرجة أنه إذا كان قد استعمل أحدا في شيء من أعماله فإنه كان يستمر على استخدامه حتى يعتذر هو بنفسه عن العمل، كما كان يراعي أن لا يسبب أسلوبه حرجا أو أذى للآخرين، فإذا أحس بشيء من ذلك النوع كان يبادر ليتداركه، وإلا فقد حصل أنه اعتذر واستصفح.

وخلاصة القول إن صفة الحلم والصبر كانت جزءا من طبيعة الشيخ الندوي رحمه الله، فكان يعامل الضعاف والصغار معاملة في غاية من الشفقة والرعاية، وقليلا ما كان يحملهم من مسئوليته، ويراعي لضعفهم مراعاة كاملة، فكان يتحمل المشقة بنفسه ويجنبهم منها، وكان يسهر على نفعهم وتطورهم، وهذا الذي أنتج حبا كبيرا له في قلوب صغاره وتلامذته فاستمروا عليه طوال حياتهم. وأما الصغار الذين ليسوا على صلة قرابة به، وكانت لهم علاقة بالشيخ مهما كان سببها فكان الشيخ الندوي رحمه الله يهتم لهم اهتمامه بأقرانه وأصحابه فكان بعض هؤلاء يشعرون بعقدة مضارعته غير أن الشيخ الندوي رحمه الله ما كان يلقي بذلك بالا.

كان الحلم والتغافل فيما يتعلق بأقرانه وكباره خصيصة خاصة لطبيعة الشيخ الندوي رحمه الله، فإذا كان يختلف مع أقرانه أو كباره في أمر من الأمور أو إذا كانوا متشددين معه ومعارضين له فكان الشيخ الندوي رحمه الله يعرض عن مخالفتهم، ويسكت عن الرد عليهم، وكان يعاملهم معاملة تلطف وتعاطف كلما سنحت له فرصة. وكان هذا الموقف للشيخ الندوي رحمه الله يوقع الناس في حيرة شديدة في بعض الأحيان، إذ كان الرد عليهم سهلا وضروريا غير أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن يكتفي بعدم الرد عليهم بنفسه فحسب بل كان ينهى المتصلين به أيضا عن ذلك على أساس أن الله سبحانه

وتعالي سينصرنا إذا كانت معاملتنا صحيحة وحقا، ولا يصيبنا شيء من الضرر إن شاء الله تعالى. فقد حصل مرارا أن مخالفة الناس لم تجب له أي ضرر، وشهد العالم كله أن موقف الشيخ الندوي رحمه الله هو كان الصحيح والغالب.

كانت المساعدة للفقراء والمعدمين صفة طبيعية في شخصه، وكان يقوم بهذه المساعدة في الخفاء في غالب الأحيان، فلم يكن يعرفها إلا أقرب الناس إليه، وكان يهتم في ذلك بصفة خاصة لمساعدة الأرامل واليتامى والمعوقين، ويحدد لهم راتبا شهريا.

أما الكبار سواء أكانوا كبار حلقة الشيخ الندوي رحمه الله أو كانوا كبار حلقتهم هم فإن الشيخ الندوي رحمه الله كان يحترمهم كامل الاحترام، وكان هذا الاحترام ملموسا ومرئيا لجميع الناس، وكان يؤدي أحيانا إلى نوع من الاستغراب من أن الأمر ما كان يتطلب هذا القدر من الاحترام، لكن هذه الصفة كانت من طبيعة الشيخ الندوي رحمه الله، وكان يتبع فيه ما يبلغه من تعليمات وتوجيهات من السنة الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام.

كان الشيخ الندوي رحمه الله في حياته الشخصية رجلا لطوفا، خليقا، متواضعا، سخيا وذا طبيعة متعاطفة، ولذلك كان من يتصل به ويلقاه يحبه ويولع به.

كان الشيخ الندوي رحمه الله جوادا ومضيافا، وكان يراعي في استضافته أن لا يسبب أذى لضيوفه، ولا أن يجرح مشاعرهم، وكان يراعي لذلك حتى في حديثه وكلامه، وكان يختار ما يراه مناسبا من الطرق للتكريم والتوقير.

كان الشيخ الندوي رحمه الله كثيرا التنبه في الإنفاق أن لا يكون بدون ضرورة، وفي غير محلها، فما كان مقترا ولا مبذرا، كان الله سبحانه وتعالى قد حفظه من هذه السيئات.

كان الشيخ الندوي رحمه الله كثير الحيطة في قبول الهدية، وكان يتجنب إشراف النفس، فإذا كان وجد شيئا منه فأدنى ما كان يقوم به هو عدم استعمالها لمنفعته الشخصية.

فإحسان التعامل مع الناس، واحترام الإنسانية، وقضاء حاجات المحتاجين، والاهتمام للمتضررين بالمصائب، ومساعدتهم، والإيثار والتضحية، وخدمة البلاد والأمة بإخلاص وصدق، والعمل على رفعة الإسلام، والمحاولة لها، والإخلاص والنصح هي صفات وخصائص في شخصية الشيخ الندوي رحمه الله والتي زادته شعبية وقبولا على نطاق واسع، فكان ينظر إليه بعين الحب والإعجاب في مختلف فئات وطبقات المجتمع،

وبالتالي فإن العزاء الذي أقيم بعد وفاة الشيخ الندوي رحمه الله على مستوى البلاد وخارجها لم يكن قد حصل في وفاة أي شخص آخر.

أما الدول العربية إلى جانب شبة القارة الهندية فكان ينظر إليه بعين التقدير الإعجاب لدرجة كبيرة، لأن هاتين المنطقتين هما كانت مجالا لكتاباته ومحاضراته وخطبه، وعرفه سكانها أكثر من الآخرين، ولكن الدول الغربية هي الأخرى صدم الناس فيها بفاجعة وفاته، وأعربوا عن أسفهم وحزنهم كل على طريقته.

إن العالم الإنساني حرم بوفاة الشيخ الندوي رحمه الله من مفكر عظيم، وقائد جامع، كانت له تعاطف مع جميع أنحائه وسكانه، وقد تركت وفاته الفاجعة فراغا كبيرا في الأوساط الدينية والدعوية، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيه بأحسن ما يجزي به الصالحين من عباده، ويعوض الله الأمة والبلاد عن هذه الخسارة الفادحة. رحمه الله رحمة واسعة.

إصلاح الباطن وتزكية النفس والإحسان[1]

من أهم الجوانب التي كانت تمتاز بها حياة الشيخ الندوي رحمه الله جانب التصوف والإحسان أيضا، وكان هذا الجانب من حياته العملية موفورا مكتملا ومستوفى، غير أن أعماله البارزة في مجال الإصلاح والرقي بالمسلمين، ونشر محاسن الإسلام ومزاياه في غير المسلمين طغت عليه بظلاله الكثيفة، فلم يكن يطلع عليه كل من هب ودب. لكن الواقع أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن قد تعرف واطلع على هذا الجانب من الحياة فحسب، بل كان قد عايش المجاهدين في هذا الطريق، ودرس الكثير الكثير من الكتابات التي تستصلح القلوب والعقول لمثل هذا العمل.

واستهل الشيخ الندوي رحمه الله هذا الجانب عند ما اطلع على كتاب الإمام الغزالي الرائع «إحياء علوم الدين» وقام بدراسته دراسة متعمقة، وكان قد أتم ذلك في أوائل حياته، فتركت هذه الدراسة إلى جانب التربية التي تمتع بها على يدي أمه الصالحة وشقيقه الأكبر أثرا خاصا على عقليته ونفسيته. كانت والدة الشيخ الندوي رحمه الله ابنة شيخ العائلة ومرشدها الشيخ السيد الشاه ضياء النبي رحمه الله وكانت قد حملت من أبيها الصلاح والتقوى أكثر من غيرها، فلذلك كانت تهتم اهتماما خاصا بأحوال الشيخ الندوي رحمه الله واتجاهاته وميوله منذ نعومة أظفاره. فحاولت الوالدة رحمه الله دائما أن توجهها وجهة صحيحة، فكلما رأت الشيخ الندوي رحمه الله ينجر مع أقرانه من العائلة إلى اتجاهات وميول دنيوية كانت تحده وتمنعه منها فورا، وكانت تحكي له دائما أمثلة ونماذج عملية لشيوخ الوقت ورجال التزكية والإحسان الصالحين، وترغبه في أن يكون مثلهم. وكانت تضرب دائما في هذا الصدد أمثلة من حياة والدها وهو جد الشيخ الندوي رحمه الله من الأم، ومثال رجل صالح آخر من الأسرة نفسها وخليفته الشيخ السيد محمد أمين النصير آبادي رحمهم الله جميعا.

كان جد الشيخ الندوي رحمه الله إلى جانب جده من الأم هو الآخر من الصالحين العظام في عصره، فكانت تحكي له قصصه وأمثلته أيضا، وكانت الأسرة وخاصة الكبار

---

(1) الملف الثاني.

فيها لا تزال تتناقل قصص السيد أحمد بن عرفان الشهيد الخاصة بالتقوى وتزكية الباطن وتضحياته في سبيل رفع راية الدين، وكانت شخصيته شخصية عائلية برزت قبل ما لا يزيد على قرن من الزمن واشتهرت بأعمالها الجسام وخدماتها العظام في سبيل الدين والإسلام، وكانت هذه الأمور كلها تستميل قلب الشيخ الندوي رحمه الله وعقله إلى تزكية الباطن وتطهيره منذ الصغر نفسه. وفي جانب آخر كان شقيق الشيخ الندوي رحمه الله قد شاهد بأم عينه ما كان عليه أبوه من أحوال قلبية وروحية، فحاول أن يسلك بالشيخ الندوي رحمه الله نفس المسلك مستفيدا في ذلك بمشاهداته الشخصية، فكان على ارتباط بشيوخ عصره، وكان مسترشدا من الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمه الله ومستضيفا له أيضا.

ولهذا حاول الشيخ الندوي رحمه الله أن يرتبط ارتباطا روحيا عند الانتهاء من دراسته الرسمية بأحد شيوخ العصر، فاتصل بشيخ شهير في منطقة البنجاب هو الشيخ خليفة غلام محمد الدينبوري رحمه الله، فحوله الأخير بدوره إلى خليفته الشيخ أحمد علي اللاهوري، فاقترح الشيخ أحمد علي اللاهوري على الشيخ الندوي رحمهم الله أن يقيم تزكيةً لباطنه مدة من الزمن في حجرة من المسجد الملكي بعيدا عن الأعزة والأقارب حيث العزلة والوحدة، لا يدخل عليه الراغبون في اللقاء والاجتماع به، وكان هذا المسجد – لكونه بعيدا عن السكان – يتحول إلى مكان موحش وخاصة بالليل، الأمر الذي رآه شيخه ضروريا ولازما لتزكية باطنه، وجعل الشيخ الندوي رحمه الله يجتاز هذا الامتحان الصعب، وأمره بالأوراد والأذكار الخاصة لصلاح الباطن وكماله، وبلغ الشيخ الندوي رحمه الله في فترة وجيزة بذلك كله إلى درجة أن أكرمه شيخه بالخلافة في مجال التزكية والإحسان.

كان الشيخ الندوي رحمه الله في مقتبل شبابه، وهي مرحلة من العمر قلما يتيسر للإنسان فيها أن يحتاط لنفسه ويجنبها من الأمور الدنيوية، لكن الشيخ الندوي رحمه الله كان مفعما بالعزيمة والحالة الروحانية، وكان يقوم بالأذكار والأوراد والعبادات الليلية بكل مواظبة، وحافظ عليها حتى في حياته القادمة التي كان من المقرر أن يختار فيها مهنة التدريس والتعليم، والقيام بمسئولية المنزل والعائلة، وفوق ذلك أنه لم يبق على نفس المواظبة فحسب بل ظل يقيم ارتباطا واتصالا بشيوخ عصره ومرشديه بصفة دائمة، فكان يحاول أن يجتمع ويستفيد من مرشده الشيخ أحمد علي اللاهوري، وغيره من المرشدين

الموجهين من أمثال الشيخ السيد حسين أحمد المدني، والشيخ عبدالقادر الرائبوري، والشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والمحدث العلاّمة محمد زكريا الكاندهلوي رحمهم الله جميعا كما حضر في مجالس الشيخ العلاّمة أشرف علي التهانوي المعروف بحكيم الأمة أيضا، وجعل من عادته أن يحضر في مجالس الشيخ التهانوي كلما قدم إلى مدينة لكناؤ.

ازدادت ارتباطاته هذه للاسترشاد والاستفادة بالشيخ محمد إلياس الكاندهلوي والشيخ عبدالقادر الرائبوري قوة ومتانة بشكل تدريجي، فحاز الشيخ الندوي رحمه الله على ثقتهما بشكل خاص، وبلغ استرشاده من الشيخ الرائبوري مبلغا أهّله ليكون خليفة له في هذا المجال. وظل الشيخ الندوي رحمه الله بالرغم من أنه تشرف بالخلافة من قبل عدد من الصالحين والشيوخ أقرب إلى الشيخ الرائبوري نفسه، وفي سلسلته ظل يبايع ويربي المسترشدين منه، وقد أخذ الشيخ الندوي رحمه الله البيعة من معظم المسترشدين منه في نفس هذه السلسلة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد حصل على إجازة في السلاسل الأربع من التصوف، علاوة على السلسلة العائلية والتي كانت سلسلة السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، ويعبر عنها بالسلسلة المحمدية، كان قد حصل على إجازة في هذه السلسلة أيضا من قبل الشيخ عبدالقادر الرائبوري رحمه الله، وعندما أجاز الشيخ الندوي رحمه الله لعدد من مسترشديه أجاز لهم في هذه السلسلة أيضا.

بالإضافة إلى الارتباط الخاص بالشيخ الرائيبوري رحمه كان الشيخ الندوي رحمه الله دائم الاتصال والارتباط بغيره من العلماء والمرشدين رحمهم الله جميعا على درجة سواء، وكان يواظب على الرحلة إليهم وزيارتهم طلبا للدعاء واللقاء، فكان على اتصال دائم وارتباط قوي بالمربي الكبير والمرشد الجليل الشيخ محمد يعقوب المجددي في بهوبال، وكان عالما كبيرا، وشيخا ذا مرتبة عظيمة في السلسلة المجددية، وكذلك بالمرشد الجليل الشيخ الشاه وصي الله وكان من أجل خلفاء حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمها الله، وكذلك بالشيخ العالم محمد أحمد في البرتابغدي، الذي كان خليفة للشيخ الشاه فضل الرحمن، كما أنه كان على ارتباط بالشيخ العلاّمة عبد الشكور الفاروقي اللكنوي، والحاج عبد الغفور الجودهبوري، وكان آخرهم الشيخ محمد أحمد البرتابغدي. وهكذا حاز الشيخ الندوي رحمه الله على مكانة عظيمة في قلوب هؤلاء الشيوخ الكبار، وبالتالي فإن الاستفادة التي قام بها الشيخ الندوي رحمه الله من هؤلاء لها أهمية كبيرة وتأثير عظيم

في حياته رحمه الله. وربما بهذا التنوع في العلاقات والاستفادة اجتمع للشيخ الندوي رحمه الله ما لم يجتمع لغيره من جوانب متنوعة من الطهر والعلم والربانية تركت آثارها واضحة في أسلوب الشيخ الندوي رحمه الله لتربية من قصده للاسترشاد والإصلاح والاستفادة.

وكان من عادة الشيخ الندوي رحمه الله أن يوجه من كان يقصده للبيعة إلى شيخه ومرشده الشيخ عبد القادر الرائيفوري رحمه الله ما كان حيا، إلا إذا كان هناك من يتحرج في ذلك بسبب من ظروفه وأوضاعه ويصر على البيعة على يديه هو فكان يقبله أحيانا للأهمية وللضرورة، وكان الشيخ الرائفوري رحمه الله أيضا يحول الناس في مثل بعض الأحيان إلى الشيخ الندوي رحمه الله للتربية والاسترشاد.

كان الشيخ الندوي رحمه الله على علاقة وثيقة بالشيخ الرائفوري للاسترشاد الفعلي، غير أنه كان يستشيره أيضا في أهم أعماله وبرامجه، وكان يعتبر ذلك استئذانا من شيخه، فكان يرحل إليه كلما كان يعزم على رحلات خارجية، ويصفها له ويذكر برامجه، ويحوز على تأييده، ولم يكن ينفذ أيا من برامجه إلا بعد الحصول على تأييده وإذنه.

اتفق أن سنحت للشيخ الندوي رحمه الله فرصة لزيارة بيت الله الحرام، وكان رحلة كثيرا ما كان الشيخ الندوي رحمه يشتاق إليها، فرحل إلى شيخه الرائفوري وذكرها له، فلم يوافقه شيخه على الرحلة لما كان في نفسه من مصلحة، فألغى الشيخ الندوي رحمه الله هذه الرحلة، ونظر الشيخ الرائفوري إلى وجه الشيخ الندوي رحمه الله وكان عبارة عن الطاعة الكاملة، فانطبع ذلك في قلب شيخه فدبر له الحج في السنة التالية ليعوضه بما فاته في السنة الماضية، وسافر هو الآخر للحج، واصطحب الشيخ الندوي معه وقال هذا جزاء لما قبلته من أمري عن رضا النفس في السنة الماضية. وبالتالي كان هذا الحج ذا فوائد متنوعة كبيرة، حيث حصلت له الفرص بمناسبة هذا الحج نفسه للسفر إلى السودان ومصر وبلاد الشام، والاطلاع على الحركات والمنظمات، والاجتماع بأبرز العلماء والمحققين والشيوخ فيها وتبادل الآراء والأفكار في كثير من الموضوعات الدينية والدعوية والعلمية بتفصيل وإسهاب. فلم يكن هذا السفر مقتصرا على السفر للحج فقط بل كان فرصة ذهبية نادرة في حياته العملية مما ساعده مساعدة كبيرة في أعماله الدعوية والفكرية القادمة.

وفي هذه الرحلة نفسها تشرف الشيخ الندوي رحمه الله بالدخول في الكعبة المشرفة، وكان معه شيخه الرائفوري ورفقاء سفره وأحباؤه، وكان الشيخ الشيبي الحامل مفاتيح الكعبة المشرفة قد شغف بالشيخ الندوي رحمه الله لدرجة أنه فتح الكعبة شرفها الله مرة ثانية لمن لم يستطع أن يدخلها في المرة الأولى من المتصلين بالشيخ الندوي وأحبائه.

واجتمع الشيخ الندوي خلال رحلته في بلاد الشام بالشيخ الرباني الكبير أحمد الحارون العسل الحجار، فاستأنس الشيخ بالشيخ الندوي رحمه الله، كما أن الشيخ الندوي هو الآخر لمس فيه أنسا وألفة، ووجد عنده خصائص التصوف وتزكية النفس. كان الشيخ أحمد الحارون ذا نفوذ وتأثير كبيرين في دمشق وضواحيها، حيث كان يقصده عامة الناس وخاصتهم للاستفادة من صحبته ورفقته، وكان ينتمي إلى السلسلة الغزالية.

وكان من أهم ما يمتاز به الشيخ الرائبوري رحمه الله أنه كان على إدراك تام ووعي كامل بما كان يمر به المسلمون في العالم الإسلامي في المجالات الاقتصادية والسياسية، وبمتطلبات العز والقوة التي كانوا يحتاجون إليها، والفرص والمجالات التي كانت تتوفر لديهم، ولعل السبب في ذلك أنه كان دائم الاستفسار والاستعلام عن الأحداث والأخبار الجارية داخل البلاد وخارجها وذلك من خلال المسترشدين المحليين، فكان مطلعا عليها وخبيرا بها، ولذلك كان الشيخ الرائبوري ينصح الشيخ الندوي رحمهما الله بما يفتح الله عليه للنصح والإشارة على زعماء البلدان الإسلامية بما يناسب أحوالهم ويطابق أوضاعهم.

كان الشيخ الندوي رحمه الله أشد الناس علاقة وأوثقهم ارتباطا بعد الشيخ الرائبوري بالمحدث الكبير الشيخ محمد زكريا رحمه الله، المعروف بشيخ الحديث. وكان الشيخ العلاّمة هو الآخر كثير العناية والحدب عليه، وكان من نتيجة هذه العناية والشفقة أنه طلب من الشيخ الندوي رحمه الله أن يقدم لكل أعماله العربية ولجميع الكتب التي قام بتحقيقها ودراستها. ويمكن كذلك أن نلمس ما كان يعير الشيخ العلاّمة الشيخ الندوي رحمه الله من عناية بالغة وشفقة شديدة من خلال الرسالة التي بعث بها الشيخ العلاّمة للشيخ الندوي رحمه الله من المدينة المنورة في 22 جمادى الأولى عام 1393هـ حيث جاء فيها:

«لم أقصر في دعائي لك لا في مكة المكرمة ولا في المدينة المباركة، ولا أتذكر كذلك أني تخلفت عن الصلاة والتسليم على النبي ﷺ نيابة عنك. ومما لا يمكنك أيضا أن تنكر

أن الألفة القلبية التي ألمسها بيني وبينك لم تكن أبدا موجودة بيني وبين أي شخص آخر».

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد استوعب الطرق المختلفة المفيدة للإصلاح والإرشاد والتوجيه والتربية وذلك لارتباطاته واتصالاته بكبار المرشدين والمشايخ في عصره، وكان يستفيد منها في تربية المسترشدين منه والقاصدين إليه، فكان الشيخ الندوي رحمه الله يستخدم من المسترشدين من كان من بيئة الإصلاح والتربية وكان الشيخ يتوسم فيهم الميل إلى مثل هذه الأعمال، يستخدمهم في أعمال نصرة الدين وإصلاح المجتمع وتربية الأجيال، فقد أجاز عددا من المسترشدين منه، فهناك شخصيات عديدة ممن أجازهم الشيخ في البلاد الأجنبية، كما يوجدون في المناطق المختلفة داخل البلاد حيث شعر الشيخ الندوي بأن إجازتهم بالطريقة سوف تخدم مصلحة نصرة الدين وتربية الأخلاق، وقد بلغ منهم من بلغ مكانة عظيمة، واكتسب أهمية ونفوذا كبيرين[1].

إن الطريقة التي اختارها الشيخ الندوي رحمه الله للإرشاد والتربية والتوجيه الباطني كانت أقرب إلى السنة، فلم يكن يركز على الأعمال المخصوصة والعادات المتبعة في التصوف بشكل كبير، مثلما كان يؤكد على الالتزام بإخلاص العمل، ونصرة الدين، واتباع السنة النبوية الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام في القول والعمل، ولم يكن يأمر العاملين في نشر العلوم الدينية ونصرة الدين إلا بالأعمال التي تراعى فيها ظروفهم وأوضاعهم العملية، ويتجنب الأمر بالأعمال والأوراد التي تضغط على الأعصاب، وكان يعير الأهمية القصوى والأولوية الكبيرة لتلاوة القرآن الكريم، والالتزام بالأذكار المنقولة في السنة النبوية الشريفة. وكان يلتزم عند المبايعة باستخدام نفس كلمات البيعة وصيغها التي وردت في الأحاديث النبوية، و في القرآن الكريم بمناسبة بيعة النساء، وكان ينصح المبايعين على يدينه بالتوقف عند رضا الله سبحانه وتعالى، والإيمان بقدرته وقدره، والتوجه إليه في كل صغيرة وكبيرة من حاجاتهم في الحياة.

وكان من أعمال الشيخ الندوي رحمه الله نفسه أنه كان يلتزم بتلاوة القرآن الكريم ويركز عليها أكثر إلى جانب الأذكار والأوراد الثابتة بالسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، فكان يتلو ويقرأ سورة يسين مرة بعد أخرى ويدعو بوسيلتها للمحسنين إليه

(1) يجدر بالذكر منهم على وجه الخصوص الشيخ العلّامة عبد الرشيد النعماني رحمه الله رحمة واسعة.

في المجالات العلمية والدعوية، وكان يشمل بدعواته إلى جانب أساتذته وكبار شيوخه من كان يخلص له الوفاء ويكن الحب والولاء. وكان ديدنه هذا من الأمور التي لم يكن يتخلف عنها أبدا، وكذلك لم يكن ينسى أحدا من الأشخاص الذين كان يدعو لهم وكان فيهم جميع المحسنين إليه والمتصلين به، والطالبين لدعائه، إلى جانب تلك الشخصيات و الجماعات التي تعمل لترسيخ الدين وإعلاء كلمته، وتعمل في مجال نشر العلوم والمعارف الإسلامية، وكان ذلك مما لم يكن يطلع عليه إلا المقربون إليه، وكان يتم بكل صمت واستمرار.

كان الشيخ الندوي يواظب كذلك على قراءة السور والآيات المعينة من القرآن الكريم وقاية ورقية من الشرور والفتن، والأمراض والآلام أيضا، وكان يواظب – علاوة على ما مضى – على تلاوة سورة الكهف التي كان تعود عليها منذ نعومة أظفاره في أيام الجمعة.

كانت كلمة التوحيد على رأس الأذكار والأوراد التي كان يأمر بها المسترشدين منه، وكما أن الطريقة التي كان يتبعها لأدائها كانت لخليقة بأن ترسخها في القلب وتوجد بينها وبين القلب ألفة وأنسا.

إن الصفات التي كان أخذها الشيخ الندوي رحمه الله من مرشديه نفسه كانت على رأسها صفة التواضع وإكرام المسلمين، ونصرة الدين، والتفكير والاهتمام بإصلاح الأمة ورقيها، والبحث عن الطريقة لنشر العلم الديني التي تكفل إطلاع طلاب العلوم الدينية على مقتضيات عصرهم وفتنه وشروره، وتضمن تأهيلهم على المستوى العالي لمواجهة تلك التحديات والقضايا المعاصرة، والعمل على الارتقاء بالأمة الإسلامية من جميع النواحي. وكان يستخدم فكره وعمله وأسلوبه هذا في تربية المتصلين به والمسترشدين منه وكان في ضوئه يرشدهم ويوجههم.

والميزة الثانية التي امتاز بها الشيخ الندوي رحمه الله هي ميزة ضبط النفس والحلم، فكان إذا بلغه شيء مما يسيء إلى شخصيته يتبادر إلى التمسك بضبط النفس والسكوت عليه فلم يكن يرد عليه، بل كان يمنع مساعديه أيضا من أن يتورطوا في المناقشة والمدافعة عنه، ولكنه إذا كان يبلغه شيء مما يسيء إلى دينه أو أمته لم يكن يصبر عليه ويرضاه، بل كان يسخر قلمه ولسانه بكل عزم وحكمة في مواجهة تلك الإساءة والهجوم ولم يكن يتغافل عنها ولو للحظة واحدة.

والميزة الخاصة الثالثة من المزايا التي امتاز بها الشيخ الندوي رحمه الله هي أنه كان يقدر لكل شخص أيا من كان إذا لمس فيه جانبا مشرقا من الناحية الدينية، وإذا كان الشخص يمتاز بالصفات الدينية كان الشيخ الندوي رحمه الله يكرمه ويجله، ويقدر له كل تقدير. وكان يبالغ في ذلك لدرجة أنه كان يبدو في بعض الأحيان أن الشيخ الندوي رحمه الله يكبر مكانة الشخص الدينية ويوليه الاهتمام أكثر مما يستحقه. والواقع أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن يعمل ذلك لجهله بالحقيقة، بل كان يعتبر ذلك إكراما للمؤمن ويحتسبه، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يكرم ويجل ويولي أهمية أكثر من كان يقدم تضحيات في سبيل الدين والأمة، أو كان يعمل على الرقي بالأمة الإسلامية باهتمام وتألم. وكان يتأذى كثيرا إذا يواجه عكس ما سبق. كان الشيخ الندوي رحمه الله قد رأى العالم الإسلامي واستوعبه ما فيه، وكان كذلك زار البلدان الأوروبية والأمريكية أيضا، وقضى وقتا كثيرا من حياته في مختلف البلدان والدول خدمة لمصلحة الدين والأمة، فكان يتألم كثيرا لما كان يلمسه ويراه من سلوك وموقف من قبل الآخرين تجاه الدين الإسلامي والأمة الإسلامية، فكان دائم القلق والاهتمام بهذا الخصوص، وهو يسخر قلمه ولسانه بكل إخلاص وتفان لنصرة الدين والرقي بالأمة الإسلامية ورفاهيتها، وكان يتحمس ويستعد في بعض الأحيان خدمة لهذه المصلحة حتى للأعمال التي كانت تمس بإبائه وشخصيته، وكان يقول إذا كانت مصلحة الأمة تتطلب حتى التضحية بالشرف والكرامة الشخصية فإن هذه التضحية هي الأخرى ليست بشيء كبير، وقد تجلت هذه الصفات العالية بوضوح، وتركت أمثلة كثيرة في حياة الشيخ الندوي رحمه الله، ولم نذكر منها إلا النذر اليسير بإجمال واختصار.

إن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكتف بالتنديد والإنكار على الاتجاهات الباطلة، ولم يقتصر على الانتقاد للأحداث المضرة بالدين والأمة الإسلامية في الهند وخارجها في وقتها وحينها بل صارح المسئولين ورجال السلطة بما رأى، ونصحهم أيضا، وقد قام بذلك أحيانا في الوضع الذي كان فيه معرضا للخطر والضرر، إلا أن الإخلاص الذي اتصف به الشيخ الندوي رحمه الله بارك له في عمله وقوله، وحماه من كل شر وسوء. كان الشيخ الندوي رحمه الله يشير بكل حكمة وبصيرة ولكن بكل جرأة وصراحة إلى مواضع النقص ونقاط الضعف في المنظمات الإسلامية والحركات الملية، وكان الناس في بعض الأحيان تأخذهم الحيرة الشديدة فيما يتعلق بجرأة الشيخ الندوي رحمه الله وصراحته إذ

كانوا يرون أن الظروف لم تكن تتحمل هذه الجرأة على ما يبدو، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن يبال بذلك كله، وكان كلام الشيخ الندوي رحمه الله مهما صريحا وجريئا مقبولا عند الناس وخفيفا على أسماعهم لما كان يتمتع به الشيخ الندوي رحمه الله من حماسه لإكرام المؤمن، وتقديره لأضعف علاقة بالدين والأمة الإسلامية.

إن الصفات المذكورة من صفات الشيخ الندوي رحمه الله كانت تعتبر عنده من صفات التصوف والسلوك نفسه، حيث إن التصوف هو في الواقع عبارة عن القيام بأداء متطلبات ومقتضيات الإيمان، والتخلق بالخلق الإيماني. وكان الشيخ الندوي رحمه الله يتمثل بالآيات القرآنية التي ذكرت فيها خصائص الفطرة الإيمانية. حيث قال الله تعالى:

قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون..... إلى آخره.

فكان الشيخ الندوي رحمه الله قد وضع نصبه عينيه أن يوجد في الإنسان هذه الصفات الإيمانية تحت عنوان إصلاح المجتمع، فقد كان حذر المسلمين البورميين قبل أن وجدت فيها أوضاع معادية ومناوئة لهم، وهو ينبههم على المفاسد والسيئات التي كانت قد طرأت على حياتهم الإيمانية والأخلاقية، كما حذر المسلمين بنفس الأسلوب في رحلته الأولي في بيروت وبلاد الشام قبل أن تثور فيها انقلابات وثورات، وحذر كذلك في خطبه المؤثرة الآخذة بالقلوب في دبي ودولة الكويت، وكان أكد لهم على حاجتهم إلى الحياة الإيمانية وطلب رضا الله سبحانه وتعالي، واختيار الأعمال والأفعال التي تجلب رحمته وتحمي من غضبه. وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعتبر كل ذلك جزءا من التصوف والإرشاد نفسه، وكان يعلمه المسترشدين منه والمتصلين به، وإلى جانب ذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله يوجه المسترشدين إلى الأعمال والأوراد التي أجازها السلف الصالح المتبع للكتاب والسنة، وهي مطابقة تماما مع تعليمات الكتاب والسنة أيضا وذلك وفقا لمؤهلات وميول المسترشدين والطالبين. وقد نفع الله سبحانه وتعالى نفعا كثيرا في هذه الجوانب التوجيهية والتربوية من خلال الأسلوب الذي اتبعه الشيخ الندوي رحمه الله والذي كان فيه مؤيدا من قبل مرشديه الخواص وكان يطبقه بتوجيه منهم وإرشاد، وإن كان مختلفا ومتعارضا مع الأساليب والطرق الصوفية الرائجة.

إن الشيخ الندوي رحمه الله كان غاية في الاهتمام بأن لا يصيب أحدا بأي أذى أو سوء، فكان يتحمل كل المشاق والصعوبات بنفسه ولكنه كان يجنب الآخرين ويحميهم منها،

وكان المشتاقون للقائه والحريصون على مقابلته، والطالبون منه قضاء بعض الحاجات يتسببون أحيانا فيما يحرجه ويؤذيه، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله كان يتحمله ويصبر عليه، ولم يكن يبدى لهم شيئا مما كان يصيبه، وكان بعض الناس يتخذون موقفا معاديا للشيخ الندوي رحمه الله في بعض الأحيان في حالة عدم حصول مطلوبهم، أو في حالة حدوث سوء التفاهم، وكانوا يقومون بمحاولات التشويه والتشهير، ويقودون حملات مناوئة له أحيانا، لكن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن يرد عليهم، بل لم يكن يستخدم لهم كلمات النقد والشجب حتى في مجالسه الخاصة إذ كان يعتبر ذلك نوعا من الغيبة، وكان شديد الحذر والابتعاد عن الغيبة، وكان يربأ بنفسه عن الفرص والمناسبات التي تعم فيها الغيبة وفحش الكلام، وإن كانت غيبة من أصابه بسوء وأذى. لم يُسمع الشيخ الندوي رحمه الله وهو يذم شخصا أو يسيء إلى أحد حتى في مجالسه الخاصة، إلا إذا كان وجد من شخص موقفا معاديا وهجوميا على الدين والأمة، فكان ينتقده ويرد عليه ولكن بكل تأن واحتياط، حيث لم يكن يتعدى إلى الجوانب التي كانت تتعلق بشخصيته أو ذاته، وكان قد بلغ عمله هذا لدرجة أنه كان بعض الأحيان يعامل معاديه معاداة ظاهرة وسافرة معاملة كريمة، فضلا عن أن يرد عليه أو ينتقم منه، حتى كان أحد من مساعديه ينبهه على أن الشخص الذي هو يكرمه ويعزه كان قد فعل به كذا وكذا من الأمور، فكان يرد عليه بكل بساطة أنا أدري، ولست بغافل عما فعل، ولكن هذه هي طريقتي.

وقد قام بعض الناس بإزعاج الشيخ الندوي رحمه الله وجرح مشاعره جرحا عميقا بمواقفهم المعارضة والمناوئة حتى تألم وتململ، ولكنه اكتفى بالقول بأن الله سبحانه وتعالى هو القاضي بينا ولا نرد عليكم. فكانت النتيجة دائما أن المعادي للشيخ الندوي رحمه الله، أو المسيء به الظن عن سوء فهم منه، كان يفهم حقيقة معاداته وسوء ظنه بعد مدة قصيرة من الزمن، ويعود ليعدل فكره وأسلوبه.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يتصف بصفة الاجتناب والابتعاد عن إصابة أحد بأي سوء أو أذى في جانب، وكان في جانب آخر يحمل عاطفة النصح وطلب الخير للجميع دون أي تمييز، وقد شوهدت عاطفته للنصح والخير هذه مرارا وتكرارا حتى مع معارضيه ومعاديه، وقد مر الشيخ الندوي رحمه الله بظروف وأوضاع عصيبة غير أنه ثابر وصابر واستقام على تحمله وتسامحه، ورحابة صدره وسعة قلبه، واجتنب حتى عن الذم والنقد الكلامي، ومثل أعلى صفات المؤمن في هذا الجانب الإنساني والخلقي.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله ينظر دائما إلى عيوبه ونقائصه الشخصية، بينما كان يتسامح مع الآخرين ويغض النظر عن عيوبهم ونقائصهم، ويبكي في العزلة والوحدة، ويتضرع ويبتهل، ويعترف بقصوره وغفلته، ويستغفر لها، ويبدي حاجته بكل تألم وتضرع ويقول: «رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير». وأحيانا كان يدعو دعوات أخرى، كما كان يعرض ألمه وقلقه على الله سبحانه وتعالى وهو يقول: «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله». وكان كثير الاهتمام بحسن الخاتمة، ويردد: إلهي: ارزقني حسن الخاتمة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يصل أقربائه، ويعاملهم معاملة ود وحب ونصرة وإعانة، عملا بسنة النبي ﷺ في صلة الرحم، وقد رأي في بعض الأحيان وهو يعامل بعض أقربائه الذي كان قد مسه بمكروه خاص معاملة حسنة وسلوك طيب ولم يكن يكتفي بالتسامح وغض النظر عما سبق.

وكل ذلك كان في عين الشيخ الندوي رحمه الله من أعمال التصوف والإحسان الخاصة، كما يظهر رأيه هذا في باب التزكية والإحسان من كتبه ومقالاته، التي دبجها في سيرة مشايخ التصوف والتزكية وأهل الباطن والأخلاق، وفي ذكر أحوالهم وتعليماتهم، وكذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله يشير على المبايعين على يديه والمسترشدين منه بدراسة مواعظ السلف الصالح وأحوالهم وأعمالهم فيما يتعلق بتزكية النفس.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله يقترح في هذا الخصوص بمطالعة كتب ورسائل العلاّمة الشيخ أشرف علي التهانوي المعروف بحكيم الأمة، وكتاب الشيخ المعروف بفضائل الأعمال، ومؤلفاته الشخصية مثل دستور الحياة، وسيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وكتابه في سيرة الشيخ عبدالقادر الرائبوري، بصفة خاصة، كما أنه كان يقترح للناطقين والدارسين باللغة الأردية مطالعة كتاب «زاد سفر» لصاحبته أمة الله تسنيم، ومعارف الحديث للشيخ محمد منظور النعماني في الحديث، وكذلك كان ينصح بقراءة القرآن الكريم مع ترجمة معانيه فهما وعملا.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله إلى جانب ذلك يؤكد أكثر ما يؤكد على تصحيح العقيدة واستقامتها، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى هو وحده القادر على الإحياء والإماتة، والصحة والشفاء، وزرق الأولاد، وإليه يرجع القدر بخيره وشره، وهو المعبود وحده، وكان يلفت الناس بصفة خاصة إلى قول الله عز وجل « ألا له الخلق والأمر».

وكان أكثر ما يؤكد عليه بعد صحة العقيدة المواظبة على الصلاة وهي أهم الفرائض المفروضة على الإنسان المسلم في أوقاتها، بكل اهتمام وعناية حسب السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، وهي فريضة لا تجوز عنها الغفلة ولا يغفر فيها التساهل.

كان يؤكد بصفة خاصة على الاهتمام بتصحيح العقيدة، ويقول بأنه ينبغي الإنسان أن يتدرب على النية في طلب رضا الله سبحانه وتعالى ونيل المثوبة في الآخرة في جميع الأعمال الدينية والدنيوية، كما ينبغي الاهتمام بهذه الأمور في الأخلاق والمعاملات وجميع شئون الحياة لكي ينال الإنسان المثوبة عليها كما يثاب على العبادات المحضة.

كما كان يؤكد على الاهتمام بالعمل بسنن النبي ﷺ، وتطبيق تعاليمه ﷺ في شئون الحياة الدينية والدنيوية، وعلى الاهتمام بكثرة مطالعة السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، ولم يكن يأمر بالأوراد والأعمال الكثيرة، بل كان يكتفي بما يقدر عليه الإنسان بكل سهولة ويسر[1].

(1) يمكن الاطلاع على تعليقات الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الخصوص بتفصل من خلال دراسة كتاب الشيخ « السلاسل الأربع» من مطبوعات أكاديمية السيد أحمد الشهيد، تكية كلان راي بريلي

الباب الثالث

جوانب مختلفة من جهوده وحياته العملية

الدعوة إلى الدين

إن مسئولية الإصلاح والدعوة إلى الدين كانت في الواقع مسئولية تحملها الأنبياء والرسل في سابق الأزمان، وكانت تتم هذه العملية في ضوء الوحي الإلهي الذي تواصل واستمر منذ بداية الخلق إلى أن انتهى بآخر الرسل الأنبياء سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ. كان هذا الوحي الإلهي يتنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة الملائكة، فكانوا يقومون في ضوئه بأداء مسئولياتهم في الدعوة والإرشاد. ولما انقطعت سلسلة الوحي الإلهي حفظ الوحي الأخير الذي نزل على نبينا ﷺ في صيغة القرآن الكريم، إلى جانب الوحي الذي لم يشمل في القرآن الكريم، نظاما ونبراسا للإنسان إلى أن تقوم الساعة، لتقوم أمة النبي الأخير ﷺ في ضوئه بعملية الدعوة والإرشاد، وتقوم كذلك في هذا المجال بأداء مسئولية على غرار ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فظل من تعلم من هذه الأمة الإسلامية علوم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام يقوم بأداء هذه المسئولية، مستقيا ومستنبطا الطرق المختلفة من القرآن الكريم والسيرة الطيبة على صاحبها الصلاة والسلام لأداء هذه المسئولية.

إن أسرة الشيخ الندوي رحمه الله أسرة أنجبت الكثير من الدعاة والعاملين الكبار في مجال الدعوة إلى الدين الإسلامي ونشر رسالته السماوية السمحة، فانتهت تقاليدهم إليه عن طريق سلف الأسرة الصالحين، وزاد الشيخ الندوي رحمه الله إلى ذلك بدراساته الموسعة لتاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، وسيرة علماء الصوفية والمبلغين والمصلحين وأحوالهم وأخبارهم، كما أنه درس أحوال حركة الدعوة والإصلاح والجهاد التي قاد ها السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله عند ما قام بتأليف كتاب في سيرة حياته ودعوته. ولما ظهر الكتاب واطلع عليه القراء وجد فيه أهل العلم والمعرفة ممن كان يحمل نفس الفكر والرسالة نبراسا ودرسا وأمثلة عملية لأعمالهم ومسيرتهم الدعوية في سيرة الإمام

أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، فقال الشيخ محمد منظور النعماني وهو من العلماء الراسخين في العلوم الدينية والدعاة العاملين بكل جهد واهتمام قال للشيخ الندوي رحمه الله في أحد لقاءاته «ألفت الكتاب وما ذا بعد؟ هل لديك مشروع مستقبلي؟» ثم اتفق الاثنان على أن تتم زيارة المراكز والمنظمات العاملة في هذا المجال في الهند وأن يتم الاطلاع عليها، فقام الشيخان رحمهما الله سبحانه وتعالى بالرحلة إلى الأمكنة التي توجد فيها مثل هذه المراكز والمنظمات والحركات، وتتم فيها الأعمال من هذا النوع، فزارا المراكز المختلفة للتربية الدينية والدعوية في مختلف أنحاء البلاد، منها مدينة دهلي حيث كان الشيخ محمد إلياس رحمه الله يقوم بتنظيم وقيادة جماعة الدعوة والتبليغ، وسافرا إلى سهارنفور ورائبور حيث التقيا بالشيخ المحدث محمد زكريا رحمه الله، والشيخ عبد القادر الرائبوري رحمه الله، ثم تقدما فراحا إلى مدينة لاهور حيث اجتمعا بالشيخ أحمد علي اللاهوري رحمه الله أيضا، كما اجتماعا في مدينة البنجاب نفسها بشخصية كانت تحمل فكرا إسلاميا وأسلوبا دعويا فريدا وهي شخصية الشيخ الداعية المودودي رحمه الله، الذي كانت مقالاته وكتاباته تنير قلوب وعقول المثقفين وطبقة المثقفين بالثقافة الجديدة بخصائص الفكر الإسلامي ومزاياه، فأحسا بأهمية هذا المنهج الخاص ونفعه في الناس، ولكنهما لم يكتفيا بهذا بل استمرا في محاولاتهما للاطلاع على أعمال الشخصيات الأخرى وإنجازاتهم في المجال العملي للدعوة الإسلامية، وركزا بصفة خاصة على معرفة طريقة الدعوة والإصلاح التي كان يتبعها الشيخ محمد إلياس رحمه الله، ووجداها أكثر نفعا وإفادة، وتأثرا بها تأثرا خاصا، فبدءا يسخران مؤهلاتهما لنشر هذه الدعوة والإصلاح على طريقته.

كان الشيخ المودودي رحمه الله نفسه عند ما اطلع على طريقة الشيخ محمد إلياس رحمه الله في الدعوة والإصلاح صدق واقتنع بنفعها وإفادتها غير أنه استمر في طريقته الخاصة وقصر فيها أعماله، إلا أن الشيخ الندوي رحمه الله ومعه الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله آثرا هذه الطريقة للدعوة والإصلاح على الطرق الأخرى وشاركا في هذه الأعمال مشاركة فعلية، وحاولا أن يخلصا لهذه الأعمال الدعوية، وإلى جانب ذلك قام بإقامة علاقات واتصالات مع أهل الدعوة والإرشاد والآخرين الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال متبعين فيها السنة النبوية الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام، كما أنهما اهتما بدراسة واستيعاب الأعمال والطرق والأساليب التي اتبعها الشخصيات الكبرى

في مجال التربية والدعوة والإصلاح في الهند والاستفادة منها.

أما الشيخ الندوي رحمه الله فامتاز بمحاولته لتطبيق وتمثيل ما اطلع عليه من طرق وأساليب مختلفة من خلال الدراسة والمشاهدة وما شعر بأهميتها ونفعيتها على المستوى الفعلي والكتابي والشخصي والجماعي في أسلوبه الدعوي والعملي، وبناء على ذلك رأى من المناسب تقسيم أعمال الدعوة إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول للعمل في عامة المسلمين، والقسم الثاني للعمل في المثقفين الثقافة العصرية الحديثة، والقسم الثالث للعمل في رجال السلطة والحكم. شعر الشيخ الندوي رحمه الله بأن العاملين في مجال الدعوة قد انحصروا بشكل عام في حلقاتهم ومجالاتهم، وكل يعمل في المجال الذي اختاره لنفسه.

والواقع أن هناك حاجة أكيدة إلى العمل في جميع الأقسام الثلاثة. إن العلماء الكرام والصوفية العظام يقومون بصرف عنايتهم وتركيزهم على عامة المسلمين، وقد صرف المثقفون المسلمون بالثقافة العصرية الذين يحملون قلوبا متألمة، وعقولا واعية إلى جانب الحماس والعاطفة للإصلاح الديني في المجتمع المسلم عنايتهم واهتماماتهم في مجال التثقف بالثقافة العصرية، بينما اختار العاملون القائمون بإحداث الإصلاح في رجال السلطة والحكم الطرق السياسية المتداولة مما يؤدي إلى حصر عنايتهم في دائرة التأييد لهم والإنكار عليهم فقط.

إن طريقة علماء السلف والصوفية للدعوة والإصلاح هي التي رآها الشيخ الندوي رحمه الله مناسبة وملائمة للعمل في عامة المسلمين، وهي التي اختارها في مجال عمله، فقام في هذا الخصوص باتباع طريقة الدعوة والتبليغ التي كان بدأ بها الشيخ محمد إلياس رحمه الله، وطريقة أهل الإرشاد والتربية الروحية المتمثلة بالصحبة والرفقة، واهتم بأن يتمثل بهم في هذا المجال، وأما فيما كان يتعلق بالمخاطبين من الطبقة المثقفة ثقافة عصرية فإنه خاطبهم باللسان والكلام حسبما يوافق طبائعهم وأمزجتهم، كما اختار فيهم الأسلوب الكلامي بالإضافة إلى قدر يسير من المقدرة والبلاغة البيانية واللسانية، وأما أصحاب السلطة والأمر فاختار لهم أسلوب الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني الذي آثر لهم طريقة الدعوة السرية من خلال المراسلة والمواعظ المخلصة والارتباطات الودية ومن خلال التوضيح والتوجيه والإرشاد، ولم يلجأ إلى الأسلوب الرائج بالمتمثل إما بالتأييد المطلق أو الرفض دون هوادة. فكان الشيخ الندوي رحمه الله في طريقته الجامعة المتنوعة هذه يستنير في جانب بأعمال السلف الصالحين رحمهم الله، من أمثال الإمام حسن

البصري والعلامة ابن الجوزية والشيخ عبدالقادر وغيرهم للعمل في عامة المسلمين، وفي جانب آخر بأعمال الإمام الغزالي والعلامة ابن تيمية والعلامة ابن القيم والشاه ولي الله رحمهم الله للعمل في أهل العلم والخواص، وبأعمال الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني و على طريقة من سبقه من علماء السلسلة النقشبندية مثل الشيخ الخواجه عبيدالله الأحرار وأمثاله من العلماء والمشايخ للعمل بين أهل السلطة والحكم.

وكان الأسلوب الدعوي الذي اختاره الشيخ الندوي رحمه الله يمتاز بأنه استفاد من دراسته الموسعة للقرآن الكريم وتفاسيره المختلفة المتنوعة فاختار من أساليب الدعوة ما تضمن أمثلته القرآن الكريم، وما حث عليه من طرق الدعوة وأساليبها المتصفة بالحكمة والموعظة الحسنة في مختلف المواضع والظروف، ويمكن الاطلاع على نماذجها العملية في الأعمال الدعوية التي أنجزها الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، فحاول الشيخ الندوي رحمه الله أن يتفهم ويستوعب هذه الطرق ولأساليب الدعوية القرآنية، وبالتالي يوجد في خطب الشيخ الندوي رحمه الله وكتاباته الاستشهاد بالآيات القرآنية ومعانيها مما يساعد على فهم طريقة دعوته وإصلاحه بحيث إنه استنار واستفاد أكثر من أي شيء آخر بالطريقة الدعوية التي ذكرها القرآن الكريم، مثل (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن) و(لا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

وقد شوهد الشيخ الندوي رحمه الله يذكر هذا الأسلوب الدعوي في خطبه ومحاضراته مرارا وتكرارا، فكان يوضح ويشرح هذه الطريقة الدعوية متمثلا بحوار موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون عصره، وبحوار يوسف عليه الصلاة والسلام مع الذي ذكر له حلمه، و بالأمثلة الأخرى من هذا النوع، واختار لنفسه أيضا طريقة المراسلة والمكاتبة على نفس هذا المنهج للعمل بين أهل السلطة والحكم، وطريقة الموعظة الحسنة والإرشاد والتوجيه على طريقة السلف الصالح للعمل بين عامة الناس، بينما اختار الأسلوب العلمي والفكري للعمل بين المثقفين، وحاول محاولة جادة لإحداث تغيير فكري وعقلي من خلال معرفته ودراسته للنظريات والأفكار المعاصرة. وزاد الشيخ الندوي رحمه الله إلى ذلك – نظرا لإقامته في بلد معظم سكانه من غير المسلمين، وكذلك

معظم رجال الحكم والسلطة ينتمون إلى نفس الطبقة- وهي الأخرى تحتاج إلى أن تتم فيها الأعمال الدعوية والإصلاحية- فاختار نظرا لذلك كله طريقة دعوية يراعي فيها عقولهم وأفكارهم ومؤهلاتهم العلمية والفكرية، والتي لم تكن مقصورة عليهم فيما يبدو، لئلا ينفروا ظنا منهم أن الشيخ الندوي رحمه الله يريد فرض فكره ودعوته عليهم، ولكي يستعدوا لسماع كلامه ومحاضراته بقلوب مفتوحة وصدور رحبة، فكان الشيخ الندوي رحمه الله يقوم في مثل هذه الفرص والمواضع بذكر المساوئ المتشفية بين الجميع، وكانت من صميم الحياة الإنسانية العامة، واختار الشيخ الندوي رحمه الله لعمله هذا عنوان رسالة الإنسانية، وكان يذكر فيها محاسن الإسلام بطريقة غير مباشرة، ويورد أمثلة من حياة الشيخ معين الدين الجشتي رحمه الله، وطريقته وكذلك أعمال الشيخين العظيمين من نفس الطريقة وهما الشيخ الخواجه فريد الدين كنج شكر، والخواجه نظام الدين الأولياء، وقد أنجز هذا العمل بأسلوب حسن، وظهرت له نتائج مرضية وطيبة.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله يميز بين أهل الثقافة الحديثة والعلم المعاصر وغيرهم من أهل الثقافة الدينية بحيث تكون أفكارهم ومناهج تفكيرهم متباينة ومختلفة، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يجيد مراعاة هذا الاختلاف والتباين في محاضراته وخطبه، فكانت خطبه ومحاضراته تتباين وتتمايز مراعاة لهذا الاختلاف، ولم يكن الشيخ الندوي رحمه الله يجد أية صعوبة في الاهتمام بهذا الاختلاف والتمييز، فقد كان تعلم القرآن الكريم وتفاسيره والحديث والنبوي وشروحه واطلع على مراجع العلوم الدينية الأخرى ومصادرها على أيدي المهرة البارعين في هذا الفن في عصره، بينما كان استوعب الأوضاع والظروف الاجتماعية الطبيعية في عصره من خلال دراساته ومطالعاته لكتب المعاصرين والمثقفين المحدثين بأسلوبهم ولسانهم في معظم الأحيان، وكان قادرا على التمييز بين الخير والشر فيها، ومعرفة ما في الثقافة العصرية ونظمها من محاسن ومساوئ، وقد اختار الشيخ الندوي رحمه الله نفس هذه الطريقة في كتابه الرائع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، فكان الشيخ الندوي رحمه الله يراعي في كلامه مستوى المخاطبين فكريا وعلميا، وكان هذا هو السبب في أن الناس من مختلف المذاهب والأفكار ومن مختلف المستويات الفكرية والعقلية تأثروا برسالة الشيخ الندوي رحمه الله وفكره ومنهجه.

ومن مزايا الشيخ الندوي رحمه الله أنه لم يكن مبهورا لما كان يتمتع به من دراسة موسعة ومتعمقة أمام التقدم العلمي والتقني المنسوب إلى المسيطرين على عليه في العصر

الحديث، ولا كان له الشعور بمركب النقص في هذا الجانب، بل كان راسخا وقويا في إيمانه بغلبة وأفضلية الفكر والنظام الإسلاميين، وكان يحاول دائما أن يوضح وينشر هذه الأفضلية والغلبة من خلال مؤهلاته العلمية والأدبية، بينما كان المفكرون إما منكرين لكل خير في التطورات والتجارب الحديثة أو مفتونين بها، وكانوا مصابين لحد ما بمركب النقص فيما يتعلق بالقيم الدينية أو الشرقية أمام الإنجازات والنجاحات الأوروبية الظاهرة، وأما المنكرون فكان معظمهم ممن لا يعرفون شيئا عن الإنجازات العلمية والتجريبية، ومعرفتهم مقصورة تماما على علومهم وظروفهم الشرقية، وأما المفتونون بها والمصابون بمركب النقص فيما يتعلق بقيمهم وعلومهم فهم ممن كانت معرفتهم بالإنجازات العلمية والعرفية في أوروبا معرفة سريعة ضحلة، بينما كان الشيخ الندوي رحمه الله بعيدا عن كلتا النقيصتين، وهذه هي دعوة ندوة العلماء، وإليها كان الشيخ الندوي رحمه الله يدعو الناس جميعا، بحيث إنه لا يمكن تكوين رأي متزن في أي موضوع من الموضوعات إلا بعد المعرفة به معرفة جيدة، وإنه يجب علينا إذا أردنا أن نعرض على الناس جدارة الإسلام لكل عصر ومصر، وقدرته على تقديم أفضل الحلول لمشاكل العصر والحياة الحديثة يجب علينا أن نضطلع أيضا بحقيقة ما عند غيرنا من العلوم والنظريات إلى جانب التعمق والتبحر فيما عندنا من العلوم والمعارف، وإحداث التغيير في المناهج الدراسية تحقيقا لهذا الغرض حاجة ماسة من حاجات العصر. وكان هذا هو الجانب الجامع والشامل من جوانب شخصية الشيخ الندوي رحمه الله الذي أهله ليكون صامدا ومتغلبا من الناحية الفكرية والنظرية أمام كل طبقة من أهل العلم والثقافة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله إلى جانب سعة فكره وقوة استعداده قد نوع دراساته ووسع قراءاته، مما أحدث فيه ميزة كبرى وهي ميزة التسامح العلمي والفكري، فكان يقدر لكل محاولة جادة تبذل بحثا عن الحق وكانت تتصف بالعاطفة النزيهة والبريئة جوانبها الإيجابية والصحيحة، ويتغافل عن جوانبها السلبية بصفة مؤقتة رغم كراهيته لها وتنفره منها، وكان يتوقع ويأمل في صلاحها وصوابها، الأمر الذي جعل بعض حملة الفكر والنظر المتشددين في فكرهم والمتعسفين في رأيهم يرون هذه الميزة من مزايا الشيخ الندوي رحمه الله ميزة مستنكرة، ويعتبرونه على انحراف عن جادة الطريق، وقد شن بعضهم حربا على الشيخ الندوي رحمه الله، وحاولوا تشويه شخصيتهم في عيون الناس لمجرد وهمهم أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يستطع أن يتخذ موقفا يماثل موقفهم في

الشدة والعنف والعصبية، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله كان إلى كمال إيمانه وقوة ثقته بأساسيات الإسلام وأموره اليقينية يميل إلى التوسع والتسامح في المسائل الفرعية والأمور الآلية، وإلى موقف السماحة والخلق الحسن مع جميع الناس مما أكسبه مكانة مشرفة وتقديرا عظيما على اختلاف طبقاته وفئاته في الأمة المسلمة، كما أنه تمتع بمكانة المحبة والاحترام والتشريف والإكرام لدى أكبر المشايخ العلماء والمعترف بهم من أهل الحق والعدالة من الأمة الإسلامية، وقد اعتبره أهل الحق والشخصيات البارزة من الأمة رغم الاختلافات المذهبية والجماعية فيما بينهم مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام والأمة المسلمة في عصره.

لقد حاول الشيخ الندوي رحمه الله أن يبذل جهوده في حياته الدعوية للإصلاح والإرشاد في فئاته الثلاث في عصره وهي فئة عامة المسلمين، وفئة أهل العلم والمثقفين وفئة أهل الحكم والسلطة، وقد أثرت هذه المحاولات والجهود تأثيرا كبيرا في هذه الفئات الثلاث، وحفظت الأمة الإسلامية نتيجة لجهوده ومحاولاته من كثير من المضار والمفاسد، ومنعت التيارات والاتجاهات الباطلة الضالة من الانتشار والتفشي، كما ظهر إلى منصة الوجود جيل يحمل فكرا جامعا واتجاها شاملا في ضوء خطبه ومحاضراته وكتبه ومؤلفاته.

إن الثروة العلمية والفكرية التي خلفها الشيخ الندوي رحمه الله في هذا المجال لا تزال بالاستمرار حتى في غيابه عاملا مساعدا للجيل الجديد على تشكيل عقلية متزنة وصحيحة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله درس في دار العلوم التابعة لندوة العلماء، حيث اطلع – إضافة إلى العلوم الدينية الأساسية منها والفرعية – على التاريخ والمدنية والحضارة والعلوم العصرية، كما أنه استفاد من علماء المراكز الدينية المعروفة للعلوم والمعارف الدينية في الهند، فكان بدأ أعماله الدعوية والدينية في ضوء دراساته المتنوعة آخذا في اعتباره مقتضيات العصر ومتطلباته. و في نفس الزمن تقريبا ظهرت مقالات الشيخ العلاّمة المودودي رحمه الله التي كانت نقدا علميا دقيقا للحضارة الغربية بأسلوب مؤثر قوي، وجمعت فيما بعد في كتابي تنقيحات وتفهيمات. وفي أحد لقاءات الشيخ الندوي رحمه الله مع الشيخ العلاّمة المودودي رحمه الله والذي شاركه فيه الشيخ العالم محمد منظور النعماني رحمه الله بدت لهم فكرة تشكيل جماعة أو مؤسسة تقوم بهذه الأعمال بشكل أكثر تنظيما وانضباطا، وتكسر سحر الحضارة الغربية التي كانت تبهر المثقفين بالثقافة

العصرية، فشكلت الجماعة الإسلامية الهندية، وبدأت أعمالها بإصلاح وتصحيح العقول المتغربة من خلال القلم واللسان، وبما أن الشيخ أبا الأعلى المودودي رحمه الله لم يكن اكتسب التعليم والتربية في المراكز المنضبطة المنظمة مثل هذين الشيخين فوجد الأخيران اختلافا للنظرة والبيان لبعض الحقائق الدينية عما يكون عليه المتعمقون في العلوم الدينية، فانعزلا بعد مدة قصيرة من الزمن عن الجماعة في المجالات الدعوية والفكرية، غير أنهما استمرا بهذا العمل بطريقتهما وحسب فهمهما، إضافة إلى الشعور منهما بأن تقصير أعمال تقوية الدين والإصلاح والإرشاد على طبقات العلم والثقافة لا يجلب الفائدة المطلوبة ولا هو كاف لتحقيق الغرض المنشود، وكان قد ظهر لهما ما كان لطريقة الشيخ محمد إلياس رحمه الله في الدعوة والتوجيه والإرشاد من فائدة عامة، فشاركاه في هذه العملية المباركة، وأصبحا يصرفان إليها شيئا كثيرا من أوقاتهما، فكانا يخرجان في جماعة الدعوة والتبليغ على طريقتها، وكانا يتجولان من مكان لآخر، ويقيمان فيها يوما أو يومين كما قد مر في السطور السابقة.

ازدادت رغبة الشيخ الندوي رحمه الله وانهماكه في هذا العمل بشكل خاص، وذلك في زمن كان الشيخ الندوي رحمه الله يعاني فيه من المرض، ويشتكي باستمرار من الضعف في المعدة، مما كان يقلق الدكتور السيد عبدالعلي رحمه الله الأخ الكبير للشيخ الندوي رحمه الله، والذي كان معجبا بأعمال الشيخ الندوي رحمه الله في كلا المجالين، ومشجعا له على الأعمال الدعوية إلى جانب قلقه الشديد على صحته البدنية فكان يحاول أن يقلل من انهماكه الشديد على ما كان يقتضيه العلاج والحيطة، غير أن هذه الأعمال كانت شغله الشاغل، وتعلقت بقلبه تعلقا شديدا، إلى أن قاله له شقيقة الكبير هل تشتاق إلى الشهادة؟ وكانت هذه الأيام أيام اجتهاد وامتحان للشيخ الندوي رحمه الله رحمة واسعة.

وبما أن الشيخ الندوي رحمه الله كانت له مقدرة عظيمة على اللغة العربية كتابة وتحدثا إلى جانب اللغة الأردية، الأمر الذي كان يميز الشيخ الندوي رحمه الله عن العلماء الآخرين في الدعوة إلى الدين، والعمل الإسلامي، وبهذا سارت وتخطت أعماله الدعوية والدينية حدود القارة الهندية لتصل إلى العالم العربي، ولما سنحت له الزيارة للبلدان العربية فيما بعد كان العالم العربي قد عرفه عن طريق كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، قبل أن تطأ أرضه قدماه، فاستهدف الشيخ الندوي رحمه الله – نتيجة لذلك – في زيارته التأثيرات التي كانت تتركها الأفكار الغربية على عقول الطبقة المثقفة بقلمه

السيال ولسانه البليغ المؤثر، واخذ الشيخ الندوي رحمه الله في البلاد العربية أيضا الطبقات الثلاث مجالا لأعماله الدعوية والإصلاحية، وكان ذلك أمرا غريبا بالنسبة لهم أيضا، فكان يخاطب عامة المسلمين في مساجدهم، والمثقفين منهم في مجالسهم وأكاديمياتهم، والفئة الحاكمة والمسئولين في قصورهم وبرلماناتهم بكتاباته ومقابلاته، وكان يلفت أنظار الجميع وعنايتهم إلى إصلاح الأحوال وتحسين الظروف.

كان الشيخ الندوي رحمه الله خلال هذه النشاطات والأعمال الدعوية على اتصال دائم لا ينقطع بالمشايخ الكبار الذين كان يرتبط بهم فيما يتعلق بتزكية الباطن والإحسان، وبصفة خاصة بالشيخ الشاه عبدالقادر الرائبوري رحمه الله الذي أيده في هذه الأعمال أكبر تأييد، وشجعه عليها أوفر تشجيع. واتصل الشيخ الندوي رحمه الله بعد وفاة الشيخ الرائبوري رحمه الله بالشيخ المحدث الكبير محمد زكريا رحمه الله، وكثيرا ما كان يستشيره في أعماله الدعوية والدينية. وقد ساعده رحمه الله تلامذته ورفقاؤه وتعاونوا معه في تنظيم أعماله الدعوية بعد ما انتشرت وتطورت بشكل كبير.

قام الشيخ الندوي رحمه الله بإنشاء المجمع العلمي الإسلامي في مدينة لكناؤ للعمل بين المثقفين في الهند، مما ساعد على نشر وترويج الكتابات والمؤلفات الدعوية والفكرية للشيخ الندوي وزملائه رحمهم الله جميعا، كما استخدمت الوسائل الإعلامية في إطار عمل ندوة العلماء، فأصدرت المجلات والجرائد باللغة الأردية والعربية. كما أن الشيخ الندوي رحمه الله أشرف – في جانب آخر – على النظام الدراسي البديل للأطفال المسلمين الذين كان يتم إبعادهم عن الدين الإسلامي في المدارس الحكومية في ظل النظام التعليم العلماني، واعتنى بمجلس التعليم الديني أيما اعتناء، وقد أدت هذه المحاولات والجهود إلى ظهور نتائج محمودة.

وإلى جانب ذلك كله، شارك الشيخ الندوي رحمه الله في أعمال الدعوة والتبليغ والإصلاح التي كانت تسير على الطريقة التي كان اختارها الشيخ محمد إلياس رحمه الله مشاركة فعالة متكاملة، وواصل تعزيز أعمال الجماعة ونشرها بشكل مستمر.

وبعد ما توفي الشيخ محمد إلياس رحمه الله واصل الشيخ الندوي رحمه الله التعاون والمشاركة مع الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، ثم الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي في زمن إمارتهما للجماعة، ثم شغلته شواغله الكثيرة عن المشاركة الفعلية، غير أنه كان يحث المتصلين به والمسترشدين منه على هذه الأعمال الدعوية، وكان كثير التكرار والترداد لما

تتمتع به من إيمان ويقين وإخلاص عندما كان مشاركا فعليا في هذه الأعمال الدعوية المباركة.

إضافة إلى ذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله كثير الاهتمام والمواظبة على الدعوات لهذا العمل الدعوي، وكان يحس بازدياد مسئولياته ومضاعفتها بعد وفاة الشيخ إنعام الحسن أمير جماعة الدعوة والتبليغ في الهند، وقد ألقى خطابا في اجتماع هام عقدته جماعة الدعوة والتبليغ - قبل عدة شهور من وفاته - في رحاب دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ في فيما بين 12-14 من شهر يونيو عام 1999م وحضره كبار المسئولين عن الجماعة ورجالها، - وإن كان الشيخ الندوي رحمه الله يجد عسرا وصعوبة في الحديث لما كان قد أصابه من شلل/ فالج - وجعل موضوع حديثه معهم الآية القرآنية الكريمة التي تقول: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا). وكان هذا آخر خطاب ألقاه الشيخ الندوي رحمه الله في اجتماع عام، فكانه كان وصية للمسلمين بأن يعيشوا حيثما كانوا حياة متفردة ممتازة.

قال الشيخ الندوي رحمه الله في خطابه: «إخواني في الله: لا تخرجوا من هذا الاجتماع إلا وقد عقدتم العزم على أنكم ستعيشون الإسلام كله، وتختارون حياة تترك أثرها الطيب على كل من يعيشون فيما حولكم وجواركم، فيقولوا إن المسلمين شعب له شأن عظيم، إنهم يستقيمون ويثبتون حيث يتعثر الناس ويسقطون، لا يمكن لأحد لا للحكومات ولا المؤسسات السياسية ولا للأثرياء والأغنياء ولا للجمال والكمال أن يشتري المسلمين حيث تباع الضمائر والقلوب. فإذا كانت أخلاقنا وسيرتنا اليوم مثل ما قلت لكم، فإن البلاد كلها كانت تقدر للإسلام قدره، وتستعد للاستفادة منه فائدته، وقد حدث نفس هذا الانقلاب، ونفس هذه الثورة حيثما قام المسلمون بإحداث تغيير في سيرهم وأخلاقهم»[1].

(1) وقد نشر هذا الخطاب بعنوان شأن المسلمين العظيم من قبل المجمع العلمي الإسلامي بلكناؤ.

إصلاح المجتمع

كان الشيخ الندوي رحمه الله شخصية ذات أبعاد متعددة، وكل بعد من أبعاد شخصيته كان متمثلا بشكل عملي بارز في حياته الحافلة، فكما أن الشيخ الندوي رحمه الله أدى دورا ممتازا في إطار الحياة الإسلامية، كان يحاول دائما أن يقوم بأعمال جليلة بارزة في إطار الحياة الإنسانية، من خلال القيام بأداء مقتضيات الحياة الاجتماعية على أنواع اختلافها وتباين ألوانها، وقد ترك أثرا واضحا بالفعل على المجتمع الإنساني بما قام به من أعمال إنسانية واجتماعية بارزة في جميع المجالات.

إن الشيخ الندوي رحمه الله جمع في شخصيته من ألوان الجهد وأنواع الجهاد ما إذا توفر لون واحد منها في شخصية أو فرد لكفاه بروزا وامتيازا، فقد كان الشيخ الندوي رحمه الله على دراسة متعمقة في التاريخ الإسلامي، وفي التاريخ الإنساني، وفي تاريخ انحطاط الأمم وارتقائها، وسقوط الشعوب ونهوضها، ولم تكن هذه الدارسة مقصورة على التاريخ السياسي للأمم والشعوب، بل كانت تشمل تاريخها الفكري والثقافي، والديني والدعوي كله، وفي ضوء هذه الدراسة الشاملة المتعددة الجوانب درس الشيخ الندوي رحمه الله أوضاع بلاده المتعددة الأديان والمذاهب الفكرية، وأوضاع أقليتها الإسلامية العظيمة ومتطلباتها، وسخر نفسه بصفته مسلما متألما يشعر بمسئوليته طبقا للتعاليم الإسلامية عن تحسين الأوضاع والتوجيه والترشيد إلى الحق، سخر نفسه لتحسين أوضاع البلاد وأحوالها اعتمادا على ما وهبه الله سبحانه وتعالى من قوى فكرية وعملية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله ولد بفضل من الله وكرمه عليه في أسرة وبيئة زادته إحساسا وشعورا بهذه المسئولية، وساعدته على تعلم سليقة جيدة لاستخدام قلمه ولسانه بأسلوب مؤثر ومفيد لتحقيق هذا الغرض، فاستفاد الشيخ الندوي رحمه الله مما توفر له من جو علمي وأسري، فاختار في عمله طريق الحكمة التي أكد عليها القرآن الكريم إحدى آياته حيث قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن). حاول الشيخ الندوي رحمه الله وهو يتخذ هذه الآية الكريمة منهجا لتحقيق هذا الغرض في جميع جوانب الحياة، من جوانب التعليم، والتربية، والدعوة والإرشاد، وإصلاح الأخلاق، والحفاظ على الشريعة الإسلامية، وتزكية الباطن، والتحقيق والتصنيف، وتوضيح الفكر الإسلامي، وتبليغ رسالة الإنسانية، وإصلاح البلاد والملة الإسلامية، وكان الجانب الأخير من هذه الجوانب وهو جانب تبليغ رسالة

الإنسانية وإصلاح البلاد والملة هو جانب يتسم بشيء من الخطورة والحساسية، إذ هو بينما يتعلق بنظام البلاد والملة من جهة فإنه يتعلق كذلك بمصالح العامة وأبناء الوطن و مقتضيات أمنهم وسلامتهم، وهو الأمر الذي ينهض له بشكل عام الرجال الذين يحملون فكرا سياسيا أو حزبيا بأسلوب مناهض أو حركي، مما يحوله إلى نوع من المجادلة والمساجلة، حاول الشيخ الندوي رحمه الله أن يربأ بنفسه عن أسلوب المناهضة والتصادم، وأن يقدم نفسه كإنسان غير سياسي، و شخص غير حزبي وقائد محايد، فانتهج منهج الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني، واتخذ نفس منهجه تقريبا نبراسا لجهده ودليلا لجهاده في هذا المجال.

رأى الشيخ الندوي رحمه الله هذا المنهج مقتبسا من السنة النبوية نفسها على صاحبها عليه الصلاة والسلام حيث قام الرسول ﷺ بتمثيل أنموذج لانتهاج الخلق الحسن والتحمل والحلم واختيار طريق الحكمة في سبيل المواساة للإنسانية وتوجيها وترشيدها نحو الحق والصواب، وقد ورد في كتب الحديث:---------- عن جابر رضي الله عنه أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه ونمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا قال من يمنعك مني قلت الله ثلاثا ولم يعاقبه وجلس متفق عليه وفي رواية قال جابر كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافني قال لا قال فمن يمنعك مني قال الله وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه قال من يمنعك مني قال الله قال فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال من يمنعك مني فقال كن خير آخذ فقال تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله قال لا ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله.

ولم يجبره على قبول الإسلام ولا عاقبه على ما فعل، وهكذا هناك روايات كثيرة تقول بأن النبي ﷺ دعا كثيرا من الناس إلى الإسلام ولكنه لم يغضب لعدم قبولهم لدعوته ولا لاتخاذ موقف قاس تجاهه، فتأسى الشيخ الندوي رحمه الله بهذه الأسوة النبوية الكريمة، وانتهج منهج الشيخ السرهندي الذي كان جربه الشيخ في نفس هذه البلاد التي كان

الشيخ الندوي رحمه الله يسكن فيها، وكان ذلك عندما قام أكبر وهو إمبراطور مغولي بعد ما انحرف عن جادة الحق بنشر عقائد غير إسلامية ومعتقدات باطلة في مملكته الهندية العظيمة، وبدأ يدعو الناس إلى دين جديد ابتدعه لنفسه، مما عرض مستقبل المسلمين الإسلامي في البلاد لخطر عظيم. فلم ينتهج الشيخ السرهندي منهج التحدي والمبارزة نظرا لعدم ملائمة الظروف، بل اختار طريقة التفهيم والتوضيح، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو في عمله هذا أيضا لم يتوجه إلى ممارسة الضغط على الإمبراطور أكبر وتوجيه الدعوة المباشرة إليه، بل استهدف بها في نفسه كبار وزرائه ورجال بلاطه ومستشاريه، ولفت أنظارهم إلى ضرورة أن يقدموا للملك المشورة الصالحة ويوجهوا عنايته إلى إصلاح ما هو فاسد مراعين في ذلك الظروف والأحوال، وقد كتب في هذا الخصوص إلى وزراء الملك وأصحابه سلسلة من الرسائل تتفجر ألما وشفقة والتي بدأت بدورها تترك أثرا بشكل تدرّيجي، وبدأت آثارها تظهر قبل أن يجيء عهد خلفاء أكبر، فاختلفت اتجاهات الملك المغولي جهانكير عما كان عليها أبوه، وكانت اتجاهات ابنه الملك شاهجهان أحسن مما كان عليه أبوه، إلى أن جاء الملك المغولي السلطان أورنك زيب عالمكير الذي مثل النتيجة الواقعية لما حاول له الشيخ السرهندي، والذي رفع راية العدل والإنصاف، وأعلى كلمة الدين، ومثل نموذجا رائعا للحكم الإسلامي متأسيا بأنموذج حكم الخلفاء الراشدين بعد مضي ألف عام رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وربما كان الشيخ السرهندي رحمه الله يتمثل بما حدث للنبي ﷺ عند ما طلب من أهل الطائف أن يناصروه ويؤازروه فما كان منهم إلا أن اتخذوا منه موقفا عدائيا وقاسيا، وطردوه من مدينة الطائف وأغروا به سفهاء الناس يرشقونه بالحجارة ويصيبونه بالجروح، مما جعله يسرع بالخروج من المدينة، ويجلس وحيدا في مكان منعزل، يلتجئ إلى ربه ويناجيه، فإذا به جبريل يناديه كما جاء في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُدٍ؟ قال: ((لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلالٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمُرهُ بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم على ثم قال: يا

محمدُ إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت: إن شئت اطبقتُ عليهم الأخشبين» فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدالله وحده لا يشرك به شيئاً)) متفق عليه.

فلم ينتقم منهم النبي ﷺ، والواقع أن النبي ﷺ لم يكن جريحا في بدنه فقط بل كان جريحا في قلبه وفي عاطفته أيضا. وقد اختار الشيخ الندوي رحمه الله أيضا نفس المنهج على ما كان يوافقه عهده وبيئته، فقد كتب إلى مختلف الحكام ورجال السلطة داخل البلاد وكذلك في البلدان الإسلامية رسائل نصح وإرشاد، لفت فيها أنظارهم بكل حكمة وتعقل وبكل جرأة وشفقة إلى إصلاح ما انتشر في البلاد من مفاسد ومساوئ، وأما الحكام في داخل البلاد فقد لفت أنظارهم علاوة على إصلاح المفاسد في البلاد إلى الحفاظ على حقوق الأقليات، والحفاظ على الشريعة الإسلامية، فقد قام على عهد السيدة إندرا غاندي رئيسة الوزراء عندما فرضت الطوارئ في البلاد، ولم يكن أحد حينئذ يتجاسر على مخاطبتها بالكلام، ويطالبها بمنع الظلم والعدوان قام الشيخ الندوي رحمه الله بزيارة لها، ولفت عنايتها بكل وقار واستغناء، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة إلى ضرورة ترك الموقف الذي كانت عليه، وكان الوضع خطيرا لدرجة أنه أوصى أقربائه بما أراد قبل أن يذهب إليها مخافة أن لا يعود إليهم، وبالتالي يجب الحذر والمراعاة لبعض الأمور.

ولما خلفها ابنها منصب رئاسة الوزراء السيد راجيف غاندي، وكان يخشى أن يتم التدخل في قضية دينية إسلامية تتعلق بنفقة المطلقة بموجب قرار من المحكمة قام الشيخ الندوي رحمه الله في رفقة زميله في القيادة الشيخ السيد منت الله الرحماني بزيارة رئيس الوزراء مرارا وتكرارا ووضح له نوعية القضية، ولفت عنايته بأسلوب ناصح إلى ضرورة تعديل الإجراء المناهض للشريعة الإسلامية، واتخذ في ذلك المنهج السلمي الذي يسمح به دستور البلاد، ليوضح للحكام ما يريده عامة المسلمين في البلاد، كما حاول أن يوضح لغير المسلمين أيضا حقيقة القضية ليحوز على تأييد منهم لنصرة قضية المسلمين، وتجنب في هذه الحركة الشعبية كل نوع من الاصطدام الطائفي أو المناهضة للحكومة الهندية، مما أدى إلى إقتناع رئيس الوزراء بتبديل القانون من خلال البرلمان، وجعل الناس يقدرون لحكمة الشيخ الندوي رحمه الله قدرها. وقد قام الشيخ الندوي رحمه الله فيما بعد أيضا بكتابة رسائل نصح وتوجيه إلى جميع الحكام بعد تسلمهم مقاليد الحكم، وأجرى معهم لقاءات ومقابلات مما أنتج فوائد كثيرة.

ففي قضية المسجد البابري الشهير حاول السيد في بي سينغ بصفته رئيس الوزراء أن يختار رأي الشيخ الندوي رحمه الله غير أنه رحمه الله سحب مشورته طبقا لرأي رجال الإستراتيجية السياسية، فألغي السيد في بي سينغ مرسومه المؤيد السابق.

وفي عهد الحكم بقيادة بي جي بي في ولاية أترابراديش عندما قامت الحكومة الولائية بفرض قراءة نشيد فانداي ماترام الذي يحفل بالشرك الفاضح على جميع الطلاب والطالبات في المدارس والكتاتيب الحكومية فإن الشيخ الندوي رحمه الله قام بمعارضة هذا الإجراء بكل حكمة وتعقل، وصرح بأسلوب واضح وجلي بأنه إذا أصرت الحكومة، وأكره الطلاب والطالبات من المسلمين على قراءة هذا النشيد الشركي فإنني سوف أضطر لأن أقول للمسلمين بأن يسحبوا أولادهم من المدارس الحكومية، فكان أن أحدثت معارضته هذه تأثيرا كبيرا على الحكومة الولائية، فتم استثناء المسلمين من هذا النشيد، بالإضافة إلى عقوبة الوزير المعني الذي أصدر هذا القرار من عند نفسه، وعزله من منصبه الوزاري.

ولما احتل السيد ديفي غورا منصب رئيس الوزراء بادر إلى لقاء الشيخ الندوي رحمه الله في ندوة العلماء بلكناؤ لما كان يعرفه من نصحه للبلاد وأبنائه، وعظمته ورفعة مكانته في الناس، فأتحفه الشيخ الندوي رحمه الله بخالص مشورته وبالغ نصيحته، وأكد له على ضرورة محاولة تطوير البلاد والرقي بها والقيام بالإنصاف والعدل مع الأقلية المسلمة، فأعرب الأخير عن عزمه وتصميمه على اتخاذ موقف عادل ومنصف مع الأقليات والطبقات المستضعفة في البلاد، كما أبدى للشيخ الندوي رحمه الله عن احترام كبير، وحب عظيم.

ولما خلفه السيد ناراسيمها راء على منصب رئاسة الوزراء في البلاد قام إليه الشيخ الندوي رحمه الله بالمراسلة والمقابلة ولفت عنايته إلى إصلاح أوضاع البلاد الخلقية والاجتماعية، وأكد له أن العمل في هذا المجال أهم بكثير من العمل في المجالات السياسية، الأمر الذي اعترف بأهميته وضرورة العمل عليه السيد رئيس الوزراء أيضا.

وعندما خلفه السيد أتال بيهاري فاجبائي بصفته رئيس الوزراء، وجاء ليزور الشيخ الندوي رحمه الله لعيادته في مرضه، فوجه الشيخ الندوي رحمه الله عنايته أيضا إلى التفكير والاهتمام بما يحتاجه البلاد، مما ترك أثرا كبيرا على نفسه وقلبه، والسبب في ذلك كله أن الشيخ الندوي رحمه الله كان يتبع أسلوبا ناصحا وعاقلا ليعرب عما في نفسه، ولم يكن

يدنس مكانته العلمية والدعوية، وكان دائما يراعي جانب النصح وطلب الخير للإنسانية في كل فرصة ولحظة، ولم يكن يبالي أبدا بمنافعه الشخصية الذاتية حيثما كان الأمر يتعلق بخدمة الأمة الإسلامية والإنسانية، والبلاد، فكان من أثر أسلوبه الناصح هذا وشخصيته الإنسانية أن كان السامع إليه يعتبره محبا ومتعاطفا مخلصا للشعب والبلاد، فكان الجميع يكنون له الاحترام والانطباع الحسن عن شخصيته الفذة. وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد قرر بأنه لا يطلب أي حق أو منفعة لذاته أو لأحد من أفراد أسرته، وكان ملتزما ومتمسكا بقراره هذا أشد تمسك والتزام، كما أنه قرر بأنه لن يشفع أو يوصي بأية منفعة ذاتية أو عائلية، إضافة إلى أنه لا يقوم بأي عمل يكون فيه تحت منة من أحد. وكان موقفه رحمه لله قد يسبب استياء أو سخط بعض أقاربه، إذ كانوا يعتبرون هذا الموقف مبالغة وغلوا في الاحتياط، ولكن الشيخ الندوي رحمه الله لم يبال بذلك، وما رضي لنفسه بأن يكون يقبل منة الحكام ورجال السلطة أيا من كانوا، غير أنه كان دائم الشكر والامتنان لمن كان يقدم له أية مساعدة أو تعاون فيما يتعلق بقضايا الأمة الإسلامية، وظل يذكره بالخير والثناء، وأعلمه بما كان يريد ويرضاه في هذا الخصوص، وقد ذكر بعضهم في قصة حياته بعنوان «في مسيرة الحياة» في معرض الحديث عن حبهم للخير والعمل الإنساني، حيث ذكر قصة كبير الوزراء لولاية أترا براديش سابقا السيد ملايم سينغ يادوف مثالا، يمكن الاطلاع عليه في مسيرة الحياة لما كان الأخير يقفه من موقف طيب، وكان السيد ملايم سينغ يادوف هو الأخير مأخوذا بدور الشيخ الندوي رحمه الله وموقفه، وأصبح يثني على شخصيته العالية النزيهة.

وكذلك ظل الشيخ الندوي رحمه الله يذكر السيد راجيف غاندي رئيس الوزراء الهندي سابقا ودوره في تأييد مشروع قانون الشريعة فيما يتعلق بنفقة المطلقة المسلمة، وخصص له مساحة ممتازة في كتابه في مسيرة الحياة.

إن الشيخ الندوي رحمه الله كان يتمتع بشعبية منقطعة النظير إذ كان يحتشد لسماع خطابه من الجماهير غير المسلمة ما لم يكن يحتشد لأي زعيم أو قائد، وكانت الحكومات المتناوبة أيضا تحس بهذا الثقل، وكانوا يحسبون له حسابا، أيا كان الحزب على سدة الحكم، وكانوا يعرفون له مكانته ووقعه في المجتمع فما كانوا يهملون أو يتجاهلون لكلام الشيخ الندوي رحمه الله. ولما كان حزب بي جي بي في الآونة الأخيرة في الحكم على المستوى الوطني هو الآخر أحس بنفوذ الشيخ الندوي رحمه الله وثقله في المجتمع، وراعى له

ذلك إلى حد ما.

إن بعض زعماء منظمة أر اس اس وهي منظمة كبيرة هندوسية تسعى للحفاظ على مصالح الهندوس في البلاد عندما سمعوا لخطبة الشيخ الندوي رحمه الله تأثروا بها تأثرا كبيرا لدرجة أنهم أعلنوا بأن الحب للوطن والاهتمام به الذي يحمله الشيخ الندوي رحمه الله لا يوجد مثيله لدى أحد من الزعماء مهما ادعوا، وإن كان الشيخ الندوي رحمه الله غيورا على أمته ودينه، ولم يكن يتصالح مع المعارضين للقيم الدينية، بل كان يجنب نفسه حتى مما يعتبر خلاف الأولى فقط، وكان حساسا في هذا الخصوص لدرجة أنه لم يكن يقبل حتى هدية من كل شخص، إلى جانب أنه كان يتخذ له موقف الحياد من الأحزاب السياسية، فكان يثني على أعمالها البناءة، ويربأ بنفسه عن خلافاتها الضيقة، غير أنه كان يرشد ويوجه إذا الأمر يتعلق بالسياسة المشتركة. وظل الشيخ الندوي رحمه الله يقف نفس الموقف من الحكام في العالم الإسلامي أيضا. أما الهند فكان الشيخ الندوي رحمه الله يجعل نصب عينيه دائما ما يحتاج إليه البلاد والشعب والأقلية المسلمة، بينما كان يستهدف في التعامل مع حكام البلاد الإسلامية قضايا الدين والأمة. فقد أوصل رسالته ونصيحته إلى كل من الملك فيصل الشهيد ملك المملكة العربية السعودية، وإلى خلفه الملك خالد، وإلى الملك فهد بن عبدالعزيز، وقبلهم جميعا إلى الملك سعود رحمهم الله جميعا، فلفت الشيخ الندوي رحمه الله أنظارهم جميعا من خلال الرسائل واللقاءات بغاية من الاستغناء والحيطة والترفع إلى ضرورة الحفاظ والحماية للدين الإسلامي، وإلى مقتضيات البلاد بصفتها مركز الإسلام، ونصحهم باتخاذ مواقف تضمن البناء والتطوير والتحسين والعمل على ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية في الوقت الراهن[1]. لم يكن الشيخ الندوي رحمه الله وجه هذه الرسائل إلى المملكة العربية السعودية بصفتها مركز الإسلام فقط، ولكنه وجه نصائحه علاوة على المملكة إلى كل من الملك حسين عاهل المملكة الأردنية الهاشمية، وإلى جده الملك عبدالله والملك حسن عاهل المغرب وإلى رئيس اليمن، وإلى رئيس باكستان، وغيرهم من رؤساء الدول المتعددة وضمن رسائله بما يدعوهم إلى تحسين الظروف في بلدانهم، وإيلاء الرعاية والأهمية للمقتضيات الإسلامية، والحماية والحفاظ عليها. إن الرسائل التي ضمنها الشيخ الندوي رحمه الله نصائحه وتوجيهاته

(1) وقد طبعت هذه الرسائل في كتيب للشيخ الندوي

هذه تبين لمن يقرأها ما كان الشيخ يتمتع به من أسلوب رائق، واستراتيجية ناجعة، وبعد النظر والفهم للقضايا، وروعة الأسلوب. إن الشيخ الندوي رحمه الله كان إلى جانب كونه عالما ضليعا للعلوم الإسلامية منشئا أديبا، وخطيبا مؤثرا، كان يقول كلامه ويكتب كتابه بأسلوب يأسر القلوب والعقول، وكان لا يقبل ممن كان يوجه أو يريد أن يوجه إليه نصائحه أية منفعة مادية وإن كانت تقدم بحجة الهدية، وكان يقول بأن نصائحنا إذن لا تنفع، وإن النصح من واجبنا، ونعتبر التخلي عن النصح شيئا خاطئا.

هذه الإستراتيجية أو هذا الموقف لم يكن الشيخ الندوي رحمه الله يتخذها من الحكام والرؤساء فقط، بل كان يتبناها مع كبار شخصيات البلاد والأمة وزعمائها أيضا.

فقد صرح الشيخ الندوي رحمه الله في خطابه الافتتاحي لمؤتمر السيرة المنعقد في دولة قطر عام 1980م والذي احتشد فيه كبار علماء الإسلام والمثقفين، وأولياء العهد للدول المختلفة بكل وضوح بأن رسالة هذا المؤتمر إن وجدت فهي أن نقوم بالقضاء على التضاد والتناقض المتفشي في مجتمعنا العربي الإسلامي في الوقت الراهن، إننا والحمد لله على ذلك لسنا متورطين في الكفر والشرك، بل مرضنا هو النفاق، إننا نعلن غير ما نعمل، ونعمل غير ما نعلن، إن قولنا يخالف فعلنا، وفعلنا يخالف قولنا، وهذا التناقض قد جعل مجتمعنا يفقد الاعتبار والمصداقية في عيون الآخرين، وهذا هو السبب الذي أفقده الصفة الجاذبة للعالم والتي كانت تجذبهم للإسلام وإلى المجتمع الإسلامي.

علاوة على ذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله يتمتع بدراسة متعمقة للنظريات والأفكار المعاصرة الرائجة في مختلف البلاد والدول، كما هو واضح وبين من كتابه الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، ومن خطبه ومقالاته، ومن لقاءاته وحواراته ومشاهداته التي سجلها في مذكراته السياحية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد اتخذ الخطب العامة هي الأخرى وسيلة لتحقيق هدفه المتمثل بإصلاح الحال، فكان يلقي كلماته بأسلوب مؤثر في الاجتماعات والمؤتمرات، ويوجه عناية الناس إلى ما يقتضيه الوضع والظرف، ويتحفهم بنصائحه حسب الظروف والأحوال، وكان يعقد لهذا الغرض جلسات مختلطة بعنوان رسالة الإنسانية في كبرى مدن البلاد، يخاطب فيها أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة المتباينة، بينما كان يعقد اجتماعات خاصة بعنوان إصلاح المجتمع يخاطب فيها المسلمين وحدهم، ويلفت أنظارهم إلى المفاسد والمساوئ الدينية والاجتماعية المتفشية فيهم.

وكان هذا الجانب من جوانب الشيخ الندوي رحمه الله الفكرية والعملية قد اجتذب العالم الإسلامي والشرقي وكذلك الطبقة المثقفة بما فيهم من الحكام والمسئولين في المناطق الآسيوية إلى الشيخ الندوي رحمه الله، وأطلعهم على شخصيته الفريدة، ولم يكن ذلك مجرد اطلاع على شخصيته فقط، بل اعترفوا له جميعا بالفضل والإخلاص والتجرد، فقد كان الشيخ الندوي رحمه الله عالما من علماء الدين له قلب مخلص، وطبيعة ناصحة، وقيادة حكيمة، إذ كان يحب النصح والخير للجميع، ويعرب عن أفكاره وآرائه بأسلوب ملفت وباعث على النظر والتفكير إلى جانب كونه شيقا ممتعا. كان الشيخ الندوي رحمه الله قادرا على اللغة العربية قدرته على لغة أمه الأردية، فكان يقدر على التعبير عما في نفسه م أراء وأفكار بأسلوب مؤثر آخذ دون كلفة أو تصنع، وكان إلى جانب ذلك قد اكتسب من اللغة الإنجليزية والفارسية أيضا ما كان يكفيه عند الضرورة وقد شاهدته يفعل ذلك مرارا.

استغل الشيخ الندوي رحمه الله معرفته باللغة الفارسية خلال رحلته في إيران التي لغتها الرسمية هي الفارسية، كان الشيخ الندوي رحمه الله خلال هذه الزيارة التي كانت نظمتها رابطة العالم الإسلامي اجتمع بكبار الشخصيات الدينية والقيادات السياسية البارزة، وكان أوضح لهم في معرض الحديث عن حقيقة الدين ووحدة البلاد ضرورة هذا الأمر، وأكد لهم الحقيقة أن نبوة سيدنا محمد ﷺ هي النبوة الأخيرة، ولا يمكن الحصول على الخير والسعادة على جميع أنواعها إلا في ضوء هذه النبوة وبواسطة صاحبها ﷺ.

وكذلك في إحدى رحلاته في أفغانستان قام بلقاء العلماء والوزراء والمثقفين فيها وبين لهم ما يساعد على إيقاظ الأمة ونهضة الإسلام، وقيادة الشعب وعرض عليهم تجارب وخبرات في هذا المجال.

خاطب الشيخ الندوي رحمه الله المثقفين في أوروبا وأمريكا أيضا، وقد أتيحت الفرص لأن يتكلم عما يريد في جامعة أكسفورد، وجامعة لندن، وجامعة كمبردج، والجامعة الأمريكية، وجامعة كولومبيا، وكذلك في الجامعات الأخرى أيضا. فدعا الناس هناك وهو يعرف الحضارة الغربية والديانة المسيحية وقيمها، إلى إصلاح الحال، وأوضح لهم صدق الإسلام وحقه، فقال الشيخ الندوي رحمه الله وهو يلقي خطابه في إحدى جامعات أمريكا بأن الشعوب الأمريكية والأوروبية تعيش حياة يقدم الإسلام لهم فيها حلولا أفضل لمشاكلهم وقضاياهم، لأنه يأمر أتباعه بالجمع بين خيرات الدين

والدنيا، ولكن الذي يبعث على الاستغراب هو أن الديانة التي يعتنقونها هي المسيحية التي تدعو إلى التجرد والرهبانية وترك الدنيا، والتي لا تفي بجميع حاجات الحياة ومقتضياتها اللازمة، وأعجب من ذلك أن الشعوب الغربية رغم اعتناقها هذه المسيحية قد انغمسوا في ملذات الحياة ومغريات الدنيا بشكل كامل، بينما كان المفروض عليهم أن يدرسوا الإسلام الذي لا يمنعهم من الدنيا، ويروا أنه كيف يفي بحاجاته وأغراضه. ألقى الشيخ الندوي رحمه الله خطابا في جامعة برلين في ألمانيا، وذكر لهم المزايا الخاصة الفلسفية في ألمانيا وهو يتحدث عن الفلاسفة الذين برزوا فيها، وعطف عنايتهم إلى اتخاذ منهج صحيح للعمل، وقد نشر أهم خطبه هذه باللغة العربية والأردية في كتيبات، مثل «أحاديث صريحة في أمريكا» (ص 133).

هذه الأسفار التي قام بها الشيخ الندوي رحمه الله إلى أوروبا وأمريكا إنما حصل معظمها خلال الرحلات السنوية التي كان يقوم بها الشيخ الندوي رحمه الله، كل سنة تقريبا لمدة طويلة بصفته عضو المركز الإسلامي في جنيف، وقد كان هذا المركز الإسلامي قد أنشأه المفكر المصري والداعية الإسلامي الكبير الدكتور سعيد رمضان لتعريف الناس الغرب بمزايا الإسلام ومحاسنه.

كانت خطب الشيخ الندوي رحمه الله وكتبه تتسم بأسلوب راق كان يراعي فيه خصائص الشعوب المختلفة وحاجاتها، فكان يشير في خطبه ومقالاته إلى أهم أمراض الشعب الذي كان يخاطبه، فكان عندما يخاطب المسلمين يؤكد على الأمراض الاجتماعية المتفشية فيهم رغم كونهم خير أمة، وكان يؤشر على الوضع الشنيع البغيض الذي يعيشونه في المجتمع، وكان عند ما يخاطب المؤسسات التعليمية يلفت أنظار المسئولين عنها إلى إحداث منهاج دراسي جديد يدمج بين حاجات العصر ومقتضيات الدين، وأما المسلمون الذين استوطنوا أوروبا وأمريكا حاليا فكان يدعوهم بصفة خاصة إلى أن لا يروا إلى البيئة في الدول الغربية رؤيتهم لها في الدول الشرقية، لأن منهج التعليم السائد في الدول الغربية يسير بعيدا عن القيم الإسلامية، فليأخذوا حذرهم فيما يتعلق بما يحدثه التعليم الغربي من ضرر في الأجيال القادمة، وإلا فإن هذه الأجيال القادمة ستكون متعارضة ومتناقضة لأسلافهم السابقة، كما كان يلفت عنايتهم أيضا إلى واقع أن الانضباط والنظام، والنظافة الظاهرة، القائمة في الغرب لا شك أنها شيء جيد، فلا يتظاهروا بما قد تعودوا عليه من وساخة بادية للعيان في البيئة الشرقية، مخافة أن يؤدي إلى حصول انطباع سيء

عنهم مما يؤدي بالتالي إلى سوء الانطباع عن دينهم ومدنيتهم وحضارتهم، وهو أمر في غاية من الضرر والخطر.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الخصوص يوضح مراده في إطار أوسع إذ كان يجعل بذلك أسلوب الحياة ومنهجها موضوع حديثه، وكانت هذه الطريقة لإصلاح الحال يمكن أن تكون منارة ونبراسا لجميع القادة والزعماء للشعوب، وخاصة في إطار الأمة الإسلامية. وهذا الجانب أهم جوانب حياة الشيخ الندوي رحمه الله، والذي يجب على من يدرس حياته أن يضعه أمامه. والذي كان يدعم حديث الشيخ الندوي رحمه الله عن الموضوع أنه كان يعيش حياة نزاهة ونظافة، وحيطة واستغناء فيما يخص أمور الدنيا، وحياة احتراز عما يجلب له المنفعة الشخصية، فكان من أثر ذلك أن السامع كان يعرف ويعتقد أن الشيخ الندوي رحمه الله يتكلم عن إخلاص وتجرد، وكان يتأثر به أثرا حسنا.

كان من الممكن أن يقصر الشيخ الندوي رحمه الله حياته على دائرة التصنيف والتأليف، أو التعليم والتدريس، أو التصوف والسلوك ضمن نظام الزوايا المتواجدة في البلاد، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله اختار طريق الدعوة والتوجيه والإرشاد آخذا في اعتباره المقتضيات الإنسانية والاجتماعية على خلاف ما كانت تميل إليه نفسه من أعمال التصنيف والتأليف، وحاول أن يتم أعماله الدعوية والإصلاحية هذه بطرق متعددة، وآثر لنفسه ما يعبر عنه بالتكبير المتواصل في سعة الفلك، وبالتالي كانت حياته الكاملة عبارة عن جهد متواصل وعمل مستمر، الأمر الذي شاهده المعاصرون له بأم عيونهم إلى أن لفظ أنفاسه الطاهرة الأخيرة.

ظهرت هناك قضية قبل وفاته بيوم واحد فقط تتعلق بالأمة الإسلامية والبلاد، فاختار تجاهها بعض أفراد الأمة الإسلامية إستراتيجية كانت تنبع عن اقتناعهم باختيار أية طريقة تحقق لهم الأهداف، وتسبب للآخرين الخسائر وإن كانت تعارض المبادئ الإسلامية، وتنافي مقتضى التعاطف مع الإنسان. فقام الشيخ الندوي رحمه الله بمعارضة هذا الموقف، وحاول أن يوضح لهم الموقف الإسلامي الصحيح وأن يبلغه للناس عن طريق وسائل الإعلام. فنشرت الجرائد تصريحاته هذه في اليوم التالي وهو اليوم الذي لبى فيه نداء ربه جل وعلا. رحمه الله رحمة واسعة.

نصائحه لزعماء البلاد والأمة وقادة البلدان الإسلامية

لقد اكتسب الشيخ الندوي رحمه الله دراساته، وشكل مؤهلاته العلمية والفكرية بأسلوب متزن ودقيق جعله يستوعب بنجاح الأسباب والعوامل الحقيقية لنهوض الأمم وسقوطها، وكان يستطيع أن ينظر إلى الوضع الحالي ويتفهمه في ضوء تاريخ الماضي، فنجح نجاحا متميزا في تقييم الحاضر في ضوء الماضي واستشفاف المستقبل في ضوء الحاضر، حيث كان يشكل رأيه ويستنتج نتائجه عن نظريات الزعماء وأفكار القواد في ضوء تطبيقها على حياتهم الشخصية، وبالتالي كان الشيخ الندوي رحمه الله يكون رأيه الدقيق البارع بعد تحليله الواقعي للأوضاع والتطورات الراهنة أثناء حياته العملية في مختلف مناطق الشرق الأوسط، وشبه القارة الهندية والعالم الإسلامي في ضوء معرفته ودراسته للماضي.

وكان من ميزات الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الصدد أنه كان يشعر بمسئوليته وواجبه أيضا تجاه زعماء الأمة الإسلامية وعامتهم بناء على ما كان يراه، وكان يحاول إصلاح الحال وتحسين الظرف بقدر نفوذه وصلاحياته.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يعتبر أسلوب الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني رحمه الله أفضل أسلوب لإصلاح أحوال رجال الحكم والسلطة، وكان يتبع هذا الأسلوب نفسه فيما يتعلق بأعماله الخاصة بالإصلاح بين الزعماء ورجال الحكومات، وأما بالنسبة للتعليم والتربية فكان يسترشد فيها بأفكار الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي ومن سبقه من العلماء والمفكرين مثل العلاّمة ابن خلدون، والعلامة ابن تيمية، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام والعلامة ابن الجوزي والشيخ حسن البصري رحمهم الله جميعا، وهكذا نرى في أعمال الشيخ الندوي رحمه الله وإنجازاته أنه إذا كان يختار أسلوب الشيخ أحمد السرهندي في تعامله الدعوي مع رجال الحكم والسلطة وهو أسلوب يتمثل بالحكمة والموعظة الحسنة في جانب، فإنه يبدو متأثرا شدة التأثر بأسلوب الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي في مجال التعليم والتربية والإصلاح للأمة الإسلامية، كما أنه استفاد من أفكار العلاّمة ابن خلدون في بعض الجوانب الفكرية للحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى استفادته من كتابات العلاّمة ابن تيمية وتلاميذه الكبار في اختيار فكر ديني متزن أيضا، كما اتبع منهج الشيخ حسن البصري والعلامة ابن الجوزي في محاولاته لإصلاح عامة الناس.

إن الشيخ الندوي رحمه الله أعار أهمية قصوى للبلاد العربية والحجاز من بين البلدان الإسلامية، فعند ما عقد مؤتمر لزعماء الدول الآسيوية في شهر أبريل 1947م قبل استقلال البلاد بمدة يسيرة في مدينة دهلي على دعوة من السيد جواهر لال نهرو (رئيس الوزراء الأسبق)، أرسل الشيخ يوسف الكاندهلوي أمير جماعة الدعوة والتبليغ آنذاك إلى الشيخ الندوي رحمه الله رسالة يدعوه فيها إلى مدينة دهلي لخطاب الممثلين العرب، فأعد الشيخ الندوي رحمه الله مقالا مؤثرا وشاملا باللغة العربية بعنوان إلى ممثلي البلاد الإسلامية، وبلغ الرسالة إلى المشاركين المسلمين، فسافر شخصيا تحقيقا لهذا الغرض إلى مدينة دهلي، وبما أن المؤتمر كان انعقد على المستوى الحكومي فلم يكن له إلا أن يبلغ رسالته الحكيمة بصفة شخصية إلى زعماء الأمة الإسلامية، وهي الرسالة التي استنتجها الشيخ الندوي رحمه الله بعد دراسته لتاريخ الإسلام والأقوام والشعوب. وقد استفاد الشيخ الندوي رحمه الله من هذا المقال الذي كان قد نشر في شكل كتيب استفادة كبيرة في رحلاته إلى الحجاز المقدس والتي حصلت له بعد أيام قليلة.

وأشاد بهذا المقال العلماء والقواد العرب إشادة، فقد قام الشيخ محمد علي الحركان بنفسه وهو من الأساتذة الممتازين البارعين في الحديث النبوي الشريف وقد تولى فيما بعد منصب وزير القانون والعدل، ثم منصب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بقراءة هذا المقال أثناء درسه للطلاب في المسجد النبوي الشريف.

وكذلك حاول أن يستفيد من رحلته لحج بيت الله الحرام فقد كتب بهذه المناسبة رسالة مفصلة إلى سعود بن عبدالعزيز الذي كانت له مكانة مرموقة ومؤثرة لكونه ولي العهد للملكة العربية السعودية استرعى عنايته فيها إلى أنه ينبغي للحكومات الإسلامية أن تمشي برعاياها وشعوبها على الصراط المستقيم الذي هدانا الله سبحانه وتعالى إليه ورسوله ﷺ، وأن تحاول إصلاح أحوالهم وهي مسئولية أصيلة في عنقها، وأما قوة الحكومة وتفوقها، وتقدمها المادي ووفرتها المالية فإنها في الدرجة الثانية من الأهمية، وخاصة إذا كانت المنطقة مثل منطقة الحجاز المقدس فإن اتخاذ أي موقف من المواقف يتطلب مسئولية مضاعفة، فلا بد أن يتم ذلك بغاية من الحذر والحيطة، وأضاف الشيخ الندوي رحمه الله إلى ذلك أن الموقف الذي يبدو أن يتخذه رجال الحكومة السعودية يؤمل كثيرا في أنهم سيسيرون على نفس منهج العزيمة والعمل، كما ذكر الشيخ الندوي رحمه الله في الرسالة بما قاله سيدنا عمر بن عبدالعزيز رحمه الله من كلمة بليغة وحكيمة

عند ما خاطب أحد ولاته «ويحك إن محمدا ﷺ بعث هاديا ولم يبعث جابيا». تقدم بهذه الرسالة الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ وكان أهم شخصية دينية آنذاك في المملكة العربية السعودية إلى الأمير سعود، وقرأها عليه أيضا، وكانت هذه الرسالة مفصلة مسهبة، وقد نشرت فيما بعد في كتيب بعنوان «بين الجباية والهداية» كما أنها جمعت بتعديل يسير في كتاب الشيخ الندوي رحمه الله «إلى الإسلام من جديد».

عاد الشيخ الندوي رحمه الله من الحجاز المقدس في عام 1948م، وقد غلبته حماسته للدعوة بين الشعوب العربية، وترشيد الزعماء والقواد العرب، ولمعرفة هذا الحماس والتفكير يحلو أن نقتبس شيئا مما كتبه الشيخ الندوي رحمه الله بنفسه.

حماس القيام بالدعوة بين العرب

«عندما رجعت من الحجاز عام 1948م ملكت على عقلي وقلبي ومشاعري دعوة العرب إلى الإسلام من جديد، ودعوتهم إلى أن يقوموا لا في العالم الإسلامي فحسب بل في العالم الإنساني كله بدورهم الدعوي والقيادي، واستعادة مكانتهم المفقودة ومنصبهم القديم، بحيث فكرت في أن أجعله هدف حياتي وموضوعها، ويمكن أن يقدر القارئ عاطفتي وحماسي بهذه الرسالة التي كنت كتبتها إلى الصديق العزيز الكريم الأستاذ مسعود الندوي بتاريخ 6 شوال عام 1368هـ الموافق 3 / أغسطس عام 1949م، حين كان مقيما في العراق، وأقدم فيما يلي مقتبسا منها:

«لا تأل جهدا في بذر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة، وأقم حجة الله عليهم، وصل الليل بالنهار، وأذب الجسم، وأهرق دموع العين ودماء الكبد، أهرقها سيلا مدرارا، حتى تبكي دجلة والفرات على قصر باعهما، وقلة بضاعتهما، أمسك بتلابيب كل شخص، وقل له: أيها الغزل الضال في صحراء العرب، ويا كرامة العالم وشرف الأمم، ويا أمل إبراهيم محمد عليهما الصلوات والتسليمات - أين أنت؟ أهذه هي حصيلة دعاء سيدنا عمر بن الخطاب وإنابته بالأسحار؟ ودماء سيدنا مثنى بن حارثة الغزار، ودوس أبي عبيدة الثقفي، وتحطم عظامه، ورفع سيدنا سعد بن أبي وقاص راية القتال والجهاد، وحرقة سيدنا علي بن أبي طالب وبكاؤه، وتململه، وخطابته المثيرة وتأثيره البليغ، وعطش سيد الشهداء فلذة كبد الرسول ﷺ، ورخص دماء أهل البيت، وتفكير أبي حنيفة وفقهه وتأمله، وتعذيب أحمد بن حنبل، وتضييق الخناق عليه، وحماية ابن الجوزي للسنة والدفاع عنها، وتألم الشيخ عبدالقادر الجيلي ولوعته، أن تخضع لأئمة

الضلالة ودعاة الانحراف، وتمشي في ركابهم، وتكون ذرة تائهة من غبار طريقهم، انفخ الصور في مقبرة العراق، وأحدث فيها جلبة القيامة، وزلزلتها، وفيا لضياع «أهل الحرم» وغفلتهم، ويقظة الأعداء وسهرهم!»[1].

وكانت له رحلة ثانية لحج بيت الله الحرام في عام 1396هـ الموافق 1950م، وامتازت هذه الرحلة بأن رافقه الشيخ عبد القادر الرائبوري رحمه الله أيضا، غير أنه عاد بعد إتمام حجه، وبقي الشيخ الندوي رحمه الله لمزيد من الأيام في مكة المكرمة للأعمال الدعوية، فاجتمع بالخواص من أهل الحجاز من الأدباء والكتاب والمثقفين والمحتلين للمناصب الكبيرة، وبثت له بهذه المناسبة خطب من خلال الإذاعة السعودية، ذكرهم فيها الشيخ الندوي رحمه الله بواجبهم نحو القيادة والهداية، وألقى خطبة بعنوان «من العالم إلى جزيرة العرب» بأسلوب حرك القلوب وأدمع العيون.

ثم كانت له رحلة بعدها مباشرة إلى جمهورية مصر العربية والشرق الأوسط، اجتمع فيها الشيخ الندوي رحمه الله بالزعماء والقادة الإسلاميين هناك، وخاطبهم بما أراد الله[2].

ثم كانت للشيخ الندوي رحمه رحلات سنوية إلى الحجاز منذ عام 1961م عند ما أصبح عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وعضو هيئة الاستشارة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وسنحت له فرص بهذا الطريق ودعي إلى إلقاء الخطاب، كما أتيح له أن يرأس الندوات والاجتماعات، فكان الشيخ الندوي رحمه الله حيثما وجد الفرصة المواتية يقول كلمة ناصح مشفق، فقد استخدم أثناء تواجده هناك خطبا عديدة ورسائل كثيرة تحقيقا لهذا الغرض، وقد نشرت فيما بعد في كتيبات، منها كتيب بعنوان بين العالم وجزيرة العرب وهو يجمع خطبه الإذاعية في نفس هذا الموضوع، وأما الكتيب الثاني فهو مجموعة من الرسائل التي وجهها الشيخ الندوي رحمه الله إلى المسئولين في الأسرة الحاكمة.

اجتمع الشيخ الندوي رحمه الله في رحلاته إلى دمشق والتي كان قام بها للأهداف الدعوية اجتمع فيها بأبرز أهل العلم وأقدر أهل السياسة على التأثير والنفوذ، وراح إلى

---

(1) في مسيرة الحياة 1/ 209-210

(2) يمكن الاطلاع على تفاصيل الرحلة في كتابه مذكرات سائح في الشرق العربي

بيت المقدس والخليل أيضا، كما لقي الملك عبدالله والي القدس والأردن، وذكره بأسلوب الحكيم بمسئولياته الحرجة ومقتضياتها، إلا أن الملك رحمه الله استشهد مع الأسف الشديد أثناء نفس الرحلة.

وخلال هذه الزيارة لبلاد الشام طلب من الشيخ الندوي رحمه الله أن يلقي خطبة في قضية فلسطين، ولم تكن إسرائيل قد احتلت حتى الحين إلا على جزء صغير من فلسطين، غير أن سياستها التوسعية لم تكن خافية على أهل العلم والبصيرة، فانتهز الشيخ الندوي رحمه الله هذه الفرصة وألقى الضوء بعد ما حلل الوضع بتعقل وتبصر على أسباب المرض وعوامله، وعلّم الخسائر التي لحقت بالأمم بسبب النقص في سعة النظر وإخلاص العمل، وقد نشرت خطبة الشيخ الندوي رحمه الله فيما بعد بعنوان «كارثة فلسطين وأسبابها الحقيقية».

ثم كانت له رحلة أخرى إلى دمشق كأستاذ زائر بعد خمس سنوات، وكانت الدعوة الموجهة إليه لسنة وسنتين، غير أنه رحمه الله اعتذر عن أن يقبل هذه المدة الطويلة فلم يقبل منها إلا ثلاثة شهور.

وهذه الرحلة إلى دمشق كانت نافعة جدا من نواح عديدة، فقد كان يشاركه في المحاضرة كبار العلماء والزعماء من بلاد الشام، وقد تولى بعضهم فيما بعد أزمة الأمور أيضا مثل الدكتور معروف الدواليبي الذي ظل يحتل منصب رئيس الوزراء لمدة غير قصيرة، وكان العلاّمة محمد بشير الإبراهيمي العالم المجاهد الجزائري على زيارة لدمشق خلال نفس هذه الفترة. فهو الآخر حضر المحاضرة واستفاد منها. إضافة إلى محاضرات الشيخ الندوي رحمه الله نشرت له خطبتان من إذاعة دمشق أيضا، كان عنوان إحداهما «اسمعي يا سوريا».

استغل الشيخ الندوي رحمه الله إقامته هذه في دمشق فتوجه إلى لبنان وتركيا، حيث لقي الشخصيات العلمية والدينية الممتازة وزعماء المنظمات والحركات الدينية البارزين فيها.

ثم كانت له رحلة أخرى في نفس السنة إلى دمشق لحضور جلسات المؤتمر الإسلامي، وقد كان حضرها الدكتور محمد ناصر رئيس الوزراء الإندونيسي سابقا، كما اشترك فيها القادة والزعماء من مختلف البلدان الإسلامية، فألقي الشيخ الندوي رحمه الله مقالا فكريا له في قضية فلسطين، ونبه القادة و الزعماء على خطورة هذه القضية ونتائجها البعيدة المدى.

وبعد سنوات عديدة أتيحت للشيخ الندوي رحمه الله فرصة للحضور في مؤتمر عقد تحت رعاية رابطة الجامعات الإسلامية في المغرب، وسنحت له فرصة بعد اختتام المؤتمر أن يلتقي بملك المغرب، فقام الشيخ الندوي رحمه الله باسترعاء عنايته بأسلوب لبق ومتحضر، ولكن فائض بالحماس، والخطابة إلى ما كانت تحتاج إليه البلاد، وأوضاعها الدينية، والاهتمام بمتطلبات العصر وكل ذلك بإخلاص وأمانة. كان الوضع حرجا، وكان هناك جميع ما شاركوا في المؤتمر، ولم يكن الموضوع إلا التشرف بلقاء الملك، وقد أتيح له أن يتكلم بلسان الجميع، وكانت المناسبة مناسبة تقديم شكر وتهنئة للملك، وهي تتطلب شيئا كثيرا من اللباقة والبلاغة، فقام الشيخ الندوي رحمه الله برعاية الوضع بكل نجاح إلى جانب إبداء رأيه الصريح وقد ضمن كلامه بما ارتآه نظرا إلى أوضاع البلاد التي أطلع عليها. اعتبر كلام الشيخ الندوي رحمه الله بهذه المناسبة كلاما في غاية النجاح.

ثم قام بعده واحد من العلماء العرب الكبار وأعرب عن رغبته في الكلام بهذه المناسبة وأتيحت له الفرصة إلا أنه رغم كونه من أهل اللغة لم يستطيع أن يراعي حراجة الوضع كما ينبغي، فتكلم في ضعف أسلوبه كل الحاضرين بينما أثنوا على كلام الشيخ الندوي رحمه الله ثناء كبيرا، وكانوا كلهم من أساتذة الجامعات. كنت شاهدا لهذا الحدث الكبير، كان كلام الشيخ الندوي رحمه الله بلسان الجميع كلاما عربيا ممتازا يتسم بالعلم الدقيق والتحليل البصير، مما أثار استغرابي ودهشتي أنا أيضا، وأحسست أنه كان مددا خاصا من الله سبحانه وتعالى وليس إلا، يلقاه الشيخ الندوي رحمه الله بإخلاصه وحماسه الدعوي، وأحسست كذلك في مناسبات متعددة أخرى أيضا، وبدا لي أن مثل هذا الكلام الصريح الذي يسبب بعض الأذى عندما يخاطب به رجال السلطات وأولو الأمر، ويثير ردود فعل عنيفة حتى في الحالات العادية رأيت أنه يزيد الشيخ الندوي رحمه الله هيبة في قلوبهم، ويزيد مكانته رفعة وعلوا في عيونهم، فقد رافق الملك المغربي الشيخ الندوي رحمه الله ليودعه عند البوابة، وقال له بأسلوب فيه شكوى وتألم بأنه وجهت إلى الشيخ الندوي رحمه الله دعوات متكررة، غير أنه لم يستطع الحضور، وطلب منه أن يشرفهم بقدومه في البلاد باستمرار.

وكذلك سنحت له فرصة للقاء مع ملك الأردن، فصرح الشيخ الندوي رحمه الله بما أراد من النصح وحدد مواقع الضعف ومواطن الفساد الحقيقية، فاستمع له الملك وأبدى له عن تقديره واحترامه.

ألقى الشيخ الندوي رحمه الله في إحدى رحلاته إلى الكويت في أوائل عام 1962م خطبة بعنوان «اسمعي يا زهرة الصحراء» من خلال الإذاعة الكويتية، استرعى عنايتهم فيها إلى نوع الشخصية التي يجب أن يمثلوها أمام العالم، كما أنه وجه رسالة إلى الشيخ عبدالله السالم الصباح أمير الكويت، بين فيها أسبابا للتقدم والوحدة والقيادة العربية، وحلولا لمشكلاتهم وقضاياهم، إلى جانب لفت أنظارهم إلى ضرورة الاستغلال الصحيح لما آتاهم الله من مال وفير، وثراء كثير.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يتحرق لأن يرى الحكومات الإسلامية تقوم بمراعاة متطلبات العصر الحاضر مقتضياته وهي مستقيمة على عقيدتها الصحيحة ودينها القويم بأسلوب يضمن لها المكانة المرموقة الرفيعة بين الحكومات المعاصرة، ويمكنها من الجمع بين الدين والدنيا، ومن نشر رسالة الدعوة الحق في العالم كله ومن السير بشعوبها وأقوامها على طريق الصلاح والفلاح وهو الطريق الذي حدده لها القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام وورثته من سلفها الصالحين. كان الشيخ الندوي رحمه الله يحترق لهذا كله بناء على ما كان لديه من دراسة متعمقة للتاريخ، ومعرفة دقيقة للدين والشريعة الإسلامية، والاستعمال الصحيح للعلم والعمل، وكان إخلاصه في النية واستغناؤه عن متاع الدنيا يحول هذا الطلب والتألم إلى كلام مؤثر يأخذ بمجامع القلب. كان الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن يستفيد أبدا أية فائدة مادية من الحكام والرؤساء الذين كان يرى نصحهم من واجبه، حتى كان يعتذر ويتحاشى أن يقبل منهم أية هدية، وقد شاهدت ذلك بأم عيني مرارا وتكرارا.

لقد كانت له لقاءات عديدة مع الملك فيصل الشهيد عاهل المملكة العربية السعودية خلال ولايته للعهد كما حصلت أثناء توليه حكومة المملكة أيضا، وكنت أيضا مع الشيخ الندوي رحمه الله في بعض الأحيان، فتكلم الشيخ الندوي رحمه الله معه في كل لقاء من هذه اللقاءات بأسلوب فيه استغناء وفيه نصح، ، ولفت عنايته إلى المخاوف والأخطار التي يحتمل أن تلحق الضرر بالمملكة، وتلقي بظلالها على قداسة الحرمين الشريفين، فطمأنه الملك الشهيد بأنه لن يحدث هناك شيء ينافي مكانة مركز الإسلام ورسالته، كما أن الشيخ الندوي رحمه الله وجه إليه رسائل فرد عليها الملك بكل اهتمام وعناية بالغة.

حصل له لقاء مع الرئيس الباكستاني الجنرال محمد ضياء الحق رحمه الله في عام 1984م في كراتشي عند ما كان في سفر عودته من شرق الأردن، واليمن والحجاز. وكان

الرئيس الباكستاني قد رتب هذا اللقاء بعد تعديل في برامجه المقررة، فقدم الشيخ الندوي رحمه الله للرئيس الباكستاني الراحل هيكل قبة الصخرة الجميل الذي كان أهدي له في عمان، وكان فيه إشارة إلى أنه من واجبه بصفة حاكم مسلم أن يعتني بمسئولية استعادة المسجد الأقصى.

أدى الشيخ الندوي رحمه الله واجبه نحو الدعة والنصح في جميع رحلاته في العالم الإسلامي، ففي أوائل عام 1960م سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى بورما حيث استرعى في خطبه ومحاضراته عناية المسلمين ونبههم على أن الله سبحانه وتعالى قد أكرمهم في مثل مدينة رنغون الكبرى بالثروة والمال، والسلطة والجاه، وهذا من شأنه أن يبعث على الفرح والسرور، ولكن الذي يقلق البال هو أن أخلاق المسلمين وصفاتهم ليست متوافقة مع تعليمات الشريعة الإسلامية إلا في النادر، وكان من الواجب أن تتمثل حياة المسلمين بالصفات الإسلامية والشخصية الإسلامية الرائعة أيضا. وأخشى مثلما نقل القرآن الكريم على لسان نبي الشعوب والأمم السابقة ذات الرخاء والثراء «إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط».

ولم تكد تمضي عدة أيام على عودة الشيخ الندوي رحمه الله من بورما حتى شهدت البلاد انقلابا شيوعيا اضطر كبار التجار المسلمين المهاجرين إليها من شبه القارة الهندية في الأغلب إلى مغادرتها والالتجاء بأوروبا وشبه القارة، وقالوا إننا لا نزال نتذكر خطب الشيخ الندوي رحمه الله ويبدو أن ما حذر منه رحمه الله كان أمرا مقضيا.

وقد كان الشيخ الندوي رحمه الله قال نفس هذا الكلام في بلاد الشام عند ما سافر إليها قبل الانقلاب العسكري، وكان شاهد الشيخ الندوي رحمه الله مظاهر الرخاء والنعمة والعافية، حيث كانت الراحة قد بسطت بأروقتها في جميع مناحي الحياة. فقال الشيخ الندوي رحمه الله عند ما رأى ذلك إنني أخشى ولا بد من أن نعيش حياتنا هذه على الطريقة التي هدانا الله سبحانه وتعالى إليها وبينها لنا رسوله ﷺ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى عند ما يكرم عباده بنعمه وأفضاله يريد أن يراهم شاكرين له على هذه النعم. ومن قدر الله العجيب أنه لم يمض إلا عام واحد على عودته رحمه الله منها حتى حدث فيها انقلاب عسكري وتلته انقلابات عسكرية متكررة، وحرم الشعب كله من نعمة العافية والراحة والرخاء، واضطر كثير من العقول المؤهلة جراء الانقلابات العسكرية إلى هجرة البلاد، كما بدأت تتجلى مناظر تحول السعادة إلى شقاء، والراحة إلى عناء.

كان الشيخ الندوي رحمه الله حيثما يسافر من مختلف البلدان والدول كان يبني كلامه على ما يطلع عليه ويدرسه من الأوضاع والأخبار المحلية، بأسلوب ملؤه التألم والتلهف، وكان كلامه يتحقق جليا واضحا في الأيام التالية، فقد كان الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليه ببصيرة تساعده على تشخيص المرض الحقيقي بعد دراسة جميع الأمراض المتفشية في الشعب، الأمر الذي كان يستغربه الناس في ذلك الحين، إلا أن مصداقية كلامه كانت تتحقق مع مرور الأيام.

ولما رفع شعار القومية العربية، أعجب به العرب كلهم بهذا الشعار لما فيه من حمية عربية، وقالوا للعجم إن العروبة والإسلام هما شيء واحد، ويجب أن نفهم العروبة على أنها قومية إسلامية، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله قال بكل صراحة وصرامة بأنها فتنة لفصل المسلمين العرب عن إخوانهم المسلمين من العجم، ولجعل الدنيا محور الأعمال بدلا من الدين، إنها لمؤامرة حيكت خيوطها بأيدي الغير، فكانت النتيجة لنظرية القومية العربية أن انفصل العرب عن العجم، ثم ارتفعت شعارات قومية في العرب أنفسهم على أسس وطنية، إلى أن انتشرت عقد الوحدة العربية أيضا، ثم تحولت المناطق العربية مسرحا لأعداء العرب. إن المقال الصريح الذي كتبه الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الموضوع نشر بعنوان «اسمعوها مني صريحة أيها العرب» وأعقبه مقال آخر بعنوان «إلى الراية المحمدية أيها العرب». إن شعار القومية العربية كان رفعه مفكر شامي مسيحي من أصل يهودي يدعى ميشال عفلق، ثم انتشر هذا الشعار في بلاد الشام ومصر والعراق وتأثر به العرب كلهم.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يقول وهو يكرر في كل محاضراته وخطبه قولة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي قالها ردا على طلب سيدنا أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لتبديل ملابسه القديمة باللباس الجديد عند ما فتح بيت المقدس «**نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله**» وأما الأشياء الأخرى فلا قيمة لها. إن العرب بالإسلام، و سيكون بقاؤهم والحفاظ على شخصيتهم مضمونا بقدر ما تكون صلتهم برسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ قوية محفوظة.

إن هذه الرحلات والجولات الدعوية التي قام بها الشيخ الندوي رحمه الله شملت البلدان غير العربية أيضا، فسافر إلى باكستان، وسافر إلى بنجلاديش وماليزيا، وكما ذكر أعلاه سافر إلى بورما وسافر إلى تركيا مرات عديدة. وإضافة إلى ذلك سافر إلى عدد من

الدول الأوروبية أيضا مرارا وتكرارا، وسافر إلى أمريكا، وكلما راح وحل دعا المسلمين المقيمين هناك إلى أن لا ينسوا أصلهم، وأن يحافظوا على نعمة الدين التي أولاهم الله إياها، فبالدين عزهم وقيمتهم، وكان الشيخ الندوي رحمه الله إذا حصلت له فرص ليخاطب الجماعات والحركات الإسلامية في هذه البلدان ينبههم على مواطن الضعف فيها، وكانت رسالته لهم متمثلة بألا يبتعدوا عن ثقافتهم وحضارتهم الإسلامية، وألا يتأثروا بالعيوب الخلقية والدينية التي تدنس حياة المواطنين المحليين، وأن يهتموا بتعليم وتربية أبناءهم وأولادهم بحيث لا يحدث أي شرخ في صلتهم بالإسلام، وأن يتعلموا اللغة المحلية بأسلوب وعلى مستوى يمكنهم من التأثير على المحليين، واستخدامها في الأعمال الدعوية بأسلوب مؤثر، وأن يلتقطوا ما يرونه فيهم من الصفات الحسنة متمثلين بـ«الحكمة ضالة المؤمن، من حيث وجدها فهو أحق بها»[1].

والواقع أن الشيخ الندوي رحمه الله كان قد سافر إلى دول عديدة ورأى فيها ما رأى من مفاسد ومعايب، فقام بتضمين رسائله إلى المثقفين في البلاد ومفكريها بما يجب أن يكون عليه أهل البلاد من خلق حسن ومثل عليا، وكل ذلك بتفصيل وإسهاب، وبكل تألم وتحرق، وبأسلوب يتسم بالبلاغة واللباقة، وكانت أولى هذه الرسائل رسالة موجهة إلى جمهورية مصر العربية بعنوان «اسمعي يا مصر» ثم إلى بلاد الشام بعنوان «اسمعي يا سوريا» ثم إلى الحجاز المقدس بعنوان «من العالم إلى جزيرة العرب» وإلي الكويت بعنوان «اسمعي يا زهرة الصحراء» وإلى إيران بعنوان «اسمعي يا إيران» وغيرها من الخطب الجديرة بالذكر. ومن هذه الخطب ما ظهر فيما بعد في شكل رسالة وكتيب أيضا، كما أن الخطب التي ألقيت في باكستان ظهرت مجموعتها بعنوان «حديث باكستان» وهي خطب تتسم بقوة الخطابة، إلي جانب بيان مقتضيات الأوضاع والأحوال في البلاد بكل صراحة، كما أنها تمتاز بالاتزان والاعتدال والشمول في تحليل الأوضاع والظروف. ويتبين من هذه الرسائل مدى تألم الشيخ الندوي رحمه الله وتلهفه للرقي والتطور في البلدان الإسلامية

(1) فقد تضمن ما ورد أعلاه كتب الشيخ الندوي رحمه الله تعالى ورسائله بشكل عام، ويمكن المراجعة إليها في كتبه ومؤلفاته، وخاصة في الرحلات التي كتبها الشيخ الندوي رحمه الله تعالى بعد زيارته لمختلف الدول والبلدان، مثل «من نهر كابل إلى نهر اليرموك»، ومثل سجله الشيخ الندوي رحمه الله تعالى بعد رحلاته وجولاته العلمية والثقافية إلى أفغانستان، وإيران، ولبنان، والشام، والأردن، والعراق والكويت، وظهر إلى النور بعنوان «مذكرات سائح للشرق الأوسط، » وقد تضمن هذا الكتاب بيان الأوضاع والظروف التي كانت تمر بها هذه البلدان.

وتقدم شعوبها في المجالات العلمية والدينية والالتزام بالقيم الخلقية، وكيف كان يتحرق ويتحمس للنصح للأمة المسلمة، والحفاظ على القيم الدينية لديها، و مدى ما استطاع الشيخ الندوي رحمه الله أن يحرزه في هذا المجال.

إصلاح مناهج التعليم والتربية

إن وجهة النظر التي كان الشيخ الندوي رحمه الله يحملها نحو التعليم والتربية تشكلت في بيئة خاصة، وهي بيئة أسرته التي انتسب فيها عدد من أقربائه الأعزة إلى مناهج التعليم الحديثة، وقد سافر بعضهم في بداية القرن المنصرم نفسه إلى البلدان البعيدة مثل أمريكا، كما سافر بعضهم إلى إنكلترا وألمانيا أيضا، وعلى هذا، فقد انتهت إلى أفراد عائلته وجهات النظر التعليمية الحديثة المتداولة آنذاك في أمريكا وإنكلترا من خلال أقربائه. وبما أن الشيخ الندوي رحمه الله كان ابن والدة تحمل وجهة نظر دينية محضة، و إن كان والده الشيخ عبدالحي رحمه الله قد توفي والشيخ الندوي ما زال في طفولته إلا أنه ورث من أبيه بصفته ابنا بارا النزعة القوية إلى العلم والدين، فإنه رأى وعاين بيئة التعليم المعاصر عن كثب، ولكنه لم يبتعد عن مناهج التعليم الدينية لكونه ابن الوالد ذي الروحانية والعلم العميق الواسع، غير أن نظريات التعليم الحديثة لم تعد غريبة عليه إذ كان مطلعا عليها كل الاطلاع وعارفا بتفاصيلها كل المعرفة، وأضف إلى ذلك أن الشيخ الندوي رحمه الله تربى منذ البداية في بيئة مثل بيئة ندوة العلماء بلكناؤ، والتي كانت تشكلت ضمن مشروع شامل جديد لمناهج التعليم والتربية، وهي حركة تعليمية قامت تحت رئاسة الشيخ مولانا محمد على الكانبوري ثم المونجيري بمشورة وتعاون من الشيخ العلاّمة شبلي النعماني، ووالد الشيخ الندوي رحمه الله العلاّمة عبدالحي الحسني، والأمير الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني مدير الشئون الدينية في حكومة حيدر آباد، في ضوء المقتضيات المعاصرة لمناهج التعليم الدينية المتداولة آنذاك، وتحت ضغط من ضرورة التغيير والتعديل الناتجة عن التجارب الجديدة في مجال التعليم والتربية، وبناء على ذلك تم تأسيس دار العلوم لندوة العلماء. وهذا هو العصر الذي استهل فيه الشيخ الندوي رحمه الله تعليمه ودراسته، مما ساعده على فهم واستيعاب وجهة النظر التعليمية الإسلامية الشاملة، والاستفادة منه.

كان والد الشيخ الندوي رحمه الله وهو العلاّمة السيد عبدالحي الحسني يحمل شغفا عمليا كبيرا بمادة التاريخ، فقد ظهرت له مؤلفات عديدة مهمة في التاريخ، ولعل ذلك هو

ما جعل الشيخ الندوي رحمه الله يولي اهتماما خاصا بالتاريخ، مما أدى إلى قيامه بدراسة التاريخ دراسة واسعة ومتعمقة، كما أنه أخذ الكثير من الذوق للأدب والشعر لما رأى من اهتمام كبار أفراد العائلة بهما.

وأما النزعة الدينية أو الذهنية الدينية فقد حصلت له من خلال التربية والإشراف التي تمتع بها من كلا الجانبين جانبي العمومة والخؤولة، حيث كان مشرفه المباشر من العائلة على صلة بالشيخ الشاه فضل الرحمن الكنج مراد آبادي، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي احتراما وتقديرا، واستفادة واسترشادا أيضا[1].

وعلى هذا فقد اطلع الشيخ الندوي رحمه الله على مناهج التعليم الدينية التي بدأ تطبيقها في قرية ديوبند منذ عام 1862م ثم تعرف على ضرورة المراعاة لمقتضيات العصر في مناهج التعليم الدينية لصلة والده السيد عبدالحي الحسني وأخيه الأكبر الدكتور السيد عبدالعلي وهي صلة مباشرة بحركة ندوة العلماء التعليمية الإصلاحية، وكانت هذه هي الأسباب التي ساعدته في جانب على تكوين علاقة أساسية بالمرجعين الأساسين للعلوم الدينية وهما القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، وأخذهما من كبار العلماء البارعين، كما أنها لعبت دورا كبيرا في اطلاعه اطلاعا شاملا دقيقا على التاريخ واللغة والأدب والفكر الإسلامي وفق المقتضيات المعاصرة، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعتبر هذا الجانب وسيلة ناجعة وناجحة في مجال الدعوة والتربية الإسلامية.

إن الشيخ الندوي رحمه الله أحرز اختصاصا وتفوقا في كل من هذه الجوانب الثلاثة، وهدته دراسته لمادة التاريخ لمعرفة الارتباط بين مناهج التعليم الإسلامية وأهمية العلوم الدنيوية والدينية في ضوء متطلبات العصر والأوضاع، واقتنع الشيخ الندوي رحمه الله بأن الشعوب الغربية تطورت وارتقت عن طريق العلوم التجريبية تطورا وارتقاء كبيرين، وبالتالي ينبغي أن ننظر إلى ما هي الجوانب التي يمكن أن يستفيد منهم المسلمون فيها حسب ضرورتهم وحاجتهم، وهم في غاية من الانحطاط والسقوط من ناحية الغلبة والسيطرة، ومدى مساعدتها للأمة الإسلامية على الخروج من هذه الحالة المتدهورة

---

(1) كان أحد أعمام الشيخ الندوي رحمه الله وهو جد كاتب هذه السطور السيد خليل الدين الحسني مبايعا على يدي الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي كما أنه والد الشيخ الندوي رحمه الله العلاّمة السيد عبد الحسني كان مبايعا على يدي الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي، وكان على صلة الاستفادة والاسترشاد بالشيخ رشيد أحمد الكنكوهي أيضا.

إلى القوة والعز، وما هي التعديلات والإصلاحات التي يمكن إجراؤها في المقررات المتداولة للتعليم الديني نظرا إلى الظروف والمعطيات لهذا العصر الحديث، وكان هذا هو الشعور الذي تمخضت عند حركة ندوة العلماء فعلا في زمن سلفه الكبار، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعرفها عن كثب. ثم عند ما بلغ الشيخ الندوي رحمه الله المرحلة العلمية والعملية من حياته فإنه بسبب تربيته العقلية التي حصل عليها، ودراسته التي قام بها لتاريخ الإسلام العلمي نهوضا وسقوطا، أولى اهتماما كبيرا لإعادة تشكيل مناهج التعليم لدى المسلمين، ودعا إلى إعادة ترتيب بعض العلوم، والحذف من القدر المقرر في بعضها والإضافة إليه، الأمر الذي تجلي جليا في المقالات التي كتبها ونشرها، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعتقد أنه ينبغي الاهتمام بالاستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بشكل مباشر فيما يتعلق بالتعمق والاختصاص في العلوم الدينية، والحصول على علوم القرآن الكريم والسنة، وأنه ينبغي لعلماء الدين أن يتعلموا اللغة والأدب تعلما جيدا للعمل في مجال الدعوة والإصلاح وهي أول فريضة على الأمة الإسلامية وترجع مسئوليتها إلى العلماء في المقام الأول، وينبغي لهم تحقيقا لهذا الغرض أن يدرسوا تاريخ الإسلام وتاريخ أعداء الإسلام أيضا بما يكفي الحاجة، وأما ما يتصل بتعلم اللغة فإنه من الضروري أن تكون المعرفة باللغة العربية معرفة عملية وعميقة، بالإضافة إلى أن المعرفة باللغة الدولية الرائجة في العصر بما فيه الكفاية، هي أيضا ضرورة لا بد منها للقيام بالأعمال العلمية والدينية، كما أنه كان يعتبر من المناسب الاهتمام بالمواد والمعارف المتصلة بالحياة الإنسانية حسب معطيات العصر ومقتضياته، ولا شك أن الاهتمام بهذا الجانب يمكن تحقيقه من خلال حذف قدر من مواد المقررات الدراسية المطبقة حاليا التي كان تم اختيارها بشكل موسع في دور معين من أدوار التاريخ الإسلامي نظرا للظروف والأوضاع الآنية، وهي لا تحمل نفس القدر من الأهمية والضرورة في العصر الراهن.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد اطلع من خلال احتكاكه بأقربائه المثقفين ثقافة عصرية، ومن خلال دراسته المباشرة اطلاعا كاملا على أسباب والرقي الأوروبي والتفوق الأوروبي، فكان لا يعتبر تفوق الشعوب الغربية في المجالات الدنيوية نتيجة لتفوقهم العقلي والفكري، بل نتيجة للأسباب والعوامل العلمية والعملية المعينة، فقد كان على قناعة تامة بتفوق العقل التي يشكله الإسلام، وتفوق المنهج الذي ترشد إليه النبوة

المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، وكان يعتقد أنه إذا اخترنا هذا المنهج للعمل، واستفدنا من الوسائل العلمية والعملية المتوفرة التجريبية التي استفادت منها الشعوب الغربية لتبلغ ما بلغت إليه من تطور ورقي فإننا نستطيع أن نحرز رقيا أكبر، ومكانة أرفع مما لدى الشعوب الغربية، واعتقد أنه من الضروري القضاء على الشعور المتزايد بالغلبة العقلية والفكرية للغرب من أجل العودة بالأمة الإسلامية إلى مقام العز والقوة، ولا يمكن للأمة الإسلامية أن تستعيد مكانتها الرفيعة وعزها المفقود ما دام لا يقضى على الشعور بالغلبة العقلية للغرب. كان الشيخ الندوي رحمه الله يعتقد أن مجرد الأسلوب الدفاعي أوالأسلوب الاعتذاري ليس ناجعا ومفيدا. إن الأمة الإسلامية خير أمة، وإن منهاج العلم والعمل الذي حصلت عليه من خلال تعليمات نبيها الكريم خاتم الأنبياء ﷺ لخير منهاج، وهو صالح لكل عصر ومصر، وفي استخدامه وتطبيقه الصحيح يكمن نجاحنا ورفعتنا، وإن السبب الحقيقي لتخلفنا الراهن وإن افتقاد مكانتنا في هذا العصر يرجع في الأصل إلى قصر النظر والكسل والإهمال المتفشي فينا. لقد أبدى الشيخ الندوي رحمه الله رأيه وموقفه هذا في البلدان والدول العربية أكثر منه من الهند، وبما أنه كان مرتبطا بحركة ندوة العلماء، فإنه عرض هذه الفكرة في الهند بواسطة ندوة العلماء و في مجالها العملي.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يفكر في الجانبين من التعليم، أما جانب التعليم العصري فإنه من الضروري في هذا المجال أن نرى ما هي مقتضيات العصر فيما يتعلق بالحياة الدينية والعملية، ثم نختار من مواد التعليم العصري ما يتعلق مباشرة بالجوانب الفردية والاجتماعية من الحياة وفق هذه المقتضيات، ونحصل المقدرة عليه، وأما فيما يخص بالتعليم الديني فإنه من الضرورة أن نشعر بتفوق الإسلام الفطري والديني على الأفكار والنظريات الأخرى، وأن نقتنع بتفوقه واستعلائه، ونقوم بتحصيل المقدرة الصحيحة على الأعمال الدعوية لكون الأمة المسلمة خير أمة أخرجت للناس. كان الشيخ الندوي رحمه الله يعتقد أن النشء الجديد يجب أن نقوم بتشكيل مناهج تعليمه وتربيته بأسلوب يمكنهم من إحراز تلك القدرات والمؤهلات المذكورة أعلاه. وأما بالنسبة لجامعات ومؤسسات التعليم العصري فإن الشيخ الندوي رحمه الله كان يرى أن المقررات الدراسية فيها من العلوم الاجتماعية والإنسانية قام بإعدادها حملة الفكر الغربي الذين هم في عقيدتهم ملحدون وماديون، فهذه المقررات لا تفي بضرورة الأمة المسلمة

ولا تنسجم مع مزاجها وفكرها، وينبغي لأساتذة هذه الفنون والعلوم من المسلمين أن يقوموا بإعادة ترتيب هذه المقررات الدراسية وأهدافها وغاياتها من جديد على أساس من التفكير الإسلامي الصحيح، وهو مطلب لم يتحقق مع الأسف الشديد حتى الآن. إن هذه العلوم علوم ضرورية لازمة للحياة الإنسانية، ولكن ينبغي أن تكون موافقة لأوضاع الأمة الإسلامية وأحوالها، إن هذه العلوم ليست بذاتها سببا في انحراف الشباب عن الطريق الإسلامي الصحيح ولكن الأساليب والمناهج التي اختارها المرتبون الحاملين العقل الغربي والإلحادي في ترتيبها وتفسيرها، ولذلك لا من إحداث تغيير في أهداف كتابات هذه العلوم والفنون ومزاجها. إن الأدب واللغة هما الآخران بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية يتركان أثرا قويا على فكر الإنسان ونزعته، ولهما كذلك دخل كبير في انحراف عقول الأمة المسلمة، ولذلك يجب أن يتخصص في هذا الفن أيضا من يحمل الفكر الإسلامي الصحيح من الأمة الإسلامية. كان الشيخ الندوي رحمه الله يعتقد أن المسئولين عن مدارسنا العصرية لم يولوا عناية مطلوبة بهذا الجانب بشكل عام، فالمقررات سواء كانت في الفلسفة أو في علم النفس، أو في الجغرافية أو في التاريخ هي كلها معدة عموما بأيدي المثقفين المخالفين للنظرية الإسلامية، ومن الغفلة أن نكتفي بتبني هذه المقررات كما هي، بل من الضرورة أن نقوم – شعورا بالنقص في تفسير المفكرين الغرب لهذه العلوم – بصياغة فلسفتها ونظريتها في قالب من الفكر والمزاج الإسلامي، يتضمن القيم الصحيحة للإيمان واليقين. وإن اختيار العلوم المصاغة في قالب ينافي الإيمان بالله والفكر الإسلامي على علاتها شيء يلحق ضررا كبيرا بالأمة المسلمة، وأقل الضرر أنه يؤدي إلى الشعور بمركب النقص فيما يتعلق بالإسلام وأسلافه.

إن الشيخ الندوي رحمه الله كان يرى فيما يتعلق بالعلوم الدينية وتعليمها وتعلمها أنه لا ينبغي الاكتفاء بما كتبه السابقون بناء على دراستهم لهذه العلوم بل ينبغي بذل الجهد لفهمها من خلال مصادرها الأصلية بشكل مباشر، و لا ينبغي خاصة في فهم تفسير معاني القرآن الكريم الاقتصار على تفاسير المفسرين، ولا شك أن الاستفادة من كتب التفسير وآراء المفسرين أمر ضروري وصحيح، ولكن ينبغي الاستفادة بشكل مباشر من القرآن الكريم كما استفاد منه العرب رغم أميتهم، كما أنه من الضروري التعرف على البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم، وشأن نزوله. إن الله سبحانه وتعالى لم يخاطب في كلامه أصحاب العلم والمعرفة فقط، بل خاطب كذلك أصحاب البساطة والفطرة،

كما أن تأثير كلام الله سبحانه وتعالى يكون أقوى وأجلى إذا فهم بشكل مباشر، غير أن ذلك يستدعي معرفة اللغة العربية وبيانها، إلى جانب معرفة الخصائص التي كانت في اللغة العربية وبيانها في العهد الأول، كما أنه من الضروري الاطلاع على المبادئ والأصول التي بينها العلماء الكبار لفهم القرآن الكريم، ومن نافلة القول أن تعلم اللغة العربية وأساليب بيانها، والقدرة على استخدامها العملي الصحيح ضرورة حتمية للقيام بأعمال الموعظة والدعوة، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يعتقد أن طلاب المدارس الدينية يجب أن يكتسبوا هذه المقدرة بصفة خاصة وحسب ما يتطلبه العصر. إن الحاجة متحققة إلى تعلم اللغة العربية واكتساب المهارة والبراعة فيها وذلك لأجل فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وإنها تساعد على شرح مطالب الدين والعلم، كما أنها ضرورية للدعوة إلى الفكر الإسلامي، وكان يعتقد أن إدخال مواد اللغة العربية وأدبها في المقررات الدراسية في المدارس الدينية بقدر مناسب ضرورة لا بد منها. إن العلوم الاجتماعية والإنسانية يحتاج إليها في الحياة الاجتماعية والاحتكاك بمختلف الشعوب والأقوام المتواجدة في العصر الحاضر، فإذا أدخل شيء من هذه العلوم في المقررات الدراسية المتبعة في المدارس الدينية فإن المتخرج منها لا يعتبر جاهلا بين معاصريه المثقفين، وبالتالي لا يتعرض لمركب النقص. إن الشيخ الندوي رحمه الله كان يرى أنه ينبغي اكتساب المهارة – إلى جانب لغة الأم واللغة العربية – في اللغات الأخرى السائدة في البلاد أيضا، لكي يساعد ذلك على عمل الدعوة والإرشاد والتوجيه، كما ينبغى أن يطلع طلاب المدارس الدينية إلى جانب تعمقهم في العلوم الدينية على الحركات الهدامة والفتن المحدقة المعاصرة لكي يكونوا هم في مأمن منها كما يمكنهم أن يحموا غيرهم من شرها، فقد طبق الشيخ الندوي رحمه الله هذه الآراء والمواقف في حياته العملية، كما دعا إلى تطبيقها وتنفيذها في المدارس التي كانت تحت إشرافه.

من مهاراته الخاصة التي كان يمتاز بها الشيخ الندوي رحمه الله على الآخرين كانت مهارته الفائقة في علوم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريف، وكان يستفيد ويستعين بهما في أعماله الدعوية والعلمية بشكل مباشر، كما أنه كان متضلعا في علوم التاريخ على مختلف جوانبه، وكانت له دراسة متعمقة فيه، بالإضافة إلى مقدرته اللغوية والبيانية. إن اللغة العربية وإن لم تكن لغة أمه لكنه كان قد اكتسب القدرة عليها بواسطة أساتذة الأدب واللغة البارعين مثل مقدرته على لغة أمه، وكان يبدو في بعض الأحيان متفوقا فيها على

علمائه العرب، وكان كذلك قد حصل على قدر من اللغة الإنجليزية يكفي حاجته، وكان مقتدرا على استخدامها في قضاء حاجته، وكان يرى تعليم اللغة الإنجليزية في المدارس الدينية ضرورة نظرا لأهميتها في هذا الوقت.

لقد امتاز الشيخ الندوي رحمه الله بهذه الخصائص والمزايا لأنه أكمل دراسته طبقا للمناهج المناسبة ووفقا للضرورة، وبالتالي أحرز امتيازا وتفوقا في كسب الذوق العالي في اللغة والأدب من بين الخصائص الأخرى، واستعماله الصحيح في أعماله العلمية والدعوية والدينية، إضافة إلى ذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله أخذ الدرس في تفسير معاني القرآن الكريم وعلوم الحديث على أيدي كبار أساتذة هذه العلوم المهرة البارعين في عصره، إلى جانب دراسته المتعمقة في تاريخ العالم والتاريخ الإسلامي، ولذلك عند ما تم تعيينه كأستاذ في دار العلوم لندوة العلماء تعين أستاذا لمادة علوم القرآن الكريم والأدب العربي، ودرس هاتين المادتين بصفة خاصة لمدة عشر سنوات بشكل منتظم. كان الشيخ الندوي رحمه الله يصرف أوقاته إلى جانب التدريس والتعليم في الأعمال الدعوية أيضا، وكانت آثار دراساته القرآنية والاستفادة منها تتجلي بكل وضوح في خطبه ومحاضراته، كما كانت مقدرته على التعبير عما يريد بأسلوب ممتع رشيق ظاهرة وبادية.

لم يقتصر الشيخ الندوي رحمه الله في جهوده الدعوية والإصلاحية على الخطابة والمحاضرة، بل امتازت أعماله كذلك في مجال التأليف والتصنيف وكتابة المقالات، وتزايدت مع مرور الأيام، إلى أن انعزل الشيخ الندوي رحمه الله عن أعماله التدريسية بصفته موظفا متفرغا، بل جعل يدرس ويعلم حسب يسمح له الوقت بذلك، لكي يزيد من أعماله الدعوية عن طريق الكتابة والخطابة. إن أعمال الشيخ الندوي رحمه الله في المجالات الدعوية لم تكن كذلك مقصورة على أن تكون بأسلوب رشيق وممتع، بل كانت تتسم بالرصانة العلمية والنضوج الفكري المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة، وبالتالي ظهرت له مؤلفات وكتابات متعددة ومهمة بشكل تدريجي، وأحرزت نجاحا باهرا وكانت هذه الكتب نتاج المهارة والبراعة التي امتاز بها الشيخ الندوي رحمه الله في التفكير والتبيين.

إن الشيخ الندوي رحمه الله كلما أتيحت له الفرصة لإلقاء كلامه وتقديم مشورته في الجامعات والمؤسسات التعليمية العربية دعاهم أيضا نفس هذه الدعوة، وقدر له العلماء العرب واستمعوا إليه وأعجبوا به. إن الشيخ الندوي رحمه الله دعا العلماء والمفكرين العرب إلى اختيار كتب العلوم بشكل تدريجي طبقا لهذا المنهج، وقد دعا قبله إلى نفس هذا

المنهج المفكر العربي والخبير بالعلوم الاجتماعية العلاّمة ابن خلدون في مقدمته لتاريخه، فتمت دعوتهم إلى تعليم العلوم كل على حده بدلا من أن تكون مختلطة متشابكة، وقد تم تعليم الشيخ الندوي رحمه الله على نفس هذا المنهج الناجح تقريبا.

والشيء الثاني أن الشيخ الندوي رحمه الله دعا إلى كسب المقدرة على اللغة والبيان بأسلوب فصيح، ذلك لأنها ليست ضرورية للأهداف الدعوية فقط بل هي مطلوبة لشرح وبيان كل العلوم والفنون أيضا.

والشيء الثالث أنه رحمه الله ركز على تعليم القرآن الكريم بشكل مباشر ضمن تعليم علومه، لأنه هو النقطة المركزية لجميع العلوم الإسلامية، وإن اختيار هذا المنهج يساعد بشكل أفضل على فهم واستيعاب مضامين ومعاني القرآن الكريم، وأوضح ما يتجلي هذا المنهج لدى العلاّمة السيد سليمان الندوي والعلامة السيد أبي الحسن علي الندوي رحمهما الله سبحانه وتعالى، كما يتبين من كثرة الاقتباس من آيات القرآن الكريم ويتجلى عند شرحها وبيانها في كتاباتهما ومؤلفاتهما.

إن الشيخ الندوي رحمه الله لم يقصر إلقاء دروسه في القرآن الكريم على تعليمه الروتيني بصفته أستاذا موظفا، بل اختاره في أعماله الدعوية وتوجيهاته الفكرية أيضا، فهو متجل في استشهاده بآيات القرآن الكريم في خطبه ومحاضراته وكتاباته ومؤلفاته، كما هو متضح أيضا من واقع أن الشيخ الندوي رحمه الله كان يهتم بإلقاء دروس قرآنية للمثقفين والمتعلمين منذ البداية، فكان يلقى درسا أسبوعيا في القرآن الكريم في مسجد حيه، يحضره المثقفون ثقافة عصرية بصفة خاصة، فكان الشيخ الندوي رحمه الله يوضح لهم في هذه الدروس القرآنية حقائق الحياة، والتوجيهات التي تقدمها الآيات القرآنية للأوضاع والأحوال المستقبلية، لتكون التعليمات الحاصلة من القرآن الكريم في مسائل الحياة وقضاياها واضحة وبارزة للعيان، وبالإضافة إلى ذلك قام الشيخ الندوي رحمه الله وذلك بمشاركة زميله العلمي الشيخ عبد السلام القدوائي بإنشاء إدارة تعليمات الإسلام في أمين آباد لكناؤ، حيث كان يتم تعليم لغة القرآن العربية، وكان هذا التعليم يهدف تعليم معاني القرآن الكريم كله في مدة معينة، الأمر الذي كان يجمع بين تعليم اللغة العربية والاتصال بالقرآن الكريم في وقت واحد. وكانت هذه الإدارة تهتم إلى جانب أعمالها العلمية بالدرس في القرآن الكريم يوما في أسبوع، ويقوم به الشيخ الندوي رحمه الله بنفسه كما كان هناك درس في الحديث النبوي الشريف على صاحبه الصلاة السلام،

يقوم بإلقائه الشيخ عبد السلام القدوائي رحمهم الله جميعا.

إن صلة الشيخ الندوي رحمه الله باللغة العربية وآدابها، والفرص التي تمتع بها الشيخ الندوي رحمه الله لمعرفة الأساتذة العرب و قراءة وتفهم المقررات الدراسية لتعليم اللغة العربية في العالم العربي، إضافة إلى الكتب الأخرى الموثوق بها في الأدب العربي ثم الاطلاع على آراء رجال التعليم القدامى مثل ابن خلدون، كل ذلك ساعد الشيخ الندوي رحمه الله على تعليم اللغة العربية بذلك المنهج المفيد الذي يجمع بين المنهجين القديم والجديد. وكان الشيخ الندوي رحمه الله معجبا بهذا النهج، وكان ساعيا لتنفيذ نفس المنهج في جميع المدارس التي كان يقوم بالإشراف عليها، وكان هذا المنهج يولي لتعليم اللغة العربية التي هي وثيقة الصلة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من الأهمية ما يليق بشأنها ومكانتها، وكان يقدم تعليم اللغة العربية على المواد الأخرى حتى مستوى معين، ثم كان يدخل المواد الأخرى من التفسير والحديث والفقه والعلوم الشرعية في المقررات مع المراعاة لمستوى الطلاب الذهني والعقلي.

كان الشيخ الندوي رحمه الله ينصح فيما يتعلق بتعليم تفسير معاني القرآن الكريم بمراجعة كتب التفسير الموثوق بها مرجعا لتحديد المعاني لئلا يقع الطلاب في ضلالة أو انحراف، غير أنه كان يختار الترجمة للقرآن الكريم كالأصل، وفي هذا الترتيب كان يرى أهمية العلوم وفائدتها، لكن هذا المنهج كان خاصا بطلاب ما قبل مرحلة الفضيلة، أما في مرحلة الفضيلة فكان يقول بتعليم هذه العلوم حسب الاختصاص، وكان هذا المنهج موافقا تمام الموافقة للمنهج الذي اختارته ندوة العلماء في دار العلوم التابعة لها، وبالتالي قرر الشيخ الندوي رحمه الله أن يحضر بعض الطلاب الذين كانوا تحت إشرافه المباشر في الدروس حسب ترتيبه بدون أن يلحقوا بها رسميا، وأن يتعلموا العلوم وفق نفس هذا المنهج، وقد نفذ هذا المنهج أحسن ما نفذ في تعليم ابن أخيه الشيخ محمد الحسني، الذي كان أبوه الشيخ الدكتور السيد عبدالعلي الحسني وهو خالي أيضا يرى هذا المنهج منهجا صحيحا، ومنه كان الشيخ الندوي رحمه الله يصدر في رأيه بهذا الخصوص.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يضع مسئولية كبيرة على عاتق الطلاب أنفسهم في تنفيذ هذا المنهج التعليمي في إطار تعليم اللغة العربية وآدابها، وكان لا يلقن الطلاب إلا بما يستحيل لهم معرفته بدون التوجيه أو التلقين، فكان يكلف الطلاب بقراءة عبارات الكتاب، والقيام بترجمتها، وكان يلزمهم بأن يراجعوا القواميس والمعلومات التي لديهم

لفهم العبارات قبل أن يدخلوا الصفوف، ولم يكن يتحمل في هذا الخصوص ما يصدر من الطلاب من خطأ بسبب قصور أو كسل، فكان يؤنبهم تأنيبا شديدا، وكان يروضهم على قراءة العبارات قراءة صحيحة، فكان الطلاب مجبرين إلى حد ما على بذل الجهود الذاتية في التعلم والدراسة، مما كان يخلق فيهم صلاحية وقدرة على قراءة العبارة قراءة صحيحة، واستنباط معانيها ومطالبها.

وأما فيما يتعلق بتعليم الحديث الشريف فكان لا يحبذ فيه من تفاصيل أبواب الفقه ما كان ضروريا ووثيق الصلة بموضوع الحديث، وكان يستحسن الشرح والإيضاح في الأبواب الأخرى التي تتعلق بالآداب والأخلاق والحياة الاجتماعية وفاء بضرورتها وأهميتها وتأكيدها، بل كان يشدد التركيز عليها أحيانا لأنها تساعد على تسحين الحياة وتطويرها.

أما تعليم التفسير فكان يرى من المناسب أن يقوم الأساتذة بالاستفادة من كتب التفسير، وتعليم الطلاب من متن القرآن الكريم نفسه فقط، ولكنه كان ينصح الطلاب أيضا بمراجعة كتب التفاسير كما سبق، وكان يستحسن من أساليب تعليم معاني الآيات القرآنية ما كان يساعد على تحسين حياة المؤمن، وعلى تبيين وتوضيح الأسلوب المعجز للقرآن الكريم وحسن بيانه.

إن المقررات الدراسية في دار العلوم التابعة لندوة العلماء أو أية مدرسة أخرى إذا كان أوكل ترتيبها أو تشكيلها إلى الشيخ الندوي رحمه الله فإنه كان يحاول أن يسير فيها على نفس تصوره هذا ما أمكنه ذلك. إن الشيخ الندوي رحمه الله كان يرى أن المنهج التعليمي مهما كان نوعه يجب فيه أن يراعى متطلبات العصر وحاجات الظروف، فيجب لذلك أن تعطى اللغات المتداولة السائدة أيضا حقها، كما يجب أن تدخل فيه المواد السائدة في المحيط العلمي، وخاصة المواد التي يحتمل أن يحتاج إليها، فالعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية والتاريخ والجغرافية والرياضيات والمعلومات المدنية التي هي لها مكانتها الخاصة في محيطها يجب أن يقسم لها نصيبها في المنهج التعليمي، ليكون الأخير جامعا وموافقا للضرورة، في رأي الشيخ الندوي رحمه الله.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يرى فيما يتعلق بالمناهج التعليمية في المدارس الدينية أن أكبر وأهم أهدافها تتمثل بترسيخ صفات الداعية والمؤهلات اللازمة للعمل التربوي في الطلاب وتوفير المعلومات اللازمة لهم، إضافة إلى المؤهلات التي تساعدهم على

توفير التوجيه الصحيح الإسلامي للأمة الإسلامية، ونشر الفكر الإسلامي الصحيح فيها، إلى جانب اختيار الطرق التي تجعل هذه الأخلاق العالية والآداب النبيلة والتي هي ضرورية لإيجاد المسلم الصالح والداعية المخلص جزءا لا ينفك عن حياة الطلاب. ولذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله يرى أن مجرد تعليم الطلاب المواد الدراسية ضمن المناهج التعليمية، وتأهيلهم فيها لا يكفي، بل من الضروري أن تتخذ ضمن المناهج التعليمية تدابير وطرق تساعد على تشكيل أخلاق الطلاب وترسيخ العادات الإسلامية الصحيحة فيهم، وأن يكون لهم إلى جانب الاكتساب النظري للعلوم التي يتعلمونها التدريب الفعلي والتجريبي على استخدام مؤهلاتهم العلمية. وتحقيقا لهذا الغرض كان الشيخ الندوي رحمه الله في بداية حياته التدريسية يخرج بالطلاب المتصلين به إلى القرى المجاورة في مساء يوم الخميس حيث كان يدربهم على الأعمال الدعوية إلى جانب تدريبهم على التحدث باللغة العربية، ويقضي أوقاتهم هناك إلى أن يرجع بهم مساء يوم الجمعة ليستأنف الأعمال الدراسية. كما كان إلى جانب ذلك يكلف الطلاب الذين كان لهم ذوق تحقيقي ومؤهلات علمية معينة، بالدراسة البحثية لصقل مهاراتهم ومؤهلاتهم، وكان يستعين بهم أيضا في بعض أعماله البحثية والعلمية مما يساعدهم على تقوية مهاراتهم البحثية والعلمية.

فإن الفكرة التي كان يحملها الشيخ الندوي رحمه الله نحو التعليم والتربية ومناهجها يمكن الاطلاع عليها في تقديم المقررات الدراسية لدار العلوم لندوة العلماء والذي دبجه الشيخ في بدايتها بعد إعدادها وترتيبها، كما يمكن الاطلاع عليها في كتابه بعنوان «نحو التربية الإسلامية الحرة» وهو عبارة عن مجموعة مقالات عربية كتبها الشيخ الندوي رحمه الله في موضوعات التعليم ومنهجه.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يؤيد فيما يتعلق بالتعليم الفكرة المعاصرة القائلة بأن التعليم ليس مجرد تعليم فقط، ولكنه تربية وتعليم معا، وهذا هو السبب في أن التعليم يعبر عنه بمصطلح التربية أيضا، ويقصد به تعريف النشء الحديث والجيل الجديد بالمعلومات الضرورية والفكر الصحيح إلى جانب التشكيل الجيد للأخلاق والاتجاهات الصحيحة، ولهذا يجب عند تشكيل المناهج التعليمية والمقررات الدراسية أن يراعى تحقيق هذا الغرض الحقيقي، وبالتالي يجب أن يدخل في المقررات الدراسية عند تشكيلها من الوسائل ما يحول هذه العلوم إلى علوم عملية ونافعة.

الباب الرابع

حركات ومؤسسات
مقاومة الفلسفات والأفكار الغربية
وإنشاء المجمع العلمي الإسلامي

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد درس في بداية تشكيل شخصيته العلمية والعملية نفسها سير وأعمال الشخصيات المتصفة بالمزايا والخصائص التجديدية في التاريخ الإسلامي، وكان قد عرف ما كانت الأوضاع عليه عندما سلمت الخلافة إلى سيدنا عمر بن عبدالعزيز، وما هي الأعمال الثورية الانقلابية التي أنجزها من خلال هذه الخلافة، وما كانت الأوضاع التي عاناها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، ومدى العزيمة والصبر والاستقامة التي أظهرها في تلك الأوضاع، كما اطلع على نماذج لكبار المصلحين المجددين من الغزالي وابن تيمية وابن القيم وابن الجوزية ومن بعدهم - وتحديدا في شبه القارة الهندية منذ القرة الخامس والسادس إلى القرن الرابع عشر الهجري من أمثل الخواجه معين الدين الجشتي، ونظام الدين الأولياء، والشيخ شرف الدين يحيى المنيري، والشيخ السيد أحمد الشهيد الذين كانوا يتمتعون بصفات ومزايا متنوعة وقدموا نماذج انقلابية معينة في عصورهم وأوضاعهم، وتمتع الشيخ الندوي رحمه الله خلال دراسته لهذه الشخصيات الجليلة وأعمالهم الكبيرة بإشراف وعناية الأساتذة والمرشدين الكبار الذين لعبوا دورا مميزا في شحذ فكره وتعميق شعوره، وكان لشقيقه الأكبر الدكتور السيد عبدالعلي رحمه الله دور أساسي في تشويق الشيخ الندوي رحمه الله في مثل هذه الدراسة والمطالعة، وكانت هذه هي الدراسة التي جعلت أعمال الشيخ الندوي رحمه الله الإصلاحية المتعددة الجهات والمجالات تحمل أهمية خاصة، والتي جعلت الشيخ الندوي رحمه الله يتم أول أعماله التأليفية بعنوان «سيرة السيد أحمد الشهيد»، وهو العمل الذي تلقفته الطبقة الواعية المثقفة من المسلمين في شبه القارة الهندية بقبول واسع، وأولاه العلماء الواعون المهتمون أهمية كبيرة، وأشادوا به إشادة عظيمة، واعتبروه وسيلة لافتة للنظر هامة إلى ضرورة توفير القيادة الخاصة للأمة الإسلامية.

إن المنهج الذي اكتسب من خلاله الشيخ الندوي رحمه الله العلوم والمعارف كان منهج ندوة العلماء الذي لا يعير للاختلافات الفقهية والعصبية المذهبية من الأهمية ما يخصص لها في الدوائر المتشددة مذهبا، وينظر إلى ضرورة الأمة الإسلامية وحاجاتها المترامية الأطراف في إطار أوسع بناء على دراسة موسعة للتاريخ، فلم يقتصر فكر الشيخ الندوي رحمه الله على ما يدور في شبه القارة الهندية فقط، بل شمل بفكره واهتمامه البلدان العربية والأعجمية معا، وكان شقيقه الأكبر هو الآخر يحمل نفس الفكر والاتجاه، فبينما كان يهتم بالاطلاع على أوضاع المسلمين وحاجاتهم الدينية في شبه القارة الهندية في جانب كان في جانب آخر لا يرى من الصحيح أن يقتصر الاهتمام على هذه المنطقة فقط في الوقت الذي كانت فيه مناطق المسلمين الأخرى تتعرض لاضطهادات ومظالم القوى الاستعمارية البريطانية في المناطق الشرقية، وكان في اهتمامه بمناطق إفريقيا الشمالية والشرق الأوسط وجزيرة العرب وهي مركز الإسلام ومركز عظمة المسلمين التاريخية يتمثل بالحديث النبوي الشريف «من لم يهتم بأمرنا أو بأمور المسلمين فليس منا» وكان كثير القلق والاهتمام على ما يجري للمسلمين في النيبال، والمخاوف التي تحيط بالحرمين الشريفين، والمظالم و أنواع الاضطهاد التي ترتكب فرنسا وإيطاليا في حق المسلمين في المغرب وطرابلس، وما هي المشاكل والمصاعب التي يتعرض لها المسلمون في البلدان والدول الإفريقية، وما هي الأوضاع في إسبانيا، وما هي الدول التي تحدث فيها القوى الاستعمارية البريطانية الخسائر والأضرار للدين الإسلامي وأتباعه..... كانت هذه مشاعر وعواطف ورثها الشيخ الندوي رحمه الله عن شقيقه الأكبر، وبيئته العائلية، وعن بعض أساتذته ومرشديه، كما أنه تمتع من بين أساتذته المشفقين بعناية العلاّمة خليل العرب اليماني، والعالم الجليل الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، وعمه السيد طلحة الحسني، وهو أستاذ في كلية لاهور الشرقية، الذي أحاطه بعنايته واهتمامه الخاص بعد وفاة والده رحمه الله في طفولته، وساعده في الاجتماع بعدد كبير من الشخصيات الكبيرة في لاهور والبنجاب، وحصل للشيخ الندوي رحمه الله من الفوائد والمنافع ما يحصل من خلال اللقاء مع مثل هذه الشخصيات. كانت هؤلاء الشخصيات الذين اجتمع بهم الشيخ الندوي رحمه الله تجمع بين المتخصصين في العلوم العصرية والعلماء المهرة في العلوم الدينية، ولم يكن السيد طلحة الحسني رحمه الله يستهدف من وراء هذه الاجتماعات إلا توسيع فكر الشيخ الندوي رحمه الله وتكبير إطار معرفته واطلاعه. وخلال هذه اللقاءات

لقي الشيخ الندوي رحمه الله الدكتور العلاّمة إقبال شاعر الشرق ودار الحديث بينهما حول موضوعات علمية وفكرية.

فكانت هذه هي المشاعر والعواطف التي حملت الشيخ الندوي رحمه الله على تأليف كتابه الرائع «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي تناول فيه الشيخ الندوي رحمه الله تاريخ الإسلام وإنجازاته الإصلاحية والأخلاقية والحضارية على أن هذه الأمة الإسلامية بدأت أعمالها بقيادة العالم الإنساني، وأدت دورها أحسن أداء لعدة قرون، ثم تسرب إليه الضعف والقصور في استقامتها على جادة الحق، فتخلفت عن الآخرين بعد كانت متقدمة عليهم، وكيف أن الآخرين عند ما تسلموا القيادة والزعامة ارتكبوا الظلم والطغيان، وبين ما هو النهج العملي الذي يضمن لهذه الأمة بقاءها وعزها؟

كانت عملية تأليف الكتاب من هذا النوع بحاجة إلى معرفة دقيقة وعميقة لأوضاع المسلمين وغيرهم، كما أنه كانت هناك حاجة ماسة إلى أن يتعرف على أحوال الآخرين بلغتهم ولسانهم أيضا إضافة إلى استعراض الماضي دون الاقتصار على الحاضر، ولكن الشيخ الندوي رحمه الله لم يواجه لمعرفته الواسعة والدقيقة للغة المتداولة واللغة العربية وأساليبها القديمة والحديثة تلك المشكلة التي يواجهها من لا يتمتع بالمهارة اللغوية والبيانية التي كان يتمتع بها الشيخ الندوي رحمه الله، فقد لقي الكتاب قبولا واسعا استثنائيا في العالم الإسلامي، وزال عن القراء ما كان ينتابهم من الإبهام والتعقيد فيما يتعلق بتقدم المسلمين وتخلفهم، وعرفوا من خلاله النهج العملي القابل للتطبيق للرجوع بأنفسهم إلى المكانة الصحيحة وإلى مسيرة التقدم والازدهار.

ما كان الشيخ الندوي رحمه الله سافر حتى هذا الوقت إلى أي بلد خارج شبه القارة الهندية، ولكنه سعد قبل أن ينهي كتابه وهو في مراحله الأخيرة برحلة حج بيت الله الحرام، وأتيحت له فرصة هنالك للاجتماع بعدد من الشخصيات المختلفة الكبيرة من العالم الإسلامي، فتبادل معهم أرائه وأفكاره، فاستفاد الشيخ الندوي رحمه الله خلال هذه الاجتماعات مزيدا من المعلومات لهذا الكتاب، وبعده بقليل صدر هذا الكتاب. ثم سنحت له فرصة ثانية للحج وذلك بعد ثلاث سنوات، وقام الشيخ الندوي رحمه الله بعد انتهائه من أداء أركان الحج بجولات في العالم الإسلامي.

هذه الجولة للشيخ الندوي رحمه الله جاءت في الوقت الذي كان فيه زعماء المقاومة للقوى الاستعمارية في شمال إفريقيا وآسيا الوسطي قد طردوا من بلادهم، وكانوا قد التجئوا بشكل عام في مصر، فحصل للشيخ الندوي رحمه الله لقاء واجتماع بأغلب هذه الشخصيات البارزة خلال رحلته إلى مصر، واستفاد منهم معلومات كثيرة كما اطلع على انطباعاتهم تجاربهم التي مروا بها في نصرة الحق وكذلك على اتجاهاتهم وميولهم في المجالات العملية، وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد عرف بينهم من خلال كتابه الرائع «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، مما أدى إلى وجود تشابه ومشاركة في اهتمامهم وقلقهم على أوضاع الأمة وأحوالها، وكانت هذه هي الجولة التي لم تكد تمضي عليها عدة سنوات إلا وشهدت معظم هذه المناطق حكوماتها مستسلمة وخاضعة للقوى الاستعمارية، الأمر الذي خلق في الشعوب من الاستياء والامتعاض ما أدى إلى حدوث انقلابات عسكرية في مناطق عديدة، وهي تستهدف إصلاح الحال وإصلاح الحكومة، غير أنها تدرجت في الإساءة والإفساد، فاطلع الشيخ الندوي رحمه الله على الأوضاع المقلقة التي ظهرت بسبب الاضطهادات التي ارتكبتها الحكومات العسكرية. ثم حصل للشيخ الندوي رحمه الله رحلة بعد فترة وجيزة إلى بلاد تركيا والشام، وشاهد بأم عينه الأوضاع المؤسفة التي كانت نتيجة مباشرة لسياسات الحكومة العسكرية المعادية للإسلام من أربعين سنة في تركيا. إن مصطفى كمال في تركيا الذي عرف بالمجاهد ثم بأتاتورك فيما بعد تحول إلى آلة لقمع الاتجاهات الإسلامية والسير بتركيا إلى العلمانية الملحدة، وكان ذلك في أغلبه نتيجة سياسة بريطانيا الماكرة بصفة خاصة. كل هذه الأمور جعلت الشيخ الندوي رحمه الله يهتم ويقلق كثيرا على أوضاع العالم الإسلامي، فألف نتيجة لذلك كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» الذي استعرض فيه الشيخ الندوي رحمه الله ما يلحق بالعالم الإسلامي من مصائب وويلات بشكل عام جراء التصادم والتحارب بين الفكرة الإسلامية والفكرة الاستعمارية الغربية، كما قدمت فيه إلى جانب الاستعراض والتحليل حلول مناسبة لهذه المشاكل، وبين فيه مبدئيا أن الغرب سيطر وتفوق على الشرق بالعلوم والوسائل الحديثة، وهو السبب في أنه يستهدف المسلمين – رغم كونهم أهل حق – بالغلبة وعليها بالظلم والطغيان، فكأنه يعاقب المسلمين بما ارتكبوه من كسل وغفلة في حصولهم على التطور والتقدم العلمي ووسائل القوة.

يتجلي فكر الشيخ الندوي رحمه الله بكامله من خلال كتابيه هذين بشكل واضح، كما أن الشيخ الندوي رحمه الله رأى من المناسب أن يقدم - تحقيقا لإصلاح الحال واختيار الوضع الأفضل- لأهل العلم والفكر تلك الوقائع والمجهودات التاريخية التي يحتمل أن تشكل أنموذجا للأمة الإسلامية للحصول على زعامة العالم، فألف كتابه الجديد «رجال الفكر والدعوة».

يتجلى بشكل كامل مما سبق من صفات الشيخ الندوي رحمه الله وأحواله كم كان الشيخ مهتما بأحوال الأمة الإسلامية، ويمكن أن نقدم في هذا الصدد ما كان يقوم به الشيخ من أعمال كبيرة حيث كان يلفت انتباه أهل السلطة وعنايتهم - في أي بلد ومنطقة كانوا- إلى خدمة البلاد والشعوب بأحسن أسلوب وألطف بيان، وكان يجتمع بهم ويراسل معهم أيضا، كما أنه كان يعبر عن أرائه وفكره في اجتماعات عامة، إلى جانب انتقاداته للقيادات التي تسير بالأمة والبلاد مسيرة خاطئة. وكانت هذه الانتقادات من الشيخ الندوي رحمه الله يصعب فهمها في بعض الأحيان على الذين لم يكونوا قد درسوا أو اطلعوا على العالم الإسلامي وأوضاعه بشكل جامع وشامل، وكان بعضهم ممن كان لهم نفوذ وقبول في البلاد يعارضوا أفكار الشيخ الندوي رحمه الله هذه غير أنه لم يكن يمتنع من بيان الحق وإبداء ما كان يراه صحيحا ومناسبا، مع أن الأوضاع التي كان الشيخ الندوي رحمه الله ينتقدها لم تكن ظاهرة وواضحة في تلك الدول الإسلامية في ذلك الحين بشكل يحس به الجميع إلا أن العالم كله شعر وعرف بأن ما كان الشيخ الندوي رحمه الله يقوله كان هو الحق بعد ما ظهرت الأوضاع والأحوال بشكل تدريجي.

كان الشيخ الندوي رحمه الله انتقد بشدة مصطفى كمال بعد عودته من رحلته إلى تركيا، وكان اعتبره يرتكب أعمالا معادية للإسلام، بينما كان العلماء المسلمون في الهند حتى ذلك الوقت يعتبرونه كمال باشا المجاهد، فاستغربوا من انتقادات الشيخ الندوي رحمه الله له على أساس أنه كان يعلن المجاهد الإسلامي عدوا للإسلام. وكذلك لما رجع الشيخ الندوي رحمه الله من مصر أثنى على الإخوان المسلمين لحميتهم الدينية والإسلامية، وذلك في الوقت الذي كانت المصادمات والاشتباكات قد بدأت فيه بين زعيم مصر العسكري جمال عبدالناصر وبين الإخوان المسلمين، مما أثار غضب الزعماء والعلماء المسلمين في الهند أيضا، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله لم يبال بغضبهم وسورتهم، بل دلل على موقفه الصحيح من جمال عبدالناصر، واتجاهاته وميوله المعادية والمضرة

بالأمة الإسلامية، وعارضه معارضة مفتوحة، فابتلي زعماء الهند وعلماء الأمة بالاستياء والامتعاض، ولكن الشيخ الندوي رحمه الله كان يعرف جيدا أن جمال عبد الناصر كان حليفا للإخوان المسلمين، كان يشاطرهم الاهتمام والتفكير فيما يتعلق بالأمة الإسلامية، غير أن الإخوان المسلمين عندما طالبوه بإصلاح الوضع حسب مبادئهم تحول جمال عبد الناصر - بغض النظر عما كانت مصلحته الذاتية، والضغوط الخارجية عليه- إلى معارض للإخوان المسلمين، وأثبتت الأوضاع اللاحقة أن ما طالب به الإخوان المسلمون الحكومة المصرية كان صحيحا، وأن حياتهم الدينية والخلقية كانت معيارية وإسلامية، وكانت شدة القائد العسكري في المقابل قد بلغت من الظلم والبربرية حدها، وكانت أفكاره ومواقفه قد أدت بمصر والعالم العربي كله إلى مخالفة عواطف الحمية الدينية إلى اتجاهات الإلحاد والعلمانية، ووقعت في شرك للتأييد والانحياز للأهداف الاستعمارية، وكانت السياسات في البلاد يتم تشكيلها وتعديلها بما يناسب وجهة النظر الاستعمارية بعينها، وكان ذلك يتم نتيجة لما كان يدور من نزاع وصراع على السلطة والنفوذ بين روسيا وأمريكا، وهو الأمر الذي جعل مصر تعاني من ويلات حربين وتتحمل ما تحملته دمار وفساد.

كما شهدت بلاد الشام أيضا وضعا مماثلا في الانقلاب الذي حصل فيها، ذلك أن الانقلاب العسكري الذي حدث فيها بهدف إصلاح الحال تحول إلى انقلاب حقق سيطرة فرقة منحرفة إسلامية وهي فرقة الدروز، وعانى بسببها الإسلاميون من مشكلات كبيرة.

ثم شهد العراق انقلابا عسكريا، قاده جمال عبد الناصر بشكل علني، وتلته انقلابات عسكرية متتالية، أدت إلى وصول أحمد حسن البكر وساعده الأيمن الرئيس صدام حسين إلى كرسي الحكم. وما مر به الشعب العراقي نتيجة لذلك من معاناة شديدة في سبيل الحفاظ على إسلامه وحريته الديمقراطية وما واجهه من الظلم والعدوان ليس بأمر خاف الآن، وقد اعتبر الشيخ الندوي رحمه الله ذلك كله من مظاهر الصراع بين الإسلام والفكرة الغربية نفسه، ودعا الناس ولفت انتباههم إلى المؤامرات والعداءات الغربية للإسلام وإلى ضرورة الخروج من دوامة تحويل الاتجاهات الإسلامية إلى الاتجاهات المعاكسة في الدول الإسلامية، ولم يكتف بما ألف وجمع في كتبه بل لفت أيضا انتباه الزعماء المسلمين الذين سنحت له فرص اللقاء والاجتماع بهم، وكل ذلك يدل على مدى

تألم الشيخ الندوي رحمه الله لأمته الإسلامية وقلقه واهتمامه بإصلاح أحوالها وأوضاعها علما وعملا. وهي صفة قلما نجد لها مثالا عند غيره من المصلحين والمفكرين في الأمة الإسلامية[1].

من النظريات السائدة في البلاد العربية والتي كانت تدعم وتؤيد القوى الاستعمارية كانت أهمها وأخطرها والتي كان ظاهرها حلوا وباطنها شرا مسموما هي النظرية القومية، التي أول من دعا إليها ميشل عفلق السوري المسيحي المتغرب، وهي تتمثل بادعاء أن ما يمتازبه العرب من محاسن وأمجاد يتأسس على عنصرهم العربي، وينبغي للشعوب العربية أن تتباهى بعنصرها العربي القديم، وأن تصوغ حياتها بمختلف جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية في قالب هذه النظرية القومية. واشتدت هذه الدعوة والحركة خطورة وشدة عندما تبناها الزعيم الكبير والدكتاتور العسكري جمال عبدالناصر مما أدى بتحويل العالم العربي كله على المستويين النظري والعملي إلى وجهة نظر لا تتيح للإسلام إلا ركنا في الحياة العامة، وكان العرب الذين امتازوا على الآخرين بالإسلام مفخرة وعظمة، على خطر أن يحرموا من خصوصيتهم الأساسية هذه، وهناك شعوب كثيرة في تاريخ العالم قصرت نفسها في إطار عنصري أو لغوي ضيق فسلمت نفسها إلى زبالة التاريخ مثل الشعوب الأخرى، وقد كان يخشى أن يحدث للعرب أيضا مثله جراء هذه النظرية، وأهم من ذلك أن الميزة التي امتاز بها العرب من خلال صلتهم بالإسلام والمكانة العظيمة التي ارتقوا إليها من خلاله كادت تتلاشى، فكأنه دبرت هنالك حيلة أو سياسية ماكرة للقضاء على إسلامهم عن طريق غير مباشر. فتصدى الشيخ الندوي رحمه الله لمقاومة هذا الموقف، وصرح بأنه وإن كان عربي الأصل والنسل يعتقد القومية العربية

(1) كما يمكن فهم وجهة نظر الشيخ الندوي رحمه الله تعالى هذه من هذين الكتابين اللذين تم ذكرهما، تظهر وجهته هذه بكل وضوح وقوة في رحلاته القيمة التي سجلها الشيخ الندوي رحمه الله تعالى، بعنوان « مذكرات سائح في الشرق العربي» فيما يتعلق ببلاد مصر والسودان والشام، و«أسبوعان في تركيا» فيما يتعلق بتركيا، و» في المغرب الأقصى» فيما يتعلق بالمغرب، و» من نهر كابل إلى نهر اليرموك» فيما يتعلق بأفغانستان، وإيران، ولبنان، والأردن، و « بين العالم وجزيرة العرب» فيما يتعلق بالجزيرة العربية، وكذلك في المكاتبات والرسائل التي وجهها إلى الأمراء والملوك العرب. كما قام الشيخ الندوي رحمه الله تعالى بزيارة للبلدان الغربية أيضا، بما فيها أوروبا وأمريكا، وقد جاءت أفكاره وانطباعاته عن هذه البلدان في محاضراته وكتاباته، التي طبعت بعنوان « مغرب مي صاف صاف باتين» و « نئي دنيا أمريكة مين» و « شهران في أمريكا» أيضا.

عداء سافرا للإسلام، وإن أية عصبية سواء أكانت على أساس العنصر أو اللغة تبعث على التمزق والتفرق، وتدمر القيم الإنسانية، فكتب الشيخ الندوي رحمه الله مقالات قوية في هذا الموضوع منها «اسمعوها مني صريحة أيها العرب» و«إلى الراية المحمدية أيها العرب». ثم كتب الشيخ الندوي رحمه الله في ختام إحديرسائله شعر الدكتور محمد إقبال وألقاه في بأسلوب مؤثر للغاية في إحدى الاجتماعات المنعقدة في مدينة دهلي، وكان الشعر الذي ترجمه الشيخ الندوي رحمه الله إلى اللغة العربية هو:

نهين وجود حدود وثغور سي اس كا محمد عربي سي هي عالم عربي

يعني أن العالم العربي لا يقوم له وجود بإقامة الحدود، ورسم الثغور، ولكنه يقوم بصلته القوية بمحمد العربي.

وسنحت للشيخ الندوي رحمه الله أن يعرب عن رأيه هذا بقوة وصراحة في إحدى جلسات رابطة العالم الإسلامي المنعقدة في مكة المكرمة، وقد كان شارك فيها الزعيم الفلسطيني الراحل السيد ياسر عرفات، وبين أن قضية فلسطين قضية المسلمين أجمعين، وليس من الواقع أن تعتبر قضية فلسطين قضية عربية محضة من جانب كما أن ذلك لا يفيد إطلاقا في حل القضية من جانب آخر. فلا بد من تسوية هذه القضية بحماس ديني، كما قام به سلفنا القديم، فإذا انتهجتم هذا المنهج فإنكم سوف تذكرون في التاريخ كما يذكر السلطان صلاح الدين الأيوبي، وإلا فإن هذه القضية سوف تكون عرضة لسياسات القوى الاستعمارية، وتضيع فيها دماء الأبرياء، فاعتبروها قضية إسلامية، واعملوا على حلها بالعاطفة الإسلامية وفي ضوء التعاليم الإسلامية، يدعمكم ويقوم بجانبكم العالم الإسلامي كله.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد أعرب عن مثل هذا الرأي قبل ما يقارب عقدا من الزمن في جامعة دمشق، وكان حدد وذكر بصراحة الجوانب اللازمة لتسوية قضية فلسطين، والأسباب التي قد تسيء إليها في رسالة له بعنوان «كارثة فلسطين وعواملها الحقيقية».

لم يعجب بتصريح الشيخ الندوي رحمه الله وبرأيه أولئك العرب الذين كان أدهشهم ظاهر القومية العربية، ولكن عندما بدأت نتائجها السيئة وآثارها المضرة تظهر بشكل تدريجي فإنهم هم الذين كان ساءهم هذا التصريح أشادوا ببصيرته النفاذة وكلامه

الجريء، فلم يزل الشيخ الندوي رحمه الله ينادي بذلك ويدعو إليه، فعندما اندلعت العصبية اللسانية وكشرت عن أنيابها في بنجلاديش، وأدت إلى نشوب اشتباكات عنيفة بين أهل اللغة الهندية وأهل اللغة البنغالية، قام الشيخ الندوي رحمه الله ينتقد هذه العصبية اللسانية واعتبرها نظرية متعارضة مع القيم الإنسانية، ومنافية لوجهة النظر الإسلامية الصحيحة، حيث إن قبول هذه النظرية سوف يهدم الأساس الإسلامي ويحل محله الأساس العلماني الملحد، وهو ما تشتمل عليه رسالة له بعنوان «كارثة التعصب اللغوي والثقافي».

وملخص القول بأن الشيخ الندوي رحمه الله جعل عداء الغرب للإسلام وضرر التعصب اللغوي موضوع الحديث في محاضراته وكتاباته وذلك بشكل علني وصريح، وأعلنها خطرا كبيرا على الأمة الإسلامية، ودعا إلي الأخوة الإسلامية، والقيم الإسلامية الصحيحة، وبين أن نعمة الله في الآية الكريمة «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها» يقصد بها هو الإخاء الإسلامي، والروح الإسلامية التي تجمع المسلمين كلهم تحت راية الرابطة الإسلامية، وتجعلهم يسيرون على منهج يوافق الروح الإسلامية الصحيحة. يمكن الاطلاع على أفكار الشيخ الندوي رحمه الله هذه، والجهود المبذولة من قبله في هذا المجال في أغلب كتبه ومصنفاته رحمه الله رحمة واسعة.

إن الجانب الخطير من الفكرة الغربية لم يكن الجانب السياسي فقط في رأي الشيخ الندوي رحمه الله. إن الجانب السياسي منها كان ولا يزال بمثابة آلة ووسيلة، لكن الجانب الخطير منها هو جانب النفور من الدين، والإعراض عنه، إن الثورة على الدين التي حصلت في أوروبا خلال القرون الماضية كانت قد وضعت الدين والسياسة في جانبين منفصلين، فكان الجانب السياسي يشتمل على الحضارة والأخلاق بينما كان الجانب الديني يقتصر على ما يتم أداؤه من الأعمال داخل الكنيسة، وهكذا تم فصل الحياة الإنسانية وأمورها عن الدين، فالدين في حياة الشعوب الغربية مقصور على أعمال الكنيسة، لكن الإسلام يرى الدين يتصل ويتدخل في جميع شؤون الحياة، ذلك أن الدين في نظر الإسلام هو أن يعيش الإنسان حياته كلها حسب تعاليم الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم ﷺ، وعلى هذا فإن الدين يتصل بكل جانب من جوانب الحياة من وجه أو آخر، وبالتالي لا

يمكن فصله عن أي جانب من جوانب الحياة. وأما النظريات التي قدمها لنا المفكرون الغرب والمثقفون بالثقافة الغربية فإنها ترى الدين الإسلامي دينا قديما باليا ومنهجا فاشلا للحياة، إلى جانب أن العقل الاستعماري في الدول الغربية يحمل سياسة إخضاع الشعوب الشرقية التي هي في معظمها دول إسلامية لرغباتها ومصالحها، إضافة إلى أنهم لم يستطيعوا أن ينسوا مرارة ما حصل بينهم وبين الدول المسلمة من احتكاك واشتباك في القرون الماضية، وبالتالي يحملون في حنايا قلوبهم عاطفة انتقامية ضد المسلمين، ومن هنا فإن النظريات الجمهورية والإصلاحية التي يتقدمون بها هي في الحقيقة تكن إشارات ومحاولات للفصل بالمسلمين عن العاطفة الإسلامية. وإن النظرية القومية هي الأخرى من تلك النظريات التي يعني تبنيها الانفصال عن الروح الإسلامية والعاطفة الدينية.

إن الأمور التي حظرها الإسلام ونهى عنها هي ضرورة لازمة للحفاظ على المجتمع الإنساني والفرد الإنسان، والقيم الإنسانية، وبالتالي فإن أية نظرية قائلة بفصل الدين عن الحياة ربما تكون مقبولة عند أية ديانة أخرى غير أن أهل الإسلام لا يمكنهم أن يقبلوها، لأن ذلك لا يسلب الإنسان إسلامه فحسب بل يسلبه القيم الإنسانية أيضا، ولذلك اعتبر الشيخ الندوي رحمه الله الجانب المضر من الفكرة الغربية وهو جانب فصل الدين عن الحياة جانبا مضرا وخطيرا للغاية، وظل يتكلم ويخطب ضده باستمرار في مقالاته ومحاضراته، وبما أن هذا الجانب من الفكرة الغربية بدأ يعم وينتشر مع انتشار الثقافة الغربية بشكل كبير كان موقف الشيخ الندوي رحمه الله منه موقفا أشد، وقد ذهب الشيخ الندوي رحمه الله في بعض محاضراته إلى درجة أن قال بأن الأوضاع في تغير مستمر لدرجة أنه إذا تحققنا ممن يدفنون في مقبرة المسلمين لا يمكن إدراج كثير منهم في عداد المسلمين، على أساس أن الإنسان إذا لا يؤمن بالقيم الأساسية للإسلام فإن مجرد التسمية بالأسماء الإسلامية أو الولادة في بيت المسلمين لا يجعله مسلما عند الله سبحانه وتعالى أيضا، ولذلك من أمس الحاجة أن نتفكر ونهتم بتصحيح إسلامنا. وإن المقال الأهم الذي كتبه الشيخ الندوي رحمه الله تحقيقا لهذا الغرض كان بعنوان «عاصفة يواجهها العالم الإسلامي» ونشر من المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ، ثم تقرر بعد تنبيه الشيخ الندوي رحمه الله على هذا الجانب أن يتم كتابة المقالات وبذل الجهود في هذا الموضوع لأن هذا المرض منتشر بسرعة في الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية الحديثة.

فقال الشيخ الندوي رحمه الله في إحدى مقالاته وهو يؤكد على هذا الموضوع:

«إن جهاد اليوم وفريضة الساعة وأكبر حاجة دينية في هذا العصر هو المقاومة والتصدي للأمواج العاتية للعلمانية التي تحيط بالعالم الإسلامي، لا، بل التقدم والاستباق للهجوم على مركزها وقلبها، وإن العمل التجديدي اليوم هو إعادة الثقة في الشباب والطبقة المثقفة بمشاعر الإسلام وعقائده، ونظامه وحقائقه، وبالرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، التي تضعف صلتها بهذه الطبقة، وإن أكبر عبادة اليوم هي أن نوفر العلاج للاضطراب الفكري والعقد النفسية التي يقع فيها شباب اليوم المثقف، وأن نقنع عقليته وفكره العلمي بالإسلام وأن نملأه بالثقة فيه. إن أكبر جهاد اليوم يتمثل بمواجهة أفكار الجاهلية التي عششت في العقول والقلوب في مجالات العلم والعقلانية، حتى تحل محلها مبادئ الإسلام وأسسه بكامل العواطف الإيمانية.

كاد يمضي قرن كامل منذ بدأت أوروبا تبيت على شبابنا وطبقتنا المثقفة، إن هناك طوفانا من الشك والإلحاد والارتياب والنفاق قد أحدثته أوروبا في قلوبنا وعقولنا، فالإيمان بالحقائق الغيبية متزلزل، ومتضعضع، وتتمكن منها النظريات السياسية والاقتصادية المادية، وهذه السلسلة من الانهزامية مستمرة ومتصاعدة منذ قرن، ولكننا لم نقم لمقاومتها ومواجهتها، ولم نهتم بأن نقوم بإضافة شيء إلى ما عندنا من تراث علمي قديم حسب ما يتطلبه منها مقتضيات الزمان والمكان، شعورا منا بأنها هي الأخرى فريضة علينا، ولم يمر ببالنا نحن أبدا بأن نقوم باستيعاب وفهم الفلسفات الغربية، ثم نقوم بمحاسبتها علميا وفكريا، بل نقوم بإجراء عملية جراحية لها مثل الجراحين البارعين. إن وقتنا كله ظل ينفذ ويضيع في مناقشات ومناظرات سطحية ضحلة، لا خير فيها إلى أن فوجئنا بمشهد خطير رأينا فيه الإيمان والعقيدة يتزلزلان، وقد صعد إلى كرسي الحكم جيل جديد قد تربى على أنه لا يؤمن بمبادئ الإسلام وعقائده، ولا هو يفيض عاطفة إسلامية ولا حمية دينية، ولا له علاقة بشعبه المسلم المؤمن إلا أنه يدرج كلمة الإسلام في خانة الديانة، أو له من العلاقة إن وجدت ما يتصل بالمصالح السياسية، و لا توجد له علاقة غيرها، وقد تفاقم الوضع الآن بحيث أن تسربت العلمانية وطريقة التفكير الإلحادية إلى الجمهور أيضا من خلال الصحافة والأدب والسياسة، والمسلمون محاطون بعلمانية عامة، وقد اقترب الوقت - ولا سمح الله - أن يتم فصل

الدين الإسلامي أيضا عن مجالات الحياة»[1].

وتحقيقا لهذا الغرض نفسه تم إنشاء المجمع العلمي الإسلامي برئاسة الشيخ الندوي رحمه الله عام 1959م، والذي بدأ ينشر ويطبع الكتب والرسائل طبقا لوجهة النظر هذه، وقد ناهز ما صدر منها من الكتب والرسائل على 200 في حياة الشيخ الندوي نفسه رحمه الله، كما أنه نشر كتابات نافعة باللغات الأردية والعربية والإنجليزية تم إعداد جزء كبير منها تحت رعاية المجمع العلمي الإسلامي نفسه.

وقد كان للشيخ إسحاق جليس الندوي والدكتور اشتياق حسين القريشي رحمهما الله تعاون كبير في هذا الصدد، حيث كان الشيخ إسحاق الندوي يقدم تعاونه في الأمور الإدارية والعلمية بينما كان الدكتور اشتياق القريشي يتعاون تعاونا مهما فيما يتعلق بالتعريف بالمجمع العلمي وتعزيز ميزانيته المالية من خلال اهتمامه الخاص وجهوده المخلصة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله كثير الاهتمام بهذا المجمع العلمي الإسلامي، وكان يعير أهمية خاصة للعمل من خلال هذا المجمع، كما كان الشيخ الندوي رحمه الله يهتم بنقل أعماله وكتاباته هذه إلى لغات أخرى أيضا، فكلما اتسعت دائرة سمعته وطار صيته وعرفت أهمية أعماله في المراكز الكبرى نقلت كتبه في اللغات الأجنبية الأخرى، وقد ترجمت معظم كتاباته إلى اللغة التركية وغيرها من اللغات في العالم.

كان المجمع العلمي الإسلامي بدأ إصدار الكتب باللغات الأربع وهي اللغة الأردية والعربية والإنجليزية والهندية، وقد صدر من المجمع لحد الآن ما يزيد على 300 إصدار، منها ما تكرر إصداره، كما أنه بدأ الآن العمل في اللغة البنغالية أيضا، إلى جانب نقل الكتب إلى بعض اللغات المحلية الهندية. كان المجمع من أول يومه يستهدف تحقيق الخير للإنسانية والدعوة إلى الإسلام وإصلاح المجتمع، وبالتالي إنه بعث بمنشوراته وإصدارته بغض النظر عما يلحقه من الخسائر المادية المالية إلى معظم مناطق العالم كما أنه قام بتوزيع الكتب على الطلاب لترشيدهم في المجالات الفكرية والعقلية.

(1) عاصفة يواجهها العالم الإسلامي ص 26-27 من منشورات المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ، الهند

محاولة لإبراز تصور الأدب الإسلامي
وإنشاء رابطة الأدب الإسلامي

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد أحس إحساسا كاملا بعد ما أتم دراساته بأن العصر الحالي لضعف المسلمين وفشلهم في الاحتفاظ بمكانتهم الرفيعة في مختلف مجالات الحياة إنما بدأ قبل ما لا يزيد على خمسة أو ستة قرون، وهو الوقت الذي نهضت فيه الشعوب الغربية لتخرج من جهلها الحالك وظلامها العلمي، وقام العقلاء والحكماء فيهم باحتضان فكرة الاستفادة من المؤسسات العلمية الإسلامية لاتخاذ وسائل العلم وآلات الفن، مما أنتج بصفة تدريجية في أن هذه الشعوب الغربية استفادت من غفلة المسلمين وتقدمت عليهم في مختلف مجالات الحياة، وانتهت وذلك قبل ثلاثة قرون من الزمن إلى أن حصلت على فرصة للغلبة على المسلمين بل على جميع دول الشرق لما كانت تتمتع به من تفوق في وسائل القوة المتعددة، ولم تستطيع الدول الشرقية أن تقاومها وتقوم في وجهها لما كانت فيه من أوضاع متدهورة متردية باستمرار. وهذه الهزيمة والانتكاسة كانت أشد ظهور وأكثر بروزا في مجالين: مجال التفوق العلمي، ومجال الغلبة السياسية، ومضت ثلاثة قرون على نفس هذه الحالة، وسنحت للعقلاء والمثقفين من الغرب خلال هذه الفترة فرص كثيرة للعمل في المجالين العلمي والتعليمي، و بالتالي التأثير على الشعوب الشرقية.

وهذه الفترة بالنسبة للشعوب الغربية كانت فترة حدث فيها صراع شديد في عقول عقلائها وعلمائها فيما يتعلق بالدين والدولة، فجعلوا حدا فاصلا بين الدين والدنيا، وأطلقوا للفرد الحرية الكاملة في أعماله ومعاملاته الشخصية، بينما ألزموه بالخضوع الكامل لسياسة الدولة في الأمور السياسية والاجتماعية، مما أدى إلى تفشي الفوضى الفكرية والخلقية، وإتاحة الفرص للإلحاد والعلمانية للانتشار والشيوع، فالكتابات التي ظهرت خلال هذه الفترة كانت متأثرة للغاية بهذه الاتجاهات الجديدة تحمل آثارها وظلالها الكثيفة. إن هذا الأسلوب – إن لم يكن متعارضا مع أية ديانة أو فكر آخر– لا يتوافق مع المنهج والفكر الإسلاميين، لأن الإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا، ولا يفصل السياسة عن الأخلاق، ليترك الحياة هملا. لكن المنهج الغربي والنظرية الغربية تبنت هذا التقسيم وهذا الانفصال وعملت على ترويجه ونشره، وبالتالي حيثما تمكنت السلطة

الغربية وانتشر فيها نفس هذا النوع من الكتابات بسبب نفوذها وتأثيرها تشكلت فيها العقول والأفكار على نفس الشاكلة التي يمكن أن تتشكل بمثل هذه الكتابات الإلحادية والمتحررة من قبضة الدين والأخلاق.

إن الطبقة المثقفة الواعية من المسلمين رأت في التحول الفكري والاقتصادي الذي حدث في الأجيال الجديدة بسبب هذه الكتابات التي كانت تحرمهم من تراثهم الخلقي والعقائدي خطرا كبيرا، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله رأى أن يخرج إلى الناس معالجة لهذا الخطر بالكتابات الأدبية مقابل هذه الثروة العلمية غير المنسجمة، التي تستأهل أن تحل محلها، ولم يكن ذلك ممكنا إلا إذا كانت تلك الكتابات يتم إعدادها مراعاة للمستوى الفني والمقتضيات النفسية، وبأسلوب الشرح والإفهام الذي يوفر متعة إلى جانب مراعاة المزاج النفسي للقراء.

إن المرارة السابقة التي كانت قد تمكنت من قلوب علمائنا الذين كانوا يحملون التراث القديم بسبب الظلم والاضطهاد الاستعماري لم تدع لهم مجالا للنظر والتدبر في الحصول على الوسائل الغربية للعلم والقوة، فركزوا طاقاتهم على الحفاظ على تراثهم الديني والعلمي القديم، وتمسكوا بنظامهم القديم في الفكر والعمل في مقابل الكتابات الفكرية والعلمية، وقصروا أنفسهم في إطار وسائل العلم والتفكير القديمة، غير أن المسئولين عن ندوة العلماء على عكس ما سبق أكدوا - شعورا منهم بخطورة الوضع - على وسائل العلم والمنهج التعليمي الذي يمكن أن يكون بديلا معيارا وأسلوبا للمنهج الجديد. وبالتالي توجه إلى ذلك من كانوا يعملون حسب اتجاه وفكر ندوة العلماء، وعلى نفس هذا المنهج سار الشيخ الندوي رحمه الله أيضا، فلم يكن هذا المنهج منهجا يدافع عن التعاليم والأفكار الإسلامية، ويقوم بإزالة تهمة قدمها وعدم صلاحيتها لهذا الزمان، بل منهجا يعمل على إثبات غلبة الإسلام على الأساس الفكري والعقلي أيضا، بل يثبت أيضا من خلال الدلائل التاريخية والعلمية أن بقاء الإنسانية ونجاحها ونجاتها متوقفة على اتباع الفكر الإسلامي والتربية الإسلامية وذلك بلسان العصر وبأسلوب قوي مؤثر، ويثبت بدلائل وحجج أن أسلوب الحياة الذي قدمه الغرب عبارة عن دمار الإنسان وضياع الإنسانية. إن الشيخ الندوي رحمه الله استفاد في هذا الصدد من التوجيهات القرآنية، ودراساته للمراجع والمصادر الأصلية للحضارة والمدنية الغربية، وهكذا استخدم الشيخ الندوي رحمه الله في خطبه وكتاباته ومحاضراته ما يؤثر من البيان على القلب والعقل معا.

إن هذا الأسلوب الذي اختاره الشيخ الندوي رحمه الله للبيان خطابة وكتابة اعتبر أسلوبا مؤثرا جدا.

وبالنسبة لمجال التعليم العصري الحديث حيث يتم تشكيل عقل الجيل الجديد، وتتم تربيته وتثقيفه، فإن الطلاب فيه حملوا على دراسة كتب ومقررات دراسية كانت أعدت تحت تأثير الفلسفة والفكرة الغربية، كما أن الأخيرة تركت آثارها واضحة على الكتب الموضوعة في الأدب، ونتيجة لذلك فإن الأجيال الجديدة التي درست مثل هذه المقررات الدراسية ومثل هذه الكتابات تعرضت عقولها للنزعات والميول التي كانت متعارضة للإسلام، كما أن الاتجاهات والنزعات التي أخذوها من هذه الكتب كانت موافقة ومنسجمة للفكر والعقل المتغرب.

وفي جانب آخر كان المنهاج الدراسي والمقررات الدراسية وموضوعات الأدب وأساليب البيان والكلام لم يعط لها من الاهتمام والعناية من قبل علماء ديننا إلا بما كان في المراكز القديمة، مما جعل أسلوب العلماء وموادهم يفشل في اجتذاب المثقفين بالثقافة الجديدة، فاختار الشيخ الندوي رحمه الله تحت تأثير ندوة العلماء فيه من الأساليب الكلامية ما كان أكثر نفعا وأشد تأثيرا من الناحية الأدبية والنفسية، ولم يكتف الشيخ الندوي رحمه الله باختيار هذا الأسلوب لنفسه فقط بل دعا الناس إليه، واعتنى بتدريب الطلاب المتصلين به والمستفيدين منه على نفس الدرب، وبتقديم نماذج مؤثرة من الأدب عليهم، وباللغة العربية والأدب العربي بصفة خاصة في هذا الصدد. إن اللغة العربية التي هي حاوية لأفكار المسلمين وثقافتهم وحضارتهم، وهي المرجع والمصدر الأساسي لها، وإن الاطلاع عليها بشكل جيد من المستلزمات لتحقيق أهدافنا الدينية، لم تكن تملك مدارسنا القديمة من مقرراتها الدراسية ما كان يفي بحاجة الوقت ومتطلباته، فشعرت ندوة العلماء تحقيقا لهذا الغرض بضرورة إعداد مقرر دراسي يوجد في الطلاب كفاءة عملية وقدرة صلاحية للوفاء بمقتضيات العصر الحديث، ويحافظ على استمرارية صلتهم بالأسلوب واللغة التي كانت في العهد الإسلامي الأول، واستفادت في إعداد هذا المنهج مما تم إعداده في البلدان العربية وخاصة في مصر.

فأول ما جاء إلى النور في هذا الصد كتاب العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله، وهو كتاب دروس اللغة العربية، كما أن أعد معجما يتضمن الألفاظ والكلمات الجديدة بعنوان «لغات جديدة» ثم جاء شيخنا أبو الحسن علي الحسني الندوي الذي قام بإعداد

كتب بديلة عن الكتب المصرية، وكانت هذه السلسة للكتب البديلة على مستوى من الناحية الفنية والمعيارية، وكانت تتضمن من ناحية الموضوعات مواد تضمن تشكيل الفكر الإسلامي الصحيح، فصدر من قلم الشيخ الندوي رحمه الله قصص النبيين في خمسة أجزاء، والقراءة الراشدة في ثلاثة أجزاء لتعليم اللغة العربية، ومختارات من أدب العرب في جزأين لتعليم الأدب العربي، وجاءت كل هذه الكتب لتفي بضرورة المقررات الدراسية لمادة اللغة العربية والأدب العربي في ندوة العلماء، وقد اعترف بمحاسنها ومطابقتها للضرورة والمعيار المطلوب المهرة في العلم والأدب في البلاد العربية من مصر وبلاد الشام، فقدم الشيخ الندوي رحمه الله بعمله هذا المقررات الدراسية من المستوى العالي في اللغة العربية الأدب العربي، وأحرز فيها نجاحا عمليا أيضا، اعترف له به أهل اللغة والأدب في البلدان العربية أيضا، كما أن الشيخ الندوي رحمه الله أمر طلابه وتلامذته بإعداد كتب في فن الصرف والنحو والإنشاء والموضوعات الأدبية المختلفة تحت إشرافه، فصدر كتاب معلم الإنشاء في ثلاثة أجزاء، وتمرين الصرف وتمرين النحو ومنثورات من أدب العرب والأدب العربي بين عرض ونقد وغيرها من الكتب الأخرى.

إن وجهة نظر الشيخ الندوي رحمه الله المتمثلة بأن أدبنا في أساليبه ومواده الفكرية ينبغي أن يحمل من القيم ما ينسجم مع مزاجنا وفكرنا الإسلاميين، ويكون بديلا حسنا عن الفكر والأدب الذي يروجه الأدباء والمفكرون الغرب والذي يحمل من الاتجاهات والنزعات ما يتعارض مع الفكر والمزاج الإسلاميين، تحققت فيما أعده الشيخ الندوي رحمه الله وأمر بإعداده من الكتابات والمؤلفات، وقام الشيخ الندوي رحمه الله بإيضاح ما في الفكر الغربي والفكر الإسلامي من اختلاف في التوجه والهدف، وأعرب عن أسفه على أن الجامعات والمؤسسات التعليمية التي أنشأها أهل الحمية والعلم من المسلمين لمواجهة التحديات التي جاءت بها المدنية الغربية تبنت المقررات الدراسية الحاملة لنفس التوجه والنزعة، ولم تعمل على إصلاحها رغم تواجد الأفراد المؤهلين ذوي الاختصاص، وظلوا يدرسون نفس المقررات الدراسية التي كانت تحمل أفكارا غير إسلامية. إن الشيخ الندوي رحمه الله لفت انتباه العلماء وعنايتهم من خلال مقالاته وكتبه إلى ضرورة جعل المنهاج التعليمي حاملا للفكر الإسلامي. وأما الأدب فاعتنى به بمزيد من العناية والاهتمام، واعتبره وسيلة للدعوة والتربية، وبدأ بنفسه العمل على إحداث تغيير في مقررات اللغة العربية والأدب العربي، وأول مثال لذلك كتابه مختارات من أدب العرب، الذي أدرج

في المقررات الدراسية المتبعة في ندوة العلماء.

عرض الشيخ الندوي رحمه الله فكرته هذه على العرب أيضا، فقدمها في مقال قرأه أمام نخبة من أهل اللغة العربية والأدب بمناسبة اختياره عضوا في المجمع العلم العربي في دمشق، فوجد لفكرته صدى بين هؤلاء الحضور، وعرف أن عديدا من الأدباء يتعطشون لقبول هذا الاتجاه، مما ملأ نفسه ثقة وتعزيزا، ودعا مؤتمرا في ندوة العلماء بعنوان الأدب الإسلامي، شارك فيه معظم الأدباء من العالم العربي، ممن كانوا يوافقون أو يؤيدون هذه الفكرة، وكان ذلك أول مؤتمر في هذا الموضوع، وحقق نجاحا كبيرا، ثم عقد مؤتمران في مدينتين سعوديتين لتعزيز هذه الفكرة، أولهما في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والثاني في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، واعترف فيهما بأسبقية ندوة العلماء في هذا المجال. تحولت هذه الفكرة بشكل تدريجي إلى حركة، واقترح عدد كبير من أساتذة الأقسام المتعددة في الجامعات العربية على الشيخ الندوي رحمه الله وهو مقيم بمكة المكرمة إنشاء رابطة فيدرالية، واقترحوا تنظيم مؤتمر خاص لهذا الغرض، ليتم فيه تشكيل الرابطة المقترحة، فعقد هذا المؤتمر في أوائل عام 1986م وتقرر فيه إنشاء الرابطة العالمية للأدب الإسلامي، وتم فيه إقرار الدستور الأساسي للرابطة، وقد شارك في هذا المؤتمر وفي عملية تشكيل الرابطة الممثلون من العالم الإسلامي كله، وتم اختيار الشيخ الندوي رحمه الله نفسه رئيسا لهذه الرابطة بإجماع رأي المشاركين فيه، وتأسس المقر الرئيسي للرابطة في ندوة العلماء لكناؤ بالهند نفسها.

وأما الذين لعبوا دورا بارزا في تشكيل رابطة الأدب الإسلامي وتطويرها فيجدر منهم بالذكر بصفة خاصة الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا أستاذ جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ثم الدكتور عبد القدوس أبو صالح الذي أبدى اهتماما كبيرا بالرابطة بعد وفاة الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا، وهو الذي تولى رئاسة الرابطة بعد وفاة الشيخ الندوي رحمه الله.

وقد بارك الله سبحانه وتعالى في الفكرة وفي الجهود المبذولة لها فانتشرت أعمالها وتوسع نطاقها مع مرور الأيام، وإن كان قد نظر إلى هذه الفكرة و إلى وجهة النظر هذه مختلف أهل الأدب والفكر بعين التردد والارتياب، غير أن أهميتها وضرورتها بدأت تكتسب الاعتراف والاتفاق بشكل تدريجي، وتقام لها مكاتب إقليمية في مختلف البلدان والدول مع بقاء مقرها الرئيسي في دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ بالهند، وبلغ عدد الدول

التي تعمل فيها مكاتبها الإقليمية أكثر من عشر، وهي عاكفة على عقد ندوات ومؤتمرات في مختلف موضوعات الأدب الإسلامي، وتتخذ وتبتكر أساليب وتدابير للرقي بالأدب الإسلامي ونشره وتطويره من الناحية النظرية والعملية، كما أنها تقوم بإعداد كتابات ومؤلفات حسب ما يقتضيه الزمان والمكان، والضرورة والحاجة. ونظرا إلى انتشار وتشعب أعمال الرابطة تقرر تأسيس مقرها الرئيسي حيث يقيم رئيسها، إلى جانب مكتبين تابعين لها في مدينة لكناؤ ومدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية، وأوكلت إليهما مسئولية التوجيه والترشيد للمكاتب الإقليمية في الدول والبلدان المتجاورة، وتم تعيين المساعدين للرئيس للإشراف عليها، ولما توفي الشيخ الندوي رحمه الله تولي مسئول المكتب الإقليمي بالرياض منصب الرئاسة للرابطة فانتقل المقر الرئيسي حسب النظام إلى مدينة الرياض بالمملكة.

إن المسئولين في رابطة الأدب الإسلامي يتم انتخابهم أو تجديد انتخابهم بعد كل ثلاث سنوات من خلال المؤتمر، ويوجد في اللجنة المركزية التي تدعى مجلس الأمناء ممثل أو ممثلان من دولة، ويقوم مجلس الأمناء بمثابة المجلس الاستشاري للرابطة، ويعقد تحت رعايته اجتماعات سنوية للنظر في الأمور والقضايا الإدارية، ولتحديد سياساتها واستراتيجياتها، كما يتم العمل على إعداد الكتابات في موضوعات الأدب الإسلامي، الأمر الذي ظهر بفضله عديد من الكتب المهمة إلى منصة النور.

إن مكاتب الرابطة الرئيسية والإقليمية تقوم بنشر وإصدار مجلات دورية، كما أن بعض المكاتب تصدر مجلات شهرية، تتضمن المقالات والأخبار في موضوعات الأدب الإسلامي، وكذلك النماذج الرائعة من الكلام الصادرة من أقلام وألسنة الأدباء والشعراء.

وقد عرض الشيخ الندوي رحمه الله فكرته الداعية إلى جعل فكر المسلمين ونزعتهم منسجمة مع أهدافهم وطبائعهم، وإلى إصلاح الأدب من هذا المنطلق نفسه في مختلف مقالاته ومؤلفاته، وقام بشرح فكرة الأدب الإسلامي لإزالة ما كان ينتاب بعض الناس من تردد وشك. وقد نظر بعين الاعتراف والتقدير إلى ما قام به الشيخ الندوي رحمه الله من دور أساسي في إبراز فكرة الأدب الإسلامي بعد ما اتسع نطاق أعمال الرابطة، كما تم الاعتراف بظهور وسيلة فعالة لسد حاجة كبيرة في دائرة الروح الإسلامية والمزاج الإسلامي من خلال هذه الرابطة.

إن الشيخ الندوي رحمه الله لفت العناية والانتباه في مقالاته ومحاضراته إلى واقع أن الأدب وثيق الصلة بمعتقدات الإنسان وعواطفه ومشاعره، وأنه يمكن وجود هذه العواطف والمشاعر في أية ناحية من نواحي الحياة الإنسانية، فعملية قصر الأدب على دائرة التلذذ وإشباع الرغبة الحيوانية يماثل وضع حد على سعة الأدب وآفاقه. إن المزاج الإسلامي يجعل الأدب صالحا ونافعًا للإنسان، ولكن لا يضيق نطاقه وإطاره. ويمكن الاطلاع على فكرة الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الصدد في كتبه وفي ثلاثة كتب تم إعدادها تحت إشرافه ورعايته وهي «نظرات في الأدب» و«روائع من أدب الدعوة» و«الدين والأدب»[1] بصفة خاصة بالإضافة إلى مقدمته على كتاب «مختارات من أدب العرب».

كان الشيخ الندوي رحمه الله ألقى خطبته في الحفلة الختامية للمؤتمر التأسيسي لرابطة الأدب الإسلامي المنعقد في دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ بالهند، فقال فيها:

«هذه الحفلة حفلة الأدباء، وقد كنتم طلاب الأدب، وأصبحتم ترجمانه وشراحه، إنكم تعلمون جيدا أن شيئا إذا اختصر يتحول إلى نقطة، ولكن إذا يتم تمديده فقد يكون سطرا، وقد يكون صفحة، وقد يكون كتابا، وذلك ينطبق على الأدب أيضا، وكذلك على الهدف الذي نظمت لأجله هذه الندوة. إنني الآن في مجلس أدبي، فدعني أستعن بشعر من أشعار غالب الشاعر العبقري الذي يقول:

فرياد كي كوئي لئي نهين هي ناله بابند نئي نهين هي

إن البكاء والضحك ليست لهما جنسية أو قومية، ولا هما يحتاجان إلى فن وصنعة، لكن الضحك الحقيقي والبكاء الحقيقي هو ما يتجرد من الصنعة والفن، فالباكي يبكي من شدة الألم، والضاحك يضحك بما يموج في صدره من مسرة وفرح، إنها لعاطفة داخلية باطنة، وهذا هو السبب في أن البكاء والضحك يحتاج كل منهما إلى عاطفة داخلية، والبكاء لا يستحق أن يسمى بكاء إذا لا يوجد لإثارته عاطفة داخلية، أو لوعة باطنة، أو وخز في الضمير والنفس، كما أن الضحك ليس ضحكا حقيقيا إذا جاء بطلب من الآخرين. ونفس ذلك يصدق على الأدب، فالأدب ليست له جنسية أو مواطنة، أو

(1) الدين والأدب من مؤلفات كاتب هذه السطور بينما الكتابان السابقان من مؤلفات الشيخ الندوي رحمه الله.

قومية، كما أنه ليس ملتزما بمصطلحات معنية، ولا مقيدا بضوابط خاصة، ولكن من العجب العجاب أن الأدباء أنفسهم الذين بذلوا حياتهم كلها خدمة للأدب، وصرفوا له خير ما عندهم من مؤهلات وطاقات، هم الآخرون تصوروا الأدب وهو البحر الفياض في بركة ضيقة صغيرة. إن الأدب أدب، سواء صدر من لسان رجل صاحب دين، أو انطلق من لسان نبي، أو تجلى في أي كتاب سماوي، ولا يشترط له إلا أن يكون الكلام بأسلوب يأخذ بمجاميع القلوب، ويأسر أعنة العقول، و أن يكون القائل على قناعة بأنه أدى ما يريد على أحسن طريقة، وأن يستمتع به السامع، ويتقبله بقلب مفتوح. كنت قلت في المؤتمر الذي عقد أمس باللغة العربية بأن الإعجاب الحقيقي بالجمال هو أن يعجب به الإنسان مهما كانت أشكاله ومظاهره، فلا يمكنكم أن تلزموا البلبل بالوقوع على نوع معين من الزهر والشجر، فأين من الإنصاف ومن الإعجاب بالجمال ومن حسن الذوق أن تعجبوا بالوردة وتستمتعوا بها إذا تفتحت في فناء المواخير، ولكن هي التي إذا تفتحت في فناء المساجد تفقد حسنها وجمالها في عيونكم. هل من الجريمة أنها اختارت فناء المساجد للتفتح والابتسام. إنني ما استطعت أمس أن أنشد شعر إقبال أمام العرب، ولكنني أستطيع أن أنشد لكم:

حسن بي بروا كو ابني بي حجابي كي لئي

هون أكر شهرون سي بن بياري توشهر أجهي كه بن

يهمني الجمال والحسن وليس الصحراء أو المعمورة، وكذلك عومل الأدب بنفس المعاملة، ودعوني أنشد لكم شعرا من الأشعار الفارسية:

دل عبث لب به شكوه وانه كند شيشيه تا نه شكند صدا نه كند

إذا سمعتم صوت الزجاجة فاعلموا أنها انكسرت، فهذا صوت قلب مكسور وزجاجة منكسرة، وهو صوت احتجاج ضد إلزام الأدب والأديب بأن يتزيا بزي معين، إن أكثر ما يتحرر من الضوابط والقيود والشكليات هو الأدب، فلا يقبل بأن يتزيا بزي معين ويلبس لباسا معينا، أو ينطق بلغة معينة، إنه أدب حيثما وجد، إنه أدب حتى وإن كان في خرقة ممزقة، ويستأهل بأن ينصب في كرسي الصدارة، ولكنه إذا كان مزخرفا بلباس ملوكي، ولا يملك سليقة لأداء ما يريد ويعبر عما في نفسه فإنه ليس بأدب، ذلك أن الأدب ليس أدبا لأنه صدر من ناطق باللغة الإنجليزية أو جاء من داع إلى التقدم

والحداثة، أو تفضل به رئيس قسم أدبي أو أستاذ من الأساتذة في أية جامعة من الجامعات، ولكن الأدب الحقيقي هو الأدب الذي قد تجده في توسل المتوسل، أو فيما تغنيه الأم لولدها عند النوم، أو في نداء الفقير، أو في تضرعات العابد وابتهالاته في ساعة متأخرة من الليل والذي يريد أن لا يسمعه أحد غير ربه، ولكنكم سمعتموه بالصدفة، وبالتالي إن الأدب أدب، في أي شكل كان، وفي أية لغة كان، ومن أي شخص صدر.

ولكن الأدب عومل - وخاصة في السنوات الأخيرة - معاملة مختلفة، فقيد بأن يكون ممزوجا - ولو قليلا - بشيء من السخرية من الدين أيضا، فلا يعتبر الأدب أدبا ما دام لا يستهزئ بالأديان، ولكني أسألكم بالله ما علاقة الأدب بالاستهزاء والسخرية؟ قد يكون من يسخر ويستهزئ أديبا، ولا أنكر ذلك، ولكن لا يدخل فيما يعرف به الأدب أن يسخر ويستهزئ، فإن ذلك يرجع إلى طبيعة الأديب ونفسه، وإلى اتجاهاته وميوله، وإلى بيئته وتربيته، فالأديب يخطئ ويصيب، ربما تكون لذلك علاقة بالأدب ولكن لا علاقة له بالأدب، ولكن اشترط في العهد الأخير أن الإنسان ما دام لا يتحدث عن الحداثة والتقدمية، وما دام لا يستهزئ بالقديم، وما دام لا يسخر من الصحف السماوية لا يعتبر أديبا. أقول لكم بصراحة، وأقول لكم بصفة طالب للأدب إن أول ما شرف الإنسانية بالأدب هو الصحف السماوية، أين كان الأدب قبل ذلك؟ لكن الله سبحانه وتعالى عند ما بعث أنبيائه ورسله لتذكير الناس، وأعطاهم لسانا مبينا، وأوحى إليهم الكلمات إلى جانب المعاني، تجلى للناس أن هذا هو الأدب. لا يقدم لنا تاريخ الأدب دليلا على وجود الأدب قبل الكتب والصحف السماوية. فإذا كان أحدكم يملك دليلا موثوقا به فليقدمه لنا، متى تعرف الناس على الأدب؟ أول ما تعرف فيه الإنسان على الأدب هو الصحف السماوية، ثم جاء القرآن الكريم ليختم عليه للأبد، فقال (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين). ما أرفع مكانة الأدب! إن الله سبحانه وتعالى يشيد بكتابه على أنه أدب، بمعنى أنه معجزة، وبلسان عربي مبين. إنه تعالى هو الغني الصمد، ولكنه استخدم لإفهام الإنسان أحسن ما يمكن من الأساليب والتعابير[1].

إن هذه الفكرة والنزعة التي دعا إليها الشيخ الندوي رحمه الله لم تكن دعوة فارغة ولكنه اختارها بنفسه عمليا في جميع مؤلفاته ومحاضراته، فأسلوبه الأدبي يتجلى واضحا

(1) الدين والأدب ص 41-42

في كتبه ومؤلفاته في سواء كانت باللغة العربية أو اللغة الأردية، بل يظهر الشيخ الندوي رحمه الله كأنه أديب صاحب أسلوب مستقل به. ومن ميزته الخاصة أنه لم يكتف باختيار ثلاثة جوانب من الأدب في وقت واحد بل أثبت فيها مهارة وسليقة على مستوى، الجانب الأول هو جانب الأسلوب للكتابة في موضوع أدبي محض على نفس المستوى والمعيار، والثاني جانب الأسلوب لكتابة أدب الأطفال، وهو أيضا يتحلي بالمعيار المطلوب بكل ما فيه من خصائص، والثالث هو أسلوب الكتابة في الموضوعات الفكرية والذي يتصف بأعلى مستويات المعيار المتزن الرزين. وهذه ميزة من ميزات الشيخ الندوي رحمه الله كثيرا تمت الإشادة بها بشكل عام، وهي جعلت الشيخ الندوي رحمه الله مفكرا وداعية وأديبا في وقت واحد.

إن الاهتمام الذي أظهره الشيخ الندوي رحمه الله بإيضاح فكرة الأدب الإسلامي وتعزيزها وتطويرها، والجهود الممكنة التي قام ببذلها في هذا الصدد لم تكن جديرة بالتقدير والاحترام فقط بل قدرت له فعلا الدوائر الإسلامية الفكر في العالم الإسلامي تقديرا كبيرا، فعقدت في مختلف بقاع العالم مؤتمرات كبرى شارك فيها خبراء الأدب واللغة والبارزون من من الكتاب والأدباء ممثلين عن بلدانهم وأوطانهم، وعقدت ندوات ومؤتمرات دولية في الموضوعات الجديدة للأدب الإسلامي في كل من تركيا والمغرب ومصر والهند وباكستان وبنجلاديش وفي المركز الإسلامي في أكسفورد، وفي أمريكا، والأردن، ولقد تجاوز عدد الندوات التي عقدت في الهند وحدها على مستوى البلاد عشرين ندوة ومؤتمرا.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يواظب ويلتزم بالمشاركة في هذه الندوات والمؤتمرات، كما كان يهتم بالمشاركة فيها بمقالاته علاوة على ما كان يلقيه من كلمات توجيهية ورئاسية. وتحت إشراف الشيخ الندوي رحمه الله نفسه استهلت مجلة الأدب الإسلامي صدورها من مكتب رابطة الأدب الإسلامي بالرياض، إلى مجلة كاروان أدب باللغة الأردية من مكتبها في لكناؤ، ولا تزال كلتا المجلتين تصدران فصليا باستمرار. وتصدر مجلة قافلة الأدب الإسلامي باللغة الأردية من لاهور بباكستان، كما أن هذه المكاتب لرابطة الأدب الإسلامي تهتم وتعمل على إعداد مقالات وتأليف كتب في الموضوعات الهامة، وقد ظهرت منها لحد الآن ذخيرة كبيرة.

عملية تعريف غير المسلمين بالإسلام
وإنشاء حركة رسالة الإنسانية

إن عظمة الأمم وشرفها تتأسس على الأعمال والإنجازات التي يقوم بها أبنائها في أعمال رقي بلادهم وتطويرها، وبهذه الإنجازات والأعمال يشرف تاريخ حضاراتهم وبلدانهم، وبها يرتقون إلى المكانة الرفيعة الممتازة في العالم.

إن الشيخ الندوي رحمه الله قد أدى دورا كبيرا وأنجز أعمالا عظيمة على كل من الصعيد الاجتماعي والحضاري والديني. وقد أدى للإنسانية كلها و للمسلمين بصفة خاصة في المجالات العلمية والدينية خدمات عظيمة أكسبته اعترافا وتقديرا ليس في داخل البلاد فحسب بل خارج البلاد أيضا، فقد كان الشيخ الندوي رحمه الله من الناحية العلمية عالما كبيرا، وكاتبا ناجحا، ومن الناحية الاجتماعية مصلحا عظيما ومربيا جليلا، ومن الناحية الدينية وليا مقبولا، وخطيبا مصقعا.

وإلى جانب ذلك كان الشيخ الندوي رحمه الله محبا للوطن، ومهتما بتقدمه ورقيه، وكان يحاول أن يؤدي ما عليه من حقه أيضا، فقد ذكر - اعترافا بهذا الحق وأداء له- في كتبه ما أحرزته الهند من تقدم علمي وحضاري برحابة الصدر وانفتاح القلب، وعرف الناس به خارج البلاد، ويمكن الرجوع بهذا الخصوص إلى سلسلة مقالاته بعنوان «المسلمون في الهند» وإلى «الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند» وإلى مختلف محاضراته وخطبه وكتبه، التي قام من خلاله بتعريف العالم العربي بالشخصيات الهندية العظيمة وبالإنجازات العلمية والحضارية التي حصلت في الهند. وقد كان لوالده العظيم الشيخ السيد عبدالحي الحسني رحمه الله قصب السبق في هذا المجال، وربما ورثه الشيخ الندوي رحمه الله عنه هذا العمل. كما أنه قاد حملة منظمة وأنشأ لها حركة رسالة الإنسانية لدعوة المواطنين في الهند إلى التمسك بقيمهم العالية، وإلى إزالة ما كان يحدث منهم من قصور وغفلة على هذا الصعيد. كانت حركة رسالة الإنسانية تعقد اجتماعات عامة ومؤتمرات شعبية في كبرى مدن البلاد، وكانت تدعو الناس وتلفت انتباههم إلى المثل الإنسانية العليا التي تعترف بها جميع الديانات بعيدا عن اختلافها وتفاوت طبقاتها، غير أنه كان في هذا الصدد يذكر أيضا ما أرشد إليه الإسلام من تعليمات، وما قدمته الشخصيات المسلمة

من نماذج رائعة وهي مسجلة في سجلات التاريخ مما كان له الأثر الطيب كانت حركة رسالة الإنسانية تترك آثارا حسنة، وتساعد على إقرار التوافق والانسجام بين الطوائف المتواجدة في الهند، الأمر الذي اعترف له به المثقفون والمفكرون من مختلف الديانات والمذاهب، بما فيهم قضاة المحاكم وأساتذة الجامعات. إن الخطب والمحاضرات التي ألقاها الشيخ الندوي رحمه الله في مثل هذه المناسبات يمكن الاطلاع عليها في كتيباته في موضوع رسالة الإنسانية ومكانة الإنسانية والتي تناول فيها الشيخ الندوي رحمه الله ما قد تفشى في المجتمع الهندي من مساوئ خلقية وأعمال منافية للإنسانية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يتألم مما كان يراه من أن المواطن العادي آخذ بالتدهور والانحطاط في خلقه وأدائه، وكان يقول إنه من المؤسف جدا ندرة وقلة من كان ينبه الناس على هذا الجانب ويلفت عنايتهم إليه. وهذا الشيء يضر بسلامة البلاد وأمنها. إن قوة البلاد وعظمتها تقوم بأداء مواطنيها وأعمالها، فإذا كان الأداء العام في انحطاط وزوال فلنفهم أن البلاد والشعب كليهما في مسيرتهما إلى زوال وانحطاط.

إن الشيخ الندوي رحمه الله كان درس التاريخ دراسة متعمقة ودقيقة، فقد كان درس تاريخ بلاد الهند، وتاريخ أوروبا، وتاريخ العرب والمسلمين، وتاريخ الديانات المختلفة على ما فيها من فروق واختلافات، وكان قد أدرك الأسباب والعوامل التي تعمل في تقدم الأمم والشعوب وتخلفها، مما ترك أثرا عميقا في قلبه المرهف الحساس، فكان يتمنى أن تعود عهود التاريخ التي كانت مزدهرة ومجيدة، وقد ذكرها وأكد عليها في كتبه ومؤلفاته، وقد ذكر بصفة خاصة تاريخ النهضة الحضارية والمدنية للمسلمين والذي كان يعتبره تاريخ الخصائص الإنسانية الشاملة، وما تركه هذا التاريخ المجيد وميزاته العالية من منافع وفوائد في البلدان والشعوب الأخرى على الصعيد الإنساني والحضاري والمدني في كتبه ومصنفاته. كان الشيخ الندوي رحمه الله يلفت انتباه المسلمين في محاضراته وخطبه ومقالاته إلى أن الله سبحانه وتعالى اختصهم من بين الأمم بأن جعلهم خير أمة وناصحة للإنسانية جمعاء، فيجب عليهم أن يبذلوا ما يمكنهم من الجهود، ويأخذوا بما يستطيعونه من الأسباب للسير بالناس جميعا إلى الأخلاق الحسنة والأحوال الطيبة. كان الشيخ الندوي رحمه الله يكتب ويقول بأن الإسلام دين الرحمة والمواساة للإنسانية، ودين الأمن والسلام، وقد وردت تعليمات كثيرة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لبذل مثل هذه الجهود. ويجب على المسلمين من هذه الناحية أن يكونوا نافعين أكثر من أن

يكونوا منتفعين، وكان الشيخ الندوي رحمه الله يقوم بهذه الأعمال بكل جدية وحماس.

كان الشيخ الندوي رحمه الله عند ما يجتمع برجال السلطة والمسئولين في الهند يلقنهم ويدعوهم أيضا إلى اختيار المثل والقيم الإنسانية العليا، وإلى بذل الخير والعطاء للوطن والمواطنين، فقد نصح الشيخ الندوي رحمه الله السيدة إندرا غاندي لما كانت في كراسة رئاسة الوزراء بأن تختار لتعاملها مع الشعب والعوام أسلوب اللطف واللين بدلا من أسلوب الشدة والغلظة، وعند ما خسرت الانتخابات في الفترة التالية ولم تستطيع أن ترتقي إلى منصب الحكم وجاءت لزيارة الشيخ الندوي رحمه الله في بيته نصحها باتباع العدل والنصف في تعاملها مع جميع طبقات البلاد وطوائفها إذا كلفت بقيادة البلاد.

كما نصح الشيخ الندوي رحمه الله السيد راجيف غاندي في عهد حكمه، ونبهه على أن الهند حاضنة لمختلف المذاهب والديانات، وأنه من الضروري الحفاظ على حرية أصحاب الديانات كلها في اتباع ديانتهم والعمل بتعليماتها، ويجب الاعتراف في هذا الصدد بها للمسلمين من حق في حرية العمل والاتباع لتعليمات دينهم بخصوص المرأة، وقد قال له الشيخ الندوي رحمه الله هذا الأمر مرارا وتكرارا، إلى أن عمل ذلك التذكير وساعد كثيرا في إلغاء القرار المعارض للشريعة والذي أصدرته المحكمة العليا في قضية طلاق المرأة المسلمة وذلك من خلال إقرار مشروع قانون في البرلمان الهندي. وقد اعتبر ذلك إنجازا كبيرا.

لما كانت قضية المسجد البابري في بدايتها، لفت الشيخ الندوي رحمه الله عنايته إلى ضرورة أن تقوم الحكومة بإعلان أن المعابد والمساجد ستبقى على ما كانت عليه عند استقلال البلاد، ولا يحدث فيها أي تغيير، كما أنه قال بأن يتم تدارك الأمور قبل أن تستفحل وتتفاقم.

لقد ضرب الشيخ الندوي رحمه الله للقادة والزعماء السياسيين في البلاد مثلا شبه فيه الاضطرابات الطائفية والعنف الطائفي بالنار، وقال لهم بأن النار إذا ما تجد شيئا لتأكله فإنها تأكل نفسها. إن العنف الطائفي يعود على الجميع بالضرر والخسارة.

ولقد تأثر بهذا المثال رئيس وزراء الهند السيد وي بي سنغ بصفة خاصة، وقد تلقى هو الآخر من الشيخ الندوي رحمه الله نصائح وتوجيهات مرارا وتكرارا.

ولما تم اللقاء بين الشيخ الندوي رحمه الله وبين السيد ناراسيمها راؤ في فترة رئاسته للوزراء في الهند لفت الشيخ الندوي رحمه الله عنايته إلى أن الذين عملوا لاستقلال البلاد

كانوا يهتمون كذلك بتحسين أخلاق المواطنين والرقي بهم في جميع النواحي، ولقد تلاشى هذا الاهتمام في البلاد اليوم، وينبغي لكم أن تعتنوا بهذا الجانب أيضا، لأن الناس الآن غلبهم الطمع الجشع في السلطة والمال، إنه لنذير خطر للبلاد، ودعاه إلى أن يخرج في البلاد و يأمر الناس بالأخلاق العالية الفاضلة، لكي تسير البلاد على طريق صحيح، وترتقي إلى مكانة الدولة العظمى.

ولما كان الشيخ الندوي رحمه الله في مرضه الأخير وجاءه رئيس الوزراء الهندي آنذاك السيد أتال بيهاري فاجبائي لعيادته وتفقد أحواله قال له الشيخ الندوي رحمه الله وهو يكرر قوله وذلك في الوقت الذي كان يعسر عليه الحديث فيه: سيد فاجبائي! «أنقذ البلاد، إن البلاد في خطر محدق، لقد تغلب الحرص والطمع في المال والسلطة على جميع القيم والمثل العليا، أنقذ البلاد رجاء».

وقد قام الشيخ الندوي رحمه الله بتذكير رؤساء الوزراء الآخرين أيضا عند ما تسلموا قيادة البلاد بهذه المسئولية الخلقية والإنسانية، وقال لهم كذلك في لقاءاتهم إذا حصلت، ولفت أنظارهم إليها بالرسائل إذا صعب اللقاء.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله يدعو الناس كذلك في الاجتماعات العامة التي كان يعقدها تحت راية حركة رسالة الإنسانية إلى الالتزام بالقيم العليا والأخلاق الفاضلة ترفعا عن الأغراض الذاتية والحرص على المال والثروة، وكان يتأسف كثيرا على انعدام التمييز بين الحلال والحرام، فكل يجري وراء مصلحته الذاتية وأغراضه الشخصية بدلا من أن يعمل للبلاد، وإن كان يجر ذلك على البلاد خسارة وضررا، وهو أمر ليس بشير خير، ولكنه نذير سوء.

وهذا الاهتمام من قبل الشيخ الندوي رحمه الله بإزالة الشر والفساد وإتيان الخير والصلاح لم يكن مقصورا على إطاره الوطني، بل كان يهتم بصفته عالما ربانيا بصلاح المسلمين بصفة خاصة. وكان يعمل ويجتهد لذلك تحت عنوان إصلاح المجتمع، فكان يخطب وكان يكتب ويلفت عناية المسلمين إلى أنهم يتناسون الآن القيم التي منحها الإسلام إياهم، وأنهم ينحطون باستمرار من الناحية الخلقية، فليحذروا ويقوموا بوقاية أنفسهم، وعليهم أن يعملوا - إلى جانب إصلاح أنفسهم - على تجنيب الإنسانية من طريق الضلال والغواية، وعلى السير بها إلى القيم الفاضلة، وكان يحكي لهم أمثلة من التاريخ على أن المسلمين كلما تساهلوا في قيمهم الخلقية العالية، ما جر عليهم ذلك إلا

الضرر والخزي، كما أنهم كلما تمسكوا بالقيم العليا كان العز والشرف حليفا لهم، فأنقذوا البلاد والعباد من الدمار، فيجب على المسلمين أن يكونوا رسل خير ودعاة هدف نبيل. وهذا هو الذي علمهم نبيهم ﷺ. وإن القرآن الكريم يعلمهم في مواضع كثيرة منه أن الله سبحانه وتعالى رب البشر كلهم، وهو الذي يعطيهم كل ما يملكون، وبالتالي يجب علي الجميع أن يعرفوا ربهم حق المعرفة، وأن يعيشوا على أرضه بحب الإنسان، وبالمساواة والمواساة بين الجميع، وبعبادة ربهم وحده، وليزدهروا ويرتقوا، ومن واجب المثقفين والمتعلمين منهم أن يهتموا لذلك ويبذلوا ما يسعهم من الجهود في سبيله.

كانت محاولات الشيخ الندوي رحمه الله من هذا النوع تمتاز بأنه كان يراعي ويلتزم بكل متطلبات العقيدة وأحكام الشريعة فيما كان يقوله ويدعو إليه، لئلا يفهم أحد أن الشيخ الندوي رحمه الله يساوي بين جميع الأديان، وأنه يعتقد ويؤمن بوحدة الأديان. إن الشيخ الندوي رحمه الله كان يعتقد اعتقادا جازما بأن الإسلام وحده هو الدين الصحيح، وأن شريعته هي الشريعة الوحيدة المعتبرة عند الله سبحانه وتعالى.

لقد قام الشيخ الندوي رحمه الله بنشر أعماله ورسالته من خلال كتبه ومقالاته، كما أنه بلغ رسالته إلى الجمهور وعامة الناس بواسطة المحاضرات والحوارات أيضا. كان الشيخ الندوي رحمه الله يتمنى أن يرى المسلمين وغير المسلمين بصفتهم مواطنين جيران مسالمين يراعي بعضهم لبعض، وكان ليؤكد على هذه الضرورة يعقد اجتماعات وندوات في مدن وقرى، ويدعو إليها رؤساء وكبار الطبقات والطوائف المختلفة، بل كان يتيح لهم فرصة للتحدث والتعبير عن آرائهم وأفكارهم بشرط المراعاة لمشاعر الآخرين، وكانت هذه الاجتماعات والندوة تعمل كمنصة يجتمع فيها حملة وأصحاب الأفكار والاتجاهات المختلفة، وكانت تتيح الفرص أيضا للتفاهم المتبادل لديانة واتجاه الآخرين، وتساعد على تخفيف وإزالة جو الصراع والنزاع بين المسلمين والهندوس. ولا تزال هذه الحركة حركة رسالة الإنسانية تؤدي دورها وتقوم بأعمالها الإيجابية إلى يومنا هذا.

إن أعمال الشيخ الندوي رحمه الله من هذا النوع كان يعينه عليها عدد من الرفقاء والزملاء الطيبين، أبرزهم الشيخ عبد الكريم الباريكه، الذي له اطلاع واسع ومعرفة جيدة بطبائع المواطنين الهندوس وأمزجتهم، ويتمتع كذلك بثقة الشيخ الندوي رحمه الله بشكل كبير، وإلى جانبه كان الشيخ إسحاق جليس الندوي والقاضي عبدالحميد الإندوري يساعدانه بما كانا يتمتعان من خصائص ومزايا ممتازة، كما أن البروفيسور جشتي

هو الآخر ظل يقدم مساعدة كبيرة في هذا العمل وهو لا يزال على عهده وعمله.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد بلغ من رحابة صدره ورغبته في تقليل الاختلافات البينية ما كان يجعل أصحاب النظريات والاتجاهات المختلفة في المجتمع يقبلون بتوجيهاته وقيادته، فكان الشيخ الندوي رحمه الله شخصية مقبولة بإجماع لدى حملة الأفكار والنظريات المختلفة، وكانت شخصية الشيخ الندوي رحمه الله المتسامحة قد أشاعت بين الهندوس أكثر من المسلمين بأنه رجل مسالم ومتسامح، فكان الجميع يكنون له في قلوبهم احتراما وتوقيرا، وكان جميع القادة والزعماء في الهند ليس أنهم كانوا يحملون انطباعا طيبا عن شخصية الشيخ الندوي رحمه الله فحسب بل كانوا ينظرون إلى رأيه وقراره بعين الاعتبار والتكريم. ولكن الشيخ الندوي رحمه الله بالرغم من تسامحه ورحابة صدره كان شديدا في عقيدته وأفكاره، وأما الدين فكان متعصبا له وملتزما بأحكامه. فإذا ظهرت قضية من قضايا العقيدة والشريعة الإسلامية فكان لا يقبل فيها أي تغيير أو تعديل، غير أنه كان يفضل أسلوب الشرح والإفهام في بيان قضيته وقناعته، ولم يكن يعتبر الغضب أو التصادم والاشتباك أسلوبا ناجعا لهذا المرض، وقد نجح الشيخ الندوي رحمه الله من خلال طبيعته المتسامحة والمسالمة في حل عدد من القضايا المللية الشائكة، وأصبح بفضلها زعيما مطلوبا ومرشدا مقبولا لدى جميع الطوائف في الهند، بحيث إذا كانت هناك قضية من قضايا الصراع تنشأ بين المسلمين فكان الجميع يتفقون على رأيه بشكل عام، وكانت الحكومة هي الأخرى تقيم لرأيه وزنا، وتعير لقيادته أهمية وتقديرا.

والواقع أن الشيخ الندوي رحمه الله كان فيما يتعلق برقي البلاد وصلاحها منفتح القلب ومتزن الفكر، فكان يرى أن الوطن جنة مشتركة تعود مسئولية حمايتها والعمل على ازدهارها وتطويرها إلى جميع الساكنين فيها، فهو ليس وطنا للأغلبية فقط، بل يشاركها جميع الأقليات في البلاد في الاستحقاقات والواجبات، وقد اعترف لها بهذه الحقوق دستور البلاد، وفي العمل بذلك تكمن سلامة البلاد وقوتها، فينبغي أن يوجد هناك تعاون مشترك بين الجميع لمصالح البلاد المشتركة، ولا أن يستقل كل بشعبه وطبقته معرضا عن مصالح البلاد، لأن ذلك ما من شأنه تعريض البلاد للأخطار والخسائر، ويجب على الأغلبية والأقليات كلتيهما أن يعامل بعضهم البعض بالتعاون والإخاء، وإلا فإن البلاد ستسير إلى ضعف، وإلى دمار.

إن الشيخ الندوي رحمه الله لم يكن مقتنعا بهذا الرأي بصفته الشخصية فقط بل كان يعبر عنه أمام المثقفين وأهل الرأي والقلم في البلاد بل أمام المسئولين ورجال الحكم والسلطة بكل قوة وصراحة، وكان يقول لهم بأن لا يقتصروا بأنفسهم على التمتع بخيرات السلطة والحكومة، والفوز بأصوات الناخبين في الانتخابات، وينبغي على الجميع أن يعملوا للقضاء على ما يتفشى وينتشر في البلاد من فساد ومحاولات مغرضة، وإن جرت على البلاد ويلات ودمارا، ويجب على الزعماء في البلاد أن يجتهدوا ويفكروا في الإصلاحات المجتمعية ومنع الفساد والأنانية والذاتية على حساب مصلحة البلاد، وإلا فإن البلاد على شفا الانهيار والدمار. كان المناضلون والمجاهدون لاستقلال البلاد يفكرون في إصلاح البلاد أيضا وهو أمر آثارها ظاهرة وبادية، ولكن مما يبعث على الأسف والقلق أن هذا العمل قد انقطع الآن.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد بدأ أعمال حركة رسالة الإنسانية منذ عام 1954م، فكانت تعقد لها حفلات واجتماعات يلقي فيها الشيخ الندوي رحمه الله خطبا مجلجلة مثيرة يدعو الناس فيها ويحضهم على إصلاح المجتمع والنصح للإنسانية، وقد نشرت منها بعضها في مجموعات، إلا أن حركة رسالة الإنسانية المنظمة لم تبدأ إلا في عام 1974م وكانت بدايتها في مدينة إله آباد.

نقدم هنا شيئا مما جاء في خطبة الشيخ الندوي رحمه الله التي ألقاها في جمع مشترك من الهندوس والمسلمين في 24 يناير عام 1954م في بلدة مئو بولاية أترا براديش الهند، وهو يلقي الضوء على أهداف هذه الحركة ورسالتها. قال الشيخ الندوي رحمه الله في خطبته:

«إننا نعتبر رسالتنا ضرورية ولازمة لكل حزب من الأحزاب السياسية، كما أن وجودنا أكثر لزوما وضرورة من أي حزب من الأحزاب. ذلك لأننا إذا نجحنا فيما نريد من الأعمال فإننا سنكوّن من الإنسانية أزهارا تفوح رائحتها في كل مكان. لقد تدهور الوضع اليوم لدرجة أنه توجد في كل مكان أشواك ولا يوجد فيه إنسان. جئناكم لنقول لكم: انشروا الإنسانية وعمموها، وحسنوها وطوروها. إن شجرة الإنسانية لا توتي هذه الأيام إلا أثمارا فجة وأفنانا شائكة، فحاولوا أن تخرجوا من شجرة الإنسانية بأثمارها الحلوة. إننا ما جئناكم لنضع العراقيل أمام ما تريدون من العمل، ولكن جئناكم لنقول: تفقدوا أحوال الإنسانية وقوموا برعايتها، إننا لنحدث فيكم قلقا وهما على هذه

الدنيا الفاسدة، أتمنى أن يوجد فيكم هذا القلق وهذا الهم، إنها رسالة الأنبياء وأعمالهم، إننا جئناكم لنذكركم بها. هنالك رسالات ونظريات، منها ما يتوقف عند العقل، ومنها ما يتوقف عند البطن، ومنها ما يتوقف عند المكان والملبس، ولكن الدين المرفق بالإيمان بالله واليقين فيه يرسخ في القلب، فيقر العين ويثلج الحرقة فيه، إن قرة العين وطمأنينة القلب لا تحصل للإنسان إلا من خلال رسالة الأنبياء وأعمالهم عليهم الصلاة والسلام. وبها قرت العيون واطمأنت القلوب في الماضي أيضا.

إننا نقول للمسلمين إنكم تخليتم عن رسالة الأنبياء، إنكم مجرمون، تركتم هذا الثروة العظيمة، وأصبحتم عملاء للرأسماليين الحقيرين، واعتنقتم مثلهم العقلية التجارية، وأصبحتم تجارا. ما كنتم بعثتم تجارا أو موظفين، بل كنتم دعاة مبلغين، ولكنكم ضيعتم مكانتكم وغاية وجودكم، فلو كنتم تعيشون برسالة الحب والدعوة، كنتم تعيشون حياة عز وكرامة، وحياة نجاح وفوز. وها هو نجاحكم يكمن في أن تستعيدوا مكانتكم الضائعة، ولا يوجد لكم فلاح أو نجاح إلا في تقديركم واحترامكم لأعمال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمطلوب من الأحزاب السياسية والجماعات المختلفة أن تتخلى عن الصراع على القيادة، والصراع على السلطة، وتعتني بإصلاح وتحسين خريطة الحياة التي فسدت، وأن تعتم بالإنسانية جمعاء بدلا من أن يقتصروا على المنتسبين والأصدقاء، ولا يحصل السلام والأمان إلا بعد تحقق هذا الإصلاح»[1].

كان اهتمام الشيخ الندوي رحمه الله وعنايته بهذا الجانب قد بلغ من القوة والشدة ما جعل المثقفين سواء كانوا هندوسا أو مسلمين يبجلون الشيخ الندوي رحمه الله ويحترمونه، ويقدرون له تقديرا كبيرا، ولما وافاه الأجل اعتبر الجميع على اختلاف دياناتهم واتجاهاتهم السياسية وفاته خسارة فادحة للشعب والبلاد، وأعربوا عن أسفهم وحزنهم الشديدين، وقدموا له ضريبة عاطفة الحب والتقدير.

(1) يرجى الرجوع إلى «حركة رسالة الإنسانية: خمس خطب عامة، من منشورات المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ

التعليم الأساسي وإنشاء مجلس التعليم الديني

إن بلاد الهند التي تحتضن أتباع مختلف الديانات والمذاهب الفكرية، وأبناء مختلف العناصر والأصول والألوان عند ما تحررت من قبضة الاستعمار البريطاني واستقلت بسيادتها حصلت لكل من كانوا يعيشون على أرضها حقوق مساوية للاستفادة والتمتع بهذا الاستقلال والحرية، وقد اعترف لهم بهذه الحقوق صناع الدستور الهندي، وصرحوا في الدستور بأن جميع سكان البلاد يحق لهم أن يعيشوا وفقا لدياناتهم وعقائدهم ورغباتهم، فلا يجوز تغليب قيم طائفة معينة ومعتقداتها على قيم ومعتقدات طائفة أخرى، فالحكومة أيا كان حزبها، ورجال الحكم مهما كانت معتقداتهم ودياناتهم وانتماءاتهم الطائفية يجب عليهم أن يترفعوا عن الاختلافات الحزبية والطائفية والدينية ليوفروا إدارة رشيدة للبلاد، وإقرار الأمن والسلام فيها، والحفاظ على الحقوق المدنية لجميع سكان البلاد، وتأمين كل الاستحقاقات الديمقراطية والحرية الحاصلة لهم.

ولكن الذي يبعث على الأسف هو أن الذين انتخبوا للحكومة من الأحزاب وأتباع الديانة لم يستطعوا أن يحافظوا على هذا الاتزان، وقصروا فيه بشكل أو بآخر من خلال عملهم وأدائهم، وهذا التقصير بناء على اختلاف الدين إنما انصب في خانة المسلمين بشكل عام، مما يشكل صعوبة ومشكلة للمسلمين في التأمين والحفاظ على شخصية وهوية أبنائهم وجيلهم الجديد الإسلامية. وقد شعرت بهذه الصعوبة أو المشكلة الطبقة المثقفة من المسلمين، وحاولوا أن يدبروا لها على المستوى الفردي أو الشخصي ما استطاعوا، وكان رأسهم عدد كبير من الشخصيات الواعية من ولاية أترابراديش يتقدمهم المناضل الغيور القاضي محمد عديل عباسي بخطوة أو مشروع ناجح متمثل بوضع منهاج التعليم الإسلامي الموازي للتعليم الحكومي على مستوى الابتدائية من غير أن يتم منع أبناء المسلمين من الدخول في المدارس الحكومية، لتطبيقه في غير أوقات المدارس الحكومية، كما أنه بدأ علاوة على ذلك حملة ناجحة لإقامة مدارس مستقلة مكتفية بالذات بعضها منتظمة وبعضها الآخر مفتوحة، واقترح على المسلمين أن يتم تسيير هذا النظام بأكمله بإعانة ضئيلة يطيقها جمهور المسلمين أنفسهم، وحثهم على التعاون والمساعدة له في هذا المشروع، فمن بادر إليه من المسلمين كان من بينهم قريبه الشيخ محمود الحسن العثماني،

وكان أبرز من أشادوا بوجهة نظره هذه شيخنا الندوي رحمه الله والشيخ منظور النعماني رحمه الله.

تشكلت هذه المؤسسة باسم مجلس التعليم الديني، وفوضت رئاسته إلى الشيخ الندوي رحمه الله من أول يومه، بينما تولى القاضي أمانته العامة وإدارته الفعلية، ونهض لمساعدته فيها المحامي السيد ظفر أحمد الصديقي ومدير المدرسة رياض الدين أحمد، والدكتور اشتياق أحمد القريشي، ممن يحملون حماسة للعمل، وعديد من أصحاب الوعي والفكر من الأمة الإسلامية، وقامت هذه الجماعة بعدد من الأعمال الهامة من منصة هذا المجلس. وقد أقيمت بفضل جهودهم هذه الكتاتيب والمدارس الابتدائية في كثير من القرى والمناطق من لاية أترابراديش، وقامت بتزويد ملايين من الطلاب بالتعليم الديني الأساسي، كما أن هذه الأعمال تمت بشكل منظم للغاية، وتم شرح وبيان أهميتها وضرورتها في مختلف المؤتمرات والندوات على الطبقة المثقفة من المسلمين. إن هذه الأعمال كانت مما لا بد منها للحفاظ على بقاء الشخصية الدينية والحضارية للمسلمين. وتتضح أهميتها في الخطب والمحاضرات التي قام بإلقائها رئيس المجلس وأمنائه في مختلف المناسبات.

وقد ظل ينضم إلى هذه القافلة لمجلس التعليم الديني مسئولون آخرون، منهم من أدى واجبه وانتقل إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، وقد برزت في العاملين المهمين لهذا المجلس حاليا أسماء الدكتور اشتياق حسين القريشي، الأمين العام، ومساعديه من الدكتور مسعود الحسن العثماني، والبروفيسور نفيس أحمد الصديقي.

ويحتل منصب رئاسة المجلس بالنيابة الشيخ سعيد الرحمن الأعظمي، مدير دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ، والبروفيسور نفيس أحمد الصديقي من عليجراه، كما أن الدكتور مسعود الحسن العثماني يشغل منصب الأمين العام للمجس هذه الأيام. وقد اتسعت مجالاته وأعماله بفضل جهود هؤلاء السادة وعنايتهم، وعقد مؤتمرات صانعة للتاريخ في مختلف المناطق والأمكنة على المستوى المحلي، يجدر بالذكر منها بصفة خاصة مؤتمرات راي بريلي، ومرادآباد، وبوريه في يمنا نجر بولاية هاريانه. كان المؤتمر الأول لمجلس التعليم الديني عقد في مديرية بستي بولاية أترابراديس ما بين 30 – 31 ديسمبر عام 1959م، وفيه تم اختيار الشيخ الندوي رحمه الله رئيسا لهذا المجلس، والذي ظل على هذا المنصب حوالي أربعين عاما حتى 31 ديسمبر عام 1999م ما دام على قيد الحياة. رحمه الله رحمة واسعة.

إن الأستاذ القاضي عديل عباسي رحمه الله وإن كان من المناضلين لاستقلال البلاد، والمؤيدين للسياسة العلمانية فيها، غير أنه بصفته مسلما واعيا كان كثير الاهتمام والعناية بالحفاظ على الشخصية الإسلامية والعقيدة الدينية للمسلمين في هذه البلاد، وكان يحس إحساسا بالموقف غير العادل من رجال الحكم في البلاد تجاه هذه القضية، وبالتالي صرف أوقاته وطاقاته لهذا الأمر، واستمر يعمل على هذه الجبهة بحرقة في القلب.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد نشأ فيه هذا الاهتمام بهذا الجانب بصفة خاصة منذ استقلال البلاد نفسه، فقام بإلقاء الخطب والمحاضرات في كثير من الأمكنة والمناسبات، وحاول عطف عناية رجال الحكم والمسئولين إليه من خلال الرسائل والمكاتبات، وعزز مجلس التعليم الديني منذ تشكيله بعنايته واهتمامه. وإن خطبه الرئاسية ومحاضراته المتنوعة في مختلف المناسبات ليست إلا عكس هذه العناية والاهتمام.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد بلغ من القلق على ما كان يجري في البلاد أنه كان يقرأ ويكرر قراءة الآية القرآنية الكريمة التي جاءت على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام وهو على فراش الموت بكل ما تنبع الآية من تألم وقلق (ما تعبدون من بعدي؟) بكل تألم واهتمام، ويعطف عناية المسلمين إلى الحفاظ على عقيدتهم وإيمانهم، فكأنه يقول: يا أيها المسلمون! اهتموا بحماية إيمان الجيل الجديد، انظروا! كيف كان سيدنا يعقوب عليه السلام يقول لأولاده وهم ما هم فيه من العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ بالله، ولكنهم كانوا في بلاد – وهي بلاد مصر على عهد فرعون الطاغية– المسلمون فيها أقلية، يحاول أن يتأكد من أن يبقى أولاده على الإيمان بعد وفاته، فيا أيها المسلمون يجب عليكم أيضا على كل فرد منكم أن يهتم بهذا الجانب ويتأكد قبل أن يوافيه الأجل من أن أولاده سيبقون على الإيمان والتوحيد.

للاطلاع على ما كان يفكر الشيخ الندوي رحمه الله وموقفه من التعليم الديني الأساسي نقدم هنا مقتبسا من خطبته الرئاسية التي كان ألقاها الشيخ الندوي رحمه الله في المؤتمر الإقليمي المنعقد في مدينة إله آباد في 17 فبراير عام 1985م، يقول فيه الشيخ الندوي رحمه الله:

«أيها السادة! أما المسلمون فإن حاجتهم إلى التعليم الديني والمعرفة الأساسية بالدين هي حاجتهم إلى الهواء والماء، فالمسلم ليعيش حياته كمسلم، وليوصف بالمسلم، وليقوم أمام ربه ورسوله في الآخرة، وليفوز بالنجاة فيها يحتاج إلى العقائد الدينية الأساسية كما

يحتاج الإنسان إلى الماء والهواء. ولا أبالغ إذا أقول بأن المسلم لا يكون مسلما لانتمائه إلى سلالة معينة، أو عنصر معين، أو شعب معين، أو حضارة معينة، إن الإسلام ليس مجرد حضارة، أو مجرد مدنية، أو مجرد طائفة معينة، إن مولودا إذا يولد في بيت برهمني فإنه أيضا برهمني إن لم يؤمن بذلك أو يقر به، إنه لا يحتاج إلى أعمال معينة ليقوم بها فيمسى برهمنيا. توجد في المسلمين أيضا صلات وأسر يفخرون بالانتماء إليها، ويتمتعون بسببها بالإكرام والاحترام، ولكن الواقع أن صلة الحقيقية الجديرة بالافتخار هي صلة العقيدة الصحيحة، وصلة العبودية بالله وحده، والطريقة الصحيحة لتعليمها ونشرها. إن هذه هي الصلة التي كان سيدنا يعقوب عليه السلام ليطمئن على تواجدها في أبنائه وأحفاده وهو محتضر، فجمع جميع أولاده وأحفاده، وسألهم (ما تعبدون من بعدي؟).

فإن سألني سائل ويقول بأنه يريد عمل لافتة لا تزيد على جملة واحدة للأمة الإسلامية، فأقول له اكتب فيها (ما تعبدون من بعدي؟)، واكتب تحت اللافتة أنه يجب على كل مسلم قبل أن يودع هذا العالم أن يسأل أولاده وأحفاده هذا السؤال، ويستعرض نفسه ما دام قيد الحياة، ويتأكد من أن هذا السؤال هل له من قيمة أو أهمية عنده؟ هل يرى من الضروري أن يتأكد بالنسبة لأجياله القادمة من السؤال (ما تعبدون من بعدى؟)؟ أقول لكم يجب على كل منا أن يحتسب نفسه ويرى هل يعير أهمية من عنده لهذا السؤال؟ هل يحمل هذا السؤال أو لا يحمل من أهمية على المستوى الفردي والأسرى والنسبي، والاجتماعي والمحلي والقروي وأقول في الأخير على مستوى الأمة؟ هل نفكر على أي طريق يسير أجيالنا القادمة، وأي طائفة أو أمة يتبعونها؟ وأي إله يعبدونه؟ هل يعبدون إلها واحدا أم يعبدون ملايين من الآلهة؟، ومن يؤمنون به قادرا متصرفا في نفسه وفي هذا الكون الواسع العريض؟»[1].

كان الشيخ الندوي رحمه الله شديدا في هذا الموضوع منذ بداية الأمر، لقد كان الشيخ الندوي رحمه الله حتى قبل أن يبدأ حركته المتمثلة بمجلس التعليم الديني، أخذ على بعض الزعماء الهندوس موقفهم من أن الشخصيات الهندوسية القديمة هي شخصيات محترمة وقدوة للجميع، ويجب عليهم احترامهم والاعتقاد فيهم وإلا فإنهم

(1) يرجى الرجوع إلى «مسئولية حماية إسلام الأجيال القادمة وحماية إيمانهم» من منشورات المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ الهند.

ليسوا هنودا، وكان قد دعا إلى ذلك أول من دعا السيد سمبورناند رئيس الوزراء الأسبق في ولاية أترابراديش، وألزم به الجميع، وشدد عليه فيما بعد السيد تاندان رئيس المجلس التشريعي في الولاية، فلاحظ عليهم الشيخ الندوي رحمه الله ملاحظة شديدة، وكتب إليهم رسائل ثم نشرها باللغة الهندية والإنجليزية في كتيب، ثم قام بإنشاء مكتب باسم «مجلس الإشاعة» أيضا، كان أمينه العام الشيخ محمد إسحاق السنديلوي (مدير دار العلوم لندوة العلماء وشيخ الحديث فيها آنذاك). وقد قام مجلس الإشاعة بنشر عدد من رسائل الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الموضوع وتم إرسالها إلى الزعماء الهنود، شرح فيها الشيخ الندوي رحمه الله:

«أن المسلمين لا يمكن أن يعتبروا الشخصيات الدينية الهندوسية شخصياتهم، وينبغي للزعماء الهندوس أن يفهموا هذا الأمر فهما جيدا، وليس معنى كون المسلمين هنودا أن يتبعوا ويتبنوا عقائد الأغلبية وتصوراتها الدينية أيضا. إن الهند بلد علماني، ويحق لكل مواطن من المواطنين أن يعيش بعقيدته وإيمانه».

وظل الشيخ الندوي رحمه الله يعمل على هذه الجبهة من منصة حركة التعليم الديني وحركة رسالة الإنسانية أيضا.

إن المنهاج التعليمي للأجيال الناشئة المتبع في البلاد والذي تقدم فيه عقائد الأغلبية وشخصياتها الدينية البارزة كقدوة وأنموذج يتعارض مع عقائد المسلمين وقيمهم الأخلاقية وطموحاتهم الإسلامية بصورة عامة، وهو ما من شأنه أن يجعل الأطفال المسلمين بعيدين وجاهلين بسلفهم الصالحين وشخصياتهم الدينية، ويعتبرون زعماء غيرهم قدوة لهم، ويتربون على توجيهات شركية وغير إسلامية بدلا من التوجيهات الإسلامية في العقيدة والعبادة والمعاملة، وهو خطر سيغير مسار حياة الأقلية المسلمة الحاملة لعقيدة التوحيد في بلاد الهند. لقد اعتنى الشيخ الندوي رحمه الله بهذه القضية أيما اعتناء، وكان يحاول أقصى ما يمكنه من الجهود لتدارك هذا الخطر، فلما قامت قضية نشر أنشودة «وانداي ما ترام» الخضوع أمام سارسوتي تعظيما لها واحتراما عارضها الشيخ الندوي رحمه الله معارضة شديدة، ونددد بها تنديدا، وقال بأنه «إذا لم يتم تعديل هذا القرار فإننا سوف نسحب أطفالنا المسلمين من المدارس الحكومية». فكان لمعارضته أثر كبير، واهتمت به الحكومة، وألغت قرارها في هذا الموضوع، وكتب للمسلمين نجاح كبير عزز معنوياتهم فقاموا بمواصلة مراقبة المنهاج التعليمي المتبع باستمرار ولا يزال

يتم ذلك من خلال مجلس التعليم الديني.

وعند ما ظهرت قضية إلزام جميع الطلاب بأنشودة «وانداي ما ترام» وهي تتضمن شركا سافرا في المدارس الحكومية، فعارضها الشيخ الندوي رحمه الله، وبما أن الشيخ الندوي رحمه الله كان لصوته صدى، وبما أنه كان يترك أثرا كبيرا، فأن القوى الطائفية الهندوسية استاءت منه، وأطلق زعماؤها انتقادات لاذعة، كما قاموا نتيجة لذلك بمداهمة منزل الشيخ الندوي رحمه الله في راي بريلي في ليلة 22 نوفمبر عام 1998م، وربما كانوا يريدون تخويفه وإرهابه ليمتنع عن معارضته، غير أنه ثبت على موقفه ثبوت المؤمن، وباء هؤلاء الأشرار باللوم والتنديد من جميع الجهات. إن هذا الحدث أشعر المسلمين بأنهم إذا لا يتظاهرون بحميتهم الدينية وغيرتهم الإيمانية فإنه سيتم استرضائهم بما يخالف عقائدهم الدينية، ويضطرون إلى اتباع أسلوب الحياة المليء بالشرك والخرافات، الأمر الذي سيكون دمارا لهم من الناحيتين الدينية والملية.

إن هذا الموقف الحازم للشيخ الندوي رحمه الله، ومعاملة القوى الطائفية له بسبب موقفه، ثم ردة الفعل التي ظهرت داخل البلاد وخارجها كل ذلك أدى إلى وضع حد من محاولات القوى الطائفية، وجعل الحكومة تعلن - على عكس إعلانها السابق - بكلمات صريحة بأن أنشودة وانداي ماترام وعبادة سارسوتي ليست ملزمة للجميع.

نشرت الجرائد في البلاد بتفصيل معارضة الشيخ الندوي رحمه الله لأنشودة وانداي ماترام وإيضاحه لسبب عدم قبول المسلمين لكونها متضمنة لكلمات شركية، ثم ردة فعل القوى الطائفية على هذه المعارضة، واضطرت الحكومة إلى تقديم الاعتذار، وتم عزل وزير التعليم الإقليمي في جانب، وفي جانب آخر تلقى الشيخ الندوي رحمه الله من التعاطف والتأييد ما لا يوجد له نظير في الماضي القريب.

نقدم فيما يلي مقتبسا من خطبة الشيخ الندوي رحمه الله التي ألقاها في اجتماع مجلس التعليم الديني المنعقد في مراد آباد لإلقاء الضوء على ما كانت تتمتع به هذه القضية من أهمية وخطورة في نظر الشيخ الندوي رحمه الله، يقول الشيخ الندوي رحمه الله في خطبته:

«يجب على المسلمين أن يهتموا بهذه القضية كما يجب عليهم أن يهتموا بإقامة المساجد لصلواتهم المفروضة، ولأداء مناسكهم الدينية، وكما يجب عليهم أن يهتموا بتهيئة أسباب الحياة للحفاظ على صلة الروح بالجسد، فلا ينبغي لهم أن ينتظروا مساعدة من الحكومة في

هذه القضية. بل يجب أن يدبروا مجالس الوعظ والدرس في المساجد، و مجالس الإصلاح والتربية في البيوت والمنازل، وحلقات التعليم الديني في الكتاتيب والمدارس، بل ويجب عليهم أن يقيموا في جميع أرجاء البلاد من شبكة المدارس الصباحية والليلية بحيث لا تخلو منها أية منطقة أو محلة.

وبطبيعة الحال هنالك ثلاثة أشياء ضرورية، أولها إعداد المقررات الدراسية التي تحتوي على المعلومات الدينية والمعلومات اللازمة للأطفال، وتكون مطابقة لأفضل المبادئ والتجارب التعليمية، وحسب سيكولوجية الأطفال، وأن تكون مقبولة لدى أغلبية المسلمين، والثاني هو البحث عن الأساتذة وتدريبهم، ليكونوا مؤهلين لتعليم هذه المقررات الدراسية بكل نجاح، واهتمام ورغبة وإخلاص، والشيء الثالث هو تعليم اللغة الأردية وهي أسهل وسيلة لدراسة المعلومات الدينية والموضوعات الإسلامية.

أيها السادة! إن القرار الجماعي للشعوب قد غير خريطة العالم ومصير الشعوب، وأن أهم ما نحتاج إليه اليوم، والذي يقدر أن يتغلب على جميع العراقيل والموانع، والذي تخضع له الظروف هو قرارنا اليوم بأننا سوف نقدم التعليم الديني لأطفالنا على كل تعليم، وأننا سوف نعتبر التعليم التقليدي أو الدنيوي بعيدا عن هذا التعليم الديني الذي لا يمكن للأطفال أن يعرفوا بدونه خالقهم ورسولهم وعقيدتهم وواجباتهم الدينية، إثما وخروجا عن الدين، فإذا كان هذا قرارنا ونحن صادقون فيه فإن أية قوة في العالم، أو أي إغراء، أو أية مصلحة لا يمكن أن تضل بنا عن الصراط المستقيم، ولا يمكن أن تحرم أجيالنا القادمة من نعمة الإسلام والإيمان».

إن الخدمات التي قدمها الشيخ الندوي رحمه الله بصدد مجلس التعليم الديني، قد جاءت بتفصيل في مجموعة قيمة لخطبه ومقالاته في التعليم الديني الأساسي أعدها الدكتور مسعود الحسن العثماني أمين مجلس التعليم الديني، وقد نشرت بعنوان «النداء المتواصل» مما يكن الاستفادة منه في المعرفة والاطلاع على فكر الشيخ الندوي رحمه الله ومهمته ورسالته في هذا الموضوع.

الحفاظ على الدين والشريعة
وإنشاء مجلس المشاورة الإسلامي لعموم الهند
وهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين

إن النضال الذي استمر لمدة عقود لاستقلال البلاد شارك فيه كل من الهندوس والمسلمين، بل ولقد لعب علماء المسلمين فيه دورا استثنائيا، فبالرغم من أن الانفصاليين من المسلمين طالبوا بعد الاستقلال بسلطة مستقلة لهم ومنحوها فعلا باسم باكستان، غير أن المسلمين الآخرين رأوا على أساس مشاركتهم في النضال المشترك لاستقلال البلاد أن الهند بلد متعدد الأديان والشعوب، وقد ساهم الجميع جنبا إلى جنبا في الحصول على الاستقلال والحرية في البلاد فإنه ينبغي أن تتوفر لهم بعد الاستقلال حقوق مساوية في التمتع بالحياة وحمايتها، لكن الاضطرابات الطائفية الشاملة التي شهدتها البلاد بعد الاستقلال جعلت المسلمين في حالة من الحيرة وعدم الاستقرار وفي خسارة الأموال والأرواح، و كان أخطر هذه الاضطرابات الطائفية ما حصل في راوار كيلا، وجمشيد فور، والذي جعلت تفاصيله المنصفين من الهندوس أنفسهم في حالة من الهم والغم، وأما المثقفون من المسلمين والزعماء فكان في قلق شديد وحزن عميق، مما أدى إلى انعقاد مؤتمر للزعماء والمثقفين المسلمين في رحاب دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ الهند، وكان للشيخ الندوي والشيخ منظور النعماني رحمهما الله بصفة خاصة دور فعال في عقده، وشارك فيه الممثلون من جميع المنظمات والأحزاب المسلمة في الهند، وتم فيه تشكيل منظمة باسم مجلس المشاورة لعموم الهند، الذي قام باختيار مختلف الطرق والأساليب لدعوة الناس إلى المسالمة والمراعاة للآخرين، والحفاظ على أموالهم وأرواحهم، كما أنه شكل مجموعة تتكون من أفراد لهم شعبية ونفوذ، وقام بجولات في مختلف مناطق البلاد، وبذل الجهد الكبير لإزالة عدم الثقة وفتور الهمة من قلوب المسلمين، ولفت عناية الشخصيات الكبرى ذات النفوذ والتأثير على ضرورة التفكر والاهتمام بالوسائل الكفيلة بحماية المسلمين في أموالهم وأرواحهم، الأمر الذي ترك ولله الحمد أثرا طيبا، وتعاون فيه المسالمون من الهندوس أيضا، وقضي على مشاعر عدم الثقة بالمواطنين، وفتور الهمة والإرادة في المسلمين.

ترك مجلس المشاورة لعموم الهند أثرا طيبا على ظروف البلاد وأوضاعها، وبما أن هذه الاضطرابات كانت حصلت على عهد حكم حزب المؤتمر الهندي مما أسفر عن تلاشي ثقة المسلمين بحزب المؤتمر، وأشعر المسلمين بضرورة إعلام الحزب المعني بأنه لا يمكن له الاستمرار لمدة طويلة في التمتع بالسلطة من خلال مجرد كلمات فارغة يطلقها للتعاطف مع المسلمين، وبأن المسلمين يقدرون على رفضه وإقصائه من الحكم من خلال الطرق الديمقراطية، فكانت النتيجة أن أثبت المسلمون أنهم لا يقبلون بحزب المؤتمر للسلطة، فخسر الانتخابات وحلت محله حكومة الائتلاف، الذي كان يتظاهر بالتعاطف الفعلي مع المسلمين، وقد قاموا فعلا بعد تولي الحكم بعدد من الأعمال لصالح المسلمين، مما أوحى إلى الجميع أن أي حزب لا يمكن له الصعود إلى كرسي الحكم ما دام لا يضمن الحقوق الوطنية والحماية الوطنية بمختلف أشكالها لمختلف أهل الديانات والطوائف.

ظل مجلس المشاورة يلعب دورا فعالا لمدة عقود، وكان فيه للشيخ الندوي رحمه الله مساهمة موفورة، ومن أبرز من رافق الشيخ الندوي رحمه الله وتعاون معه في هذا العمل الشيخ محمد منظور النعماني والدكتور محمد اشتياق حسين رحمهم الله جميعا.

إن أول من تولى رئاسة مجلس المشاورة لعموم الهند هو الدكتور سيد محمود، وبما أنه كان ينتمي إلى حزب المؤتمر الهندي تركت رئاسته للمجلس أثرا عميقا على مسير الأوضاع، وتولاها بعد وفاته الشيخ المفتي عتيق الرحمن العثماني، وهو الآخر عزز مكانة المجلس ووسع نطاق تأثيره، ثم تسرب الضعف إلى المجلس بعد وفاة الأخير رحمهم الله جميعا. وإن بقي الشيخ الندوي رحمه الله متعاطفا ومتعاونا مع المجلس إلا أنه فقد تأثيره وصلاحيته في نظر الشيخ الندوي رحمه الله، والواقع أن الأعمال التي كان أداها المجلس لم تكن مطلوبة الآن لحد كبير، فإن الشيخ الندوي رحمه الله – إن لم يقطع صلته بالمجلس تماما نظرا للحاجة العامة إلى وجوده – لم يكن يراه مفيدا مثلما كان.

وإضافة إلى ذلك ظهرت هناك قضية جديدة في الإطار الديني للمسلمين، وهي قضية الحفاظ على الشريعة الإسلامية، وقامت الحاجة إلى بدء المحاولة والجهاد من جديد اتباع الطرق والأساليب المختلفة. والأمر الذي كان لا بد من مراعاته هو أن سكان البلاد ليسوا من أهل دين أو دينين اثنين، وإن كان الهندوس هم أغلبية سكان البلاد

غير أن هناك أقليات متعددة غير هندوسية أيضا، لها ديانتها وخصوصياتها، وأكبرها الأقلية المسلمة التي تحمل دينا خاصا به، ونظاما شاملا لحياتها. ونظرا إلى هذا التنوع والتعدد نفسه في الديانات والحضارات قام صناع الدستور عند استقلال البلاد بوضع قوانين وتشريعات لا تراعي دينا معينا أو طائفة معينة، بل أحالوا القضايا الخاصة بالدين إلى أصحابه و أتباعه، ومنحوا لهم حق العمل بما يملي عليهم دينهم في الإطار الديني، غير أنهم أدخلوا إشارات توجيهية أيضا في الدستور إلى أنه من الأفضل أن توحد القوانين المدنية في البلاد.

وبعد فترة وجيزة من الاستقلال حاولت بعض الجهات من الأغلبية الدينية استغلال هذه الإشارة لتغليب دينها على الديانات الأخرى، وبما أن المسلمين هم الأقلية الكبرى ولهم قوانين اجتماعية وعقائدية محددة فإن هذا التغليب الديني كان له الوقع الأكبر على المسلمين، فقام المثقفون والعلماء الغيورون من الأمة الإسلامية للتصدي والمعارضة لهذه المحاولات الطائشة، وشعروا بخطورة الوضع لأن المطالبة جاءت من قبل الأغلبية، مما أدى إلى نشوء ضرورة المحاولات المنظمة، فعقد في بومبائي أواخر عام 1972م مؤتمر عظيم في هذا الموضوع تم فيه تشكيل هيئة لعموم الهند لتتصدى لمثل هذه المواقف بشكل منظم، وفوضت رئاسته إلى الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي رحمه الله وكان رئيس دار العلوم بديوبند، وهي مؤسسة تعليمية إسلامية كبرى في الهند، وأمانته العامة إلى الشيخ السيد منة الله الرحماني، فقامت هذه الهيئة بشرح ما كانت تحمله مطالبات الأغلبية من مضار ومظالم، وذلك من خلال عقد المؤتمرات والندوات والاجتماعات على مستوى البلاد، الأمر الذي كون رأيا عاما للمسلمين، أحس بأثره وقوته الجمهور والحكومة معا.

توفي الشيخ المقرئ محمد طيب رئيس الهيئة بعد ما مضى 11 عاما على تشكل الهيئة في يوليو عام 1983م، فتم اختيار الشيخ الندوي رحمه الله ليحل محله في رئاسة الهيئة.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يعرف كلتا الطبقتين الجديدة والقديمة بناء على دراسته وتعليمه، كما أنه كان مطلعا لحد كبير على أفكار وتوجهات غير المسلمين نحو المسلمين لما كان قد أجرى به من دراسات موسعة، إلى جانب كونه عالما دينيا كبيرا يملك قدرة ممتازة على الإعراب عما يريد، وشرح قضيته أمام المسلمين وغيرهم بأسلوب علمي

ومؤثر، فقام الشيخ الندوي رحمه الله بإيضاح وشرح خصائص الشريعة الإسلامية، وعدم قابليتها للتعديل والإلغاء لكونها محددة بالحكم الإلهي، وبيان اختصاصها بالأمة الإسلامية وذلك في إطار الدستور الهندي.

ظل الشيخ الندوي رحمه الله يؤدي هذه المسئولية على مدار 16 عاما منذ أواخر 1983 حتى 1999م، واتجهت القضية بعد احتلاله لمنصب الرئاسة بسنتين فقط اتجاها جديدا، عندما أصدرت المحكمة العليا في البلاد قرارا في قضية نفقة المطلقة المسلمة يؤيد مطالبة الجهات الهندوسية المتطرفة بتنفيذ القانون المدني الموحد في البلاد، الأمر الذي رأى فيه المسلمون خطرا كبيرا على وضعية الشريعة الإسلامية التي لا تقبل تغييرا ولا تعديلا، فأطلقت الهيئة حملة عامة بقيادة الشيخ الندوي رحمه الله وبتعاون من الرأي العام للمسلمين لإثبات أن الشريعة لا تقبل نسخا ولا تعديلا، وذلك في إطار الدستور الهندي، بأسلوب إجماعي وطريقة ديمقراطية، وقوبلت هذه الحملة بالمعارضة الشديدة من قبل الأغلبية ومن وسائل الإعلام الهندية، وبذلت الجهود لعدم قبول حق الشريعة الإسلامية في عدم التعديل والتغيير، غير أن قيادة الهيئة استطاعت أن تنجح - ولله الحمد - بعد جهد متواصل لسنة كاملة في إقناع الحكومة آنذاك بمطالبها، وقام رئيس الوزراء آنذاك السيد راجيف غاندي الذي كان حزبه وهو حزب المؤتمر الهندي الوطني يتمتع بثلثي الأغلبية في البرلمان مما كان يؤهله للتعديل والإلغاء للقوانين المتبعة في البلاد بتقديم مشروع تعديل القانون في البرلمان بعد ما شرح له الشيخ الندوي رحمه الله وزميله في الحملة الشيخ السيد منة الله الرحماني رحمه الله مصداقية مطالبة المسلمين بعدم قابلية شريعتهم للتغيير والتعديل على أيدي الإنسان، وأشار السيد راجيف غاندي على أعضاء حزبه بالتأييد لمشروعه بشكل حاسم، مما أسفر عن الموافقة والإقرار من قبل البرلمان على المشروع، فأبطل الدلائل التي قدمتها المحكمة العليا لإصدار قرار مخالف للشريعة الإسلامية في قضية المطلقة المسلمة.

إنه كان نجاحا مجلجلا لقيادة هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين في البلاد، إذ استطاعت الأقلية أن تستصدر قرارا من البرلمان للحفاظ على شريعتها بالرغم من المعارضة والمخالفة السافرة من قبل الأغلبية، ولقد لعب في إحراز هذا النجاح ما قام به رئيس الهيئة وأمينها العام من حوار بالحكمة والاستدلال فازدادت الهيئة وقعا ووزنا

في الناس، وكان لصوتها صدى وتأثير، غير أن القضية كانت لا تزال تتطلب العناية والاهتمام لئلا يحصل من جديد ما قد يلحق الضرر بالمقاصد العليا للهيئة، كما بقيت الحاجة قائمة إلى تعزيز ثقة المسلمين والمثقفين منهم بصفة خاصة في موقف الهيئة، فقام رؤساء الهيئة وأمناؤها يحاولون الإيضاح والدفاع عن موقفها، ويجدر بالذكر منهم بصفة خاصة الشيخ الندوي رحمه الله الذي كان لقوله قيمة ووزن، وفي أسلوبه تأثير وفعل، وتأثر رئيس الوزراء بأهميته ومكانته، وكل ذلك أنتج في قيام رئيس الوزراء - بغض النظر عن مواقف زملائه المخالفة - بإقرار مشروع القانون المؤيد للشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالمطلقة المسلمة، وهي خطوة اعتبرت في النظام العلماني للأغلبية الهندوسية في الوقت الذي كان فيه موقف الأغلبية موقف نفور بل وموقف كراهية تجاه الأقلية المسلمة اعتبرت هذه الخطوة خطوة جرأة ونجاح.

كان دور الأمين العام لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين الشيخ منة الله الرحماني دورا بارزا منذ إنشاء الهيئة نفسه، وكانت له مشاركة خاصة للشيخ الندوي رحمه الله في فترة رئاسته، فعزز الهيئة تعزيزا بما كان يحمله من اهتمام وعناية من الناحية الفكرية والعملية، كما أن الاشتراك الفكري والتعاون المتبادل بينهما ساعد على حل القضايا والمسائل بانسيابية وسهولة، وكان كل منهما يقدر للآخر مكانته وأهميته، ويتعاون معه بإخلاص وثقة.

اعتبر ذلك حدثا سياسيا كبيرا في البلاد، إذ كانت الأصوات المرتفعة من مختلف الجهات في البلاد لوضع القانون المدني الموحد لاحتواء الفوضى القانونية المتفشية في البلاد بسبب القوانين المدنية المختلفة، إنما كانت محاولة نابعة من نيتهم للقضاء على الشخصية الإسلامية للمسلمين في الهند، وكان يتم تعزيزها بناء على الإشارات التوجيهية المدرجة في الدستور الهندي التي تدعو إلى التدرج نحو توحيد القوانين المدنية في البلاد، فالإصرار بالرغم من وجود قرار المحكمة العليا، وإرشادات الدستور التوجيهية والرأي العام على قرار يخالف كل ما سبق، وحصول الموافقة عليه كان خطوة استثنائية، وكانت النتيجة أن سلم المسلمون إلى حد كبير مما كانوا يتعرضون لسماعه مرة بعد أخرى من نعرات ودعوات لتوحيد القوانين المدينة، واعترف فيه بمجهودات الشيخ الندوي رحمه الله وفعاليته بشكل واضح.

لم يكد يمضي كثير وقت على إحراز الهيئة النجاح الكبير في حصول إقرار حكم الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بنفقة المطلقة المسلمة حتى ظهرت في البلاد قضية المسجد البابري كعامل صراع شديد وعنيف بين الهندوس والأمة الإسلامية، وأحاط الخطر الكبير بمكان عبادة المسلمين بعد نجاحهم في قضية شريعتهم، وبادرت الجماعات الإسلامية الأخرى لتبني القضية، وبدأت بذل جهودها على طرقهم، وبما أن هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لا تقتحم في قضايا تتبناها الجماعات الإسلامية الأخرى، وترى تبنيها لها وجهودها في سبيلها كافية، ويقتصر أعضاء الهيئة على التعاطف والتعاون في أعمالهم بشكل فردي، فبرزت إلى الميدان لجان عديدة باسم المسجد البابري بشكل رسمي، غير أن طرقتها وأسلوب معالجتها للقضية هي نفس الطريقة السياسية التقليدية وطريقة الاحتجاج الشعبي فقامت مقابلها منظمات هندوسية متطرفة أيضا، وبدأت تختار طرقها السياسية والشعبية وكان لهم تفوق وسيطرة لكونهم أغلبية فكانت النتيجة أن باءت محاولات اللجان المسلمة المشكلة باسم المسجد البابري بالفشل والتفكك.

وفي جانب آخر قام الشيخ الندوي رحمه الله بمحاولاته على مستواه الفردي، وكانت هذه المحاولات تتم على جبهتين، أولاهما أنه كان يمارس الضغط على رئيس الوزراء نفسه ليقوم بمنع أي عمل تخريبي بالمسجد من خلال الوسائل والأجهزة الحكومية، وتأكيد حمايته من خلال إعلان سياسة قوية حكومية في هذا الصدد، وقد اتفق لي أن كنت شاهدا لإحدى هذه المحاولات وقد شاهدت بأم عيني كيف كان الشيخ الندوي رحمه الله يصر على الحكومة لتستعجل في هذا الصدد، وتقوم بتأكيد حماية المسجد وضمانها من خلال القانون والأجهزة الحكومية، وحذر الشيخ الندوي رحمه الله أيضا رئيس الوزراء من أن التأخير في هذه القضية قد تجعل القضية تعقيدا وتفاقما، وتزيد من الخطر على سلامة المسجد وبنايته، وإن كان رئيس الوزراء لم يقطع له وعدا معينا، ولكنه أصغى إليه كأنه سوف يقوم بما يلزم، ولكن الأوضاع التالية أثبتت أنه لم يقم بأي شيء في هذا الصدد بل كان موقفه من المشاغبين والمعارضين لوجود المسجد موقف التسامح والتعاطف.

والجبهة الثانية التي قام فيها الشيخ الندوي رحمه الله ببذل جهوده تمثلت بلفت نظر شانكار آتشاريا وعنايته إلى هذه القضية، وأكد له أن سلامة البلاد ووحدتها في استبقاء

أمكنة العبادة والأمكنة المقدسة على ما كانت عليه عند استقلال البلاد دون أي تغيير في وضعيتها أو مكانتها، وتمكين كل طائفة من الطوائف الدينية في البلاد من كل الحقوق في العمل والاتباع لما تملي عليها ديانتها وتقاليدها في أعمالها الخاصة. وهذا هو ما عرضه الشيخ الندوي رحمه الله على رئيس الوزراء أيضا آنذاك، وكان أكد على ضرورة إعلان ذلك بصفته سياسة وطنية في البلاد، ولم يكن رئيس الوزراء هو الآخر رفضه على ما بدا. كان الحوار مع شانكار آتشاريا حديثا ناجحا وطيبا، ووعد شانكار آتشاريا الشيخ الندوي رحمه الله بالعناية والاهتمام بسلامة المسجد وحمايته، وقدم فكرة في هذا الصدد يقضي العمل بموجبها ليس باستعادة وضع المسجد فحسب بل باستئناف القيام بالصلاة فيه أيضا، ونقل الأصنام الموضوعة فيه إلى أي معبد من المعابد الهندوسية. وكان الشيخ الندوي رحمه الله يشاركه في هذه المحاولات الشيخ عبد الكريم باريكه، والسيد يونس سليم، والسيد كريشنا كانت، نائب رئيس جمهورية الهند سابقا، والذي كان في ذلك الوقت حاكم ولاية آندهرا براديش، ولكنه عندما تمت المحاولة لعرض هذه الفكرة وشرحها على الزعماء والعاملين الآخرين في قضية المسجد البابرى استنكروا مثل هذه المحاولات الفردية ولم يستعدوا حتى لسماع هذه الفكرة، فتوقف الشيخ الندوي رحمه الله ولم ير من المناسب المضي قدما إلى الأمام في هذه القضية وظلت القضية تحت رحمة من اللجان المتواجدة في الميدان.

وبعد ما تم هدم المسجد البابرى على أيدي المتطرفين من الهندوس، وتفاقمت القضية واستفحلت، واستعصى الوصول إلى النجاح، رأى زعماء هذه القضية حينئذ أن يلفتوا عناية الهيئة إلى القضية، وطلبوا من أعضائها أن يجعلوا هذه القضية موضوع اهتمامهم وعنايتهم بشكل خاص، فآلت إليهم القضية منذ ذلك الحين.

إن الشيخ الندوي رحمه الله لم يتخذ له بصفته رئيس الهيئة قرارا فرديا، بل تركه في ملعب القيادة الجماعية للهيئة، التي قامت بدورها بتشكيل لجنة لهذا الغرض وأحالت إليها القضية، واختارت اللجنة طريق المحكمة والقضاء بدلا من الاحتجاجات السياسية والأعمال الاستفزازية، وقصرت القضية على وسائل الإعلام استخدام الأسلوب الديمقراطي، مما خفف من سخونة القضية، وقلل من الاشتباكات الحامية، وبدأ النظر فيها في الإطار القضائي، وهي لا تزال على نفس الوضعية، ويبدو من الإجراءات

القضائية والخطوات الديمقراطية أن القضية إذا بقيت على مسارها الصحيح بين هذين الخطين فإن العاقبة للمسلمين.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يرى فيما يتعلق بالحقوق والأهداف الدينية والملية للمسلمين أنه ينبغي لهم أن يقوموا بشرح قضيتهم بأسلوب مناسب، ويختاروا كل ما يمكنهم من الوسائل والأسباب في الإطار القانوني والديمقراطي، وكان يعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى لحل القضايا والمسائل باشتراط تواجد الحكمة واتحاد كلمة الأمة، والتصميم والعزيمة، وكان يرى من الأنفع أن يتم العمل لتحقيق هذه الأهداف والمقاصد بعيدا عن المنفعة المادية والمالية، فكان يرى من المضر طلب المنفعة المادية أو الشخصية من رجال الحكومة وهو يطالبها بحقوق الأمة، وبالتالي قام الشيخ الندوي رحمه الله بمعارضة حركة تحصيل الرواتب لأئمة المساجد من قبل الحكومة على أساس أن تقاضي الرواتب من الحكومة قد يكره الأئمة على مراعاة رغباتها ومرضاتها في بعض الأحيان. إن الأئمة في المساجد لهم مكانة دينية عالية، وخضوعهم للضغوط أيا كان مصدرها سيكون بمثابة التدخل في المصالح الدينية. فلما قام بعض أعضاء الهيئة في إحدى اجتماعاتها بتأييد حركة تحصيل الرواتب من الحكومة عارض الشيخ الندوي رحمه الله معارضة شديدة واستنكر هذا التأييد، وذهب إلى القول بأنه لا يدع هذا الأمر يتحقق ما دام هو على صلة بالهيئة، فشطبت الهيئة هذه القضية من قائمتها، وقد قوبل موقف الشيخ الندوي رحمه الله هذا بالقبول والإعجاب بصورة عامة، وقضي على حركة تحصيل الرواتب لأئمة المساجد من الحكومة الهندية.

لقد أعارت الهيئة في إطار الحفاظ على الشريعة الإسلامية وهو الإطار الحقيقي لأعمالها ونشاطاتها أهمية أكثر لأعمال إصلاح المجتمع وبناء دور القضاء في مختلف مناطق البلاد، لأن ما نطالبه من الحكومة من الحفاظ على الشريعة يتم الحفاظ أولا على أحكامها ومتطلباتها في حياتنا الاجتماعية، فنعيش حياتنا الاجتماعية بما فيها من أحكام الزواج والطلاق والإرث وغيرها من الأمور والمعاملات العائلية والاجتماعية الأخرى، بالتالي تم تشكيل لجان مستقلة لإصلاح المجتمع وبناء دور القضاء، وبذلت العناية لنشر كلا الأمرين وتوسعة نطاقهما، وتفعيل نشاطاتهما، وهذه العملية لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، وترى هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين من الأنموذج أن تختار طرق التقدم

والمسير إلى الأمام مقتدية بطريقة سلفها السابقين، وأعمالهم ونجاحاتهم الباهرة، وإن الهيئة - وإن واجهت عددا من القضايا الجديدة - ظلت متمسكة على العموم - ولله الحمد - بالطريق القويم وظلت أعمالها ومواقفها تتمتع بالإشادة والإعجاب.

إن الشيخ الندوي رحمه الله ليس موجودا بين ظهرانينا بشخصه ولكنه ترك لنا خطبه ومحاضراته بين طيات الكتب والأوراق، ويمكننا أن نستفيد منها، ونسترشد بها[1].

ونقدم بهذه المناسبة مقتبسا من خطبة الشيخ الندوي رحمه الله الرئاسية الأخيرة التي كان أعدها للإلقاء في الاجتماع الذي عقد في مدينة بومبائي، وإن كان الشيخ الندوي رحمه الله لم يتمكن من الحضور في الاجتماع بسبب مرضه إلا أن هذا المقتبس يعطينا لمحة عما كان يفكر الشيخ الندوي رحمه الله ويرى بالنسبة للشخصية الإسلامية والحفاظ على الشريعة الإسلامية في الهند، وعن مدى حرصه على هذه القضية، ومدى حساسيته في هذا الصدد، يقول الشيخ الندوي رحمه الله في خطبته:

«إننا نحن المسلمين قررنا البقاء في الهند بكل عزيمة وتصميم، وبكل إرادة وتفكير، ولا يقدر على تغيير قرارنا هذا إلا القدر الإلهي. إن قرارنا هذا ليس مبنيا على فتور في الهمة، أو ضعف في الإرادة، أو نابعا من الإكراه والاضطرار، بل إننا اتخذنا هذا القرار بعد تفكير وإرادة».

القرار الثاني الذي اتخذناه (وهو لا يقل عن الأول عزيمة وتصميما، وأهمية ومكانة بأي حال من الأحوال)، هو أننا سنبقى على أرض هذا الوطن بكل ما نملكه من العقائد والشعائر الدينية، والقوانين الشرعية، وبكل الخصائص الدينية والحضارية، ولن نتنازل عن أي شيء من خصائصنا الإسلامية.

إننا نستحق - بصفتنا مواطنين لهذه البلاد - أن نعيش هنا بكل كرامة وحرية، وهو ما يقر به دستور البلاد وصفتها الديمقراطية، ولكن لا يعني ذلك أن نعيش في

---

(1) وقد قام الشيخ نذر الحفيظ الندوي الأزهري أستاذ دار العلوم لندوة العلماء بترتيب هذه الخطب والمحاضرات بعنوان « جهد مسلسل» واهتم بطبع هذه المجموعة الشيخ السيد محمد ولي رحماني الأمين العالم لهيئة الأحوال الشخصية للمسلين، وقدمت للمندوبين المشاركين في مؤتمر الهيئة السابعة عشر المنعقدة في مونغير الهند.

هذه البلاد متنازلين عن خصائصنا، وعن قوانين شريعتنا، و عن أحكام ديننا، وعن عقائدنا وشعائرنا، وعن لساننا وحضارتنا وهي خصائص عزيزة علينا. وإذا عشنا هنا متنازلين عما سبق، فإن الوطن لا يبقى وطنا بل هو بمثابة الزنزانة، والسجن، الذي كأن الشعب كله يعذب فيه محروما عن كرامة الحياة ولذتها، إننا - وإن كان مولدنا أرض هذا الوطن ونحبه حبا جما- لكن حضارتنا حضارة إبراهيمية، فالمسلم حيثما كان، ومهما كانت جنسته، يحمل حضارة إبراهيمية، إننا نريد أن نعيش هنا حياة، فيها حرية وفيها كرامة، إننا أحرار في هذه البلاد، ومساهمون في تقدمها وبنائها، ووضع دستورها وقوانينها، فلا يمكن أن نعيش هنا حياة المواطن من الدرجة الثانية. إنه لمن الحق الطبيعي والفطري والإنساني والأخلاقي والقانوني لكل إنسان أن يعيش في بلاده حياة حرة، وكلما سلب منه هذا الحق كانت عواقب ذلك خطيرة ووخيمة.

إننا سوف نعيش ونموت على الإسلام إن شاء الله، ولقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالمحاولة لأن يثبتوا على الإسلام والإيمان، وعليه يموتوا إذا جاءهم الموت. فقال تعالى: (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[1].

(1) من الخطبة الرئاسية للاجتماع السادس عشر المنعقد في بومبائي الهند ما بين 28-30 أكتوبر عام 1999م.

ندوة العلماء

بدأ الشيخ الندوي رحمه الله حياته العلمية في عام 1932م، ولم يكن قد بلغ من عمره إلا 17 أو 18 عاما، وكانت البداية بمساهمته الفعالة في النشاطات الأدبية والعلمية والتعليمية في رحاب دار العلوم لندوة العلماء، وكان ذلك في الزمن الذي كان فيه الأديب العربي الكبير العلاّمة الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله أستاذا بدار العلوم لندوة العلماء، والعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله مشرفا على نشاطاتها العلمية والتعليمية، فقام الشيخ الندوي رحمه الله وعدد من زملائه الأقران بتفعيل جوها العلمي تحت إشراف وعناية هذين الأستاذين الكبيرين، منهم الأستاذ محمد ناظم الندوي، الذي تولى إدارة ندوة العلماء فيما بعد، ثم أصبح شيخ الجامعة العباسية في بهاولفور بباكستان ثم أستاذ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وأقام بمدينة كراتشي بباكستان بعد تقاعده وانتقل إلى رحمة الله سبحانه وتعالى قبل عدة سنوات. ومنهم الأستاذ الشيخ مسعود عالم الندوي رحمه الله الذي كان رئيس تحرير مجلة الضياء العربية الموقرة الصادرة من ندوة العلماء فيما بين 1932 –1933م ثم تولى رئاسة دار العروبة الإسلامية في مدينة جالندهار، وتوفي عام 1954م ولم يكن بلغ من عمره إلا 44 عاما عند وفاته، ومنهم الشيخ أبو الليث الإصلاحي الندوي الذي كان فيما بعد أمير الجماعة الإسلامية في الهند، واستمر في الإشراف على الأعمال الدعوية والحركية النافعة، وتوفي رحمه الله في السنوات القريبة الماضية، ومنهم الشيخ محمد عمران خان الندوي الذي أصبح مدير دار العلوم لندوة العلماء، وشغل هذا المنصب حتى 1958م، ثم انتقل إلى مدينة بوفال حيث أنشأ تاج المساجد، كما أقام برحابه مدرسة إسلامية، وتوفي قبل سنوات، ومنهم الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي الذي أصبح أستاذا بدار العلوم لندوة العلماء، ثم رئيس القسم الإسلامي بالجامعة الملية الإسلامية بدلهي، وقام بأعمال وخدمات علمية ودينية، وتوفي رحمه الله بعد ما تولى منصب المشرف التعليمي لدار العلوم لندوة العلماء.

اختار الشيخ الندوي رحمه الله لحياته العلمية ثلاثة جوانب، وهي العلم والأدب والدعوة، وبقيت هذه الجوانب الثلاثة سمة بارزة طوال حياته، وقد عملت مع تطورها وارتقائها على توسيع آفاق شهرته وصيته، وشعبيته وقبوله، وظهرت له مؤلفات مؤثرة

وموقرة على الصعيد العلمي، لم تكن شهرتها مقتصرة على شبه القارة الهندية فقط بل تجاوزتها إلى العالم العربي والإسلامي، وقد نظر إلى بعض هذه المؤلفات بعين التقدير والاعتراف، بينما اعتبر بعضها من بين أهم الكتب العديدة على مدار القرن الكامل.

وأما الأدب فقد قدمه الشيخ الندوي رحمه الله كوسيلة فعالة من وسائل المصالح الإسلامية والإنسانية، وأثبت مكانته هذه أمام العالم الإسلامي وأقنعه بها، مما أدى إلى إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، التي تولى الشيخ الندوي رحمه الله رئاستها ما دام على قيد الحياة، واتخذت هي من مستقر الشيخ الندوي رحمه الله بندوة العلماء مقرا رئيسيا لها. ولم تبق القضية في هذا المجال على الفكرة والحركة فحسب بل صدرت من قلم الشيخ الندوي نفسه رحمه الله روائع أدبية تمثل نماذج عملية لوجهة نظره الأدبية الإسلامية.

وأما الدعوة فقد ارتبط الشيخ الندوي رحمه الله منذ بداية عمره بالحركات والمنظمات الدعوية في عصره، والسبب الرئيسي يرجع في هذا الارتباط أنه فهم واستوعب رسالة وأعمال الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله قائد حركة الإصلاح والجهاد في الهند عند ما كان يطالع ويبحث لإعداد سيرته حياته، وتأثر بها أيضا، ثم ارتبط عند ما أراد العمل في مجال الدعوة بالشيخ السيد أبي الأعلى المودودي رحمه الله مؤسس الجماعة الإسلامية الهندية، ثم كان له ارتباط خاص بالشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ، ومن هنا اتخذ له أسلوبا خاصا للعمل في مجال الدعوة يوافق إلى حد كبير مبادئ جماعة الدعوة والتبليغ غير أنه مزجه بالأسلوب الفكري والنظري أيضا.

إن الأسلوب الدعوي الذي اختاره الشيخ الندوي رحمه الله كان منسجما مع طريقة إصلاح الباطن وتزكية النفس أيضا، وكان ذلك نتيجة وأثرا لارتباطه بالعلماء الصالحين العاملين بالسنة، واتصاله بشيوخ تزكية الباطن واستفادته منهم في عصره، وقد ترك هذا الجانب في حياة الشيخ الندوي رحمه الله شيئا كثيرا من صفات الزهد في الدنيا، والاستغناء والقناعة واستحضار الآخرة، الأمر الذي زاد شخصية الشيخ الندوي رحمه الله قبولا وحبا وشعبية في قلوب المتصلين به والمنتسبين إليه، كما أن ذلك ضاعف من تأثيره ونفوذه في القلوب والعقول، وأكسب أعماله ومجهوداته قبولا ونجاحا.

تم تعيين الشيخ الندوي رحمه الله في ندوة العلماء أستاذا لمادتي التفسير والأدب، وكان يتقاضى عليه راتبا يسيرا، واستمر عليه ما يقارب عشر سنوات، إلا أنه كثيرا ما كان يضطر للرحلات والأسفار للأعمال الدعوية، فتحرج في القيام بواجبه التدريسي مقابل راتب، فاعتذر عن قبول الراتب بصفته مدرسا وأستاذا عام 1944م، وظل يقوم بالتدريس والتعليم طواعية دون مقابل، وبما أن المسئولين عن دار العلوم لندوة العلماء كانوا يقدرون لأدائه في ندوة العلماء تقديرا، ويعترفون بنفعه اعترافا، اختاره العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله المشرف التعليمي آنذاك نائبا له، ثم ترقى الشيخ الندوي رحمه الله إلى منصب المشرف التعليمي لدار العلوم لندوة العلماء، عند ما هاجر العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله إلى باكستان بعد انقسام البلاد، وتوفي هناك، وهكذا ازدادت واجبات الشيخ الندوي رحمه الله وأثقلت كواهله.

ومن جهة أخرى ظلت أعمال الشيخ الندوي رحمه الله الدعوية تزداد تأثيرا وإنتاجا، واتسع نطاق شهرته فتجاوزت شبه القارة الهندية لتدوي في البلدان العربية أيضا، وأحرزت مساحة أكبر، وحازت على مستوى أوسع بعد ظهور كتابه الرائع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين عام 1950م، وجاء هذا الكتاب وسيلة وذريعة لشهرة دار العلوم لندوة العلماء أيضا لكونها مستقرا له ومجالا لعمله، وأشعر الناس بأن ندوة العلماء التي تستطيع أن تنجب عالما متبحرا ومفكرا مرموقا وأديب مقتدرا بمستوى السيد أبا الحسن علي الندوي لا شك أنها مؤسسة عظيمة، ولما انطبع ذلك في فئة المثقفين وأصحاب النفوذ في العالم الإسلامي توافدوا إلى ندوة العلماء بشكل متزايد مع مرور الأيام، وكان الشيخ الندوي رحمه الله في جانب آخر يريد بدوره أن يرفع مستوى العلماء ويطور أدائها في تحقيق أهدافها وغاياتها، فاستغل علاقاته بالعالم العربي لصالح ندوة العلماء لكناؤ، واستدعى كبار العلماء والمثقفين في العالم العربي لإلقاء الخطب والمحاضرات، وقام بعقد مؤتمرات وندوات علمية، مما أتاح فرصا طيبة لرفع مستوى ندوة العلماء على الصعيدين الداخلي والخارجي.

انتخب الشيخ الندوي رحمه الله رئيسا لدار العلوم لندوة العلماء عام 1961م، وكانت دار العلوم في ذلك الحين مؤسسة قليلة الطلاب ومحدودة الشهرة، وبدأت تكتسب شهرتها الواسعة وتطورها السريع بفضل جهوده وشهرته في خارج البلاد، وتمتع

الشيخ الندوي رحمه الله في الصدد بالتعاون والتعاضد من زملائه الخواص وخاصة من زميله الشيخ محمد عمران الندوي رحمه الله الذي كان مديرا لدار العلوم آنذاك، ثم من مساعده الخاص الشيخ القاضي محمد معين الله الإندوري الندوي بصفة خاصة، وتعين الشيخ معين الله الندوي فيما بعد نائب الرئيس لدار العلوم لندوة العلماء، وبذل قصارى جهوده لتحقيق مشاريع وعزائم الشيخ الندوي رحمه الله بكل إخلاص وتفان، وظل ساعده الأيمن إلى آخر لحظات حياته. كان الشيخ محمد معين الله الندوي قد وهبه الله سبحانه وتعالى كفاءات ومؤهلات إدارية وقدرة استثنائية لتنفيذ المشاريع البنائية والتطويرية، وكان منسجما مع الشيخ الندوي رحمه الله انسجاما كاملا في رأيه وفكره، الأمر الذي ساعد على تحقيق ما أراده الشيخ الندوي رحمه الله من تطوير وتحسين في مستويات ندوة العلماء العلمية والتعليمية والدعوية إلى حد كبير.

عندما تم انتخاب الشيخ الندوي رحمه الله رئيس دار العلوم لندوة العلماء بالنيابة، لم يكن يوجد فيها إلا رواق واحد للطلاب، مكون طابق أرضي فقط، فتحول إلى طابقين بشكل تدريجي، وأنشئت إلى جنبها خمسة أروقة أخرى ذات طوابق، وكان عدد الطلاب في البداية لا يزيد على مائتي طالب، والذي ازداد بدوره مع بداية عام 2000م فبلغ إلى ألفي طالب في حرم دار العلوم لندوة العلماء فحسب بينما بلغ عدد الذين كانوا في المدارس الصغير التابعة لندوة العلماء خارج حرمها 2500 طالب، فكان العدد الإجمالي للطلاب داخل مدينة لكناؤ وحدها أربعة آلاف طالب، في الوقت الذي أقيمت فيه فروع ما بين صغيرة وكبيرة تابعة لدار العلوم لندوة العلماء خارج مدينة لكناؤ أيضا، وهي متزايدة يوما فيوما، وقد بلغ عدد المدارس التابعة لندوة العلماء 150 مدرسة في البلاد، كما أنشئت مدارس تابعة لها في عدد من البلدان خارج الهند أيضا، وإن حسب الطلاب بأجمعهم في جميع المدارس التابعة لندوة العلماء فإن عددهم سيتجاوز 15000 ألف طالب.

أما التعليم في دار العلوم لندوة العلماء فكانت تشتمل على أربعة صفوف ابتدائية، وتسعة صفوف عالمية، وكان كل صف من هذه الصفوف منحصرا في فصل واحد فقط، غير أنه حصل هنا تطور كبير في عهد الشيخ الندوي رحمه الله بشكل تدريجي، فقسمت المرحلة الابتدائية إلى ستة أعوام، والمتوسطة إلى سنتين، والثانوية إلى ثلاثة أعوام،

والعالية إلى أربعة أعوام، والفضيلة إلى سنتين، فكانت المقررات الدراسية هكذا تغطي 17 عاما دراسيا. ثم قسمت مرحلة العالية والفضيلة إلى قسمين كبيرين، قسم العلوم الدينية وقسم اللغة والأدب، وألحقت بكل من هذين القسم أقسام صغيرة، فكان في قسم العلوم الدينية قسم التفسير وقسم الحديث وقسم الفقه، بينما قسم قسم اللغة والأدب إلى قسم الأدب الحديث والأدب القديم، وقسم النقد والبلاغة، ويخير الطلاب بعد إتمام مرحلة العالمية في الأقسام المذكورة أن يختاروا منها ما يوافقهم وينسجم مع طبيعتهم من المواد والعلوم.

وتم إنشاء المعهد العالي للقضاء والإفتاء لطلاب قسم العلوم الدينية بصفة خاصة، والمعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي لطلاب القسمين وولهما دورة تستغرق عاما، ليتم بها تدريب الطلاب على المهارة العملية في هذا المجال، وقد قسمت صفوف العالمية إلى عدة فصول لكثرة الطلاب.

كانت دار العلوم لندوة العلماء لا تصدر أية مجلة عربية أو أردية في بداية أمره بعد أن قامت بإصدار مجلة الضياء العربية ومجلة الندوة الأردية قبله بخمسة عشر عاما غير أنهما انقطعتا لشح الوسائل وقلة الموارد بعد ما استمرتا عدة سنوات، فاهتم الشيخ الندوي رحمه الله بهذا الجانب وبدأ إصدار مجلة البعث الإسلامي الشهرية باللغة العربية وجريدة الرائد العربية نصف الشهرية قبل عام 1960م، وهما لا تزالان تصدران باستمرار منذ ما يزيد على أربعين عاما، وتتمتعان بقبول في العالم العربي، وتطبع لهما نسخ لا بأس بها، كما بدأ صدور (جريدة تعمير حيات) الأردية وهي جريدة نصف شهرية، لها مكانة خاصة في شبه القارة الهندية، إلى جانب مجلة إنجليزية دورية، ومجلة هندية شهرية منذ عام، وهي مجلات مقبولة وتحوز على إعجاب القراء بشكل كبير، إضافة إلى مجلة علمية وأدبية دورية بعنوان (كاروان أدب) تصدرها رابطة الأدب الإسلامي من مقرها في دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ الهند.

عقدت في عهد الشيخ الندوي رحمه الله لرئاسة دار العلوم لندوة العلماء أربعة مؤتمرات دولية، شارك فيها شيخ الأزهر وبعض الوزراء من العالم العربي، ورؤساء الجامعات العربية، وغيرهم من أهل العلم، وكان أحد هذه المؤتمرات في موضوع التعليم الديني، وكان يحتل هذا المؤتمر أهمية كبيرة على المستوى الدولي وساعد كثيرا على تمكين

ندوة العلماء من الشهرة العالمية، وكان هذا المؤتمر مؤتمرا صنع التاريخ وكان أكبر مؤتمر عقد في أية مؤسسة من المؤسسات الدينية الهندية[1]، وعقد المؤتمر الثاني بعنوان الأدب الإسلامي على المستوى الدولي، وشارك فيه أبرز العلماء والأدباء والمفكرين العرب، كما شارك فيه كبار الشخصيات العلمية والأدبية من الهند[2]، وعقد المؤتمر الثالث في موضوع الأدب الإسلامي نفسه والذي تم فيه تشكيل رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وكان المؤتمر الرابع على المستوى الدولي في موضوع رد القاديانية، شارك فيه إمام الحرم المكي الشيخ محمد بن عبدالله السبيل رئيس شئون الحرمين الشريفين، وغيره من العلماء البارزين من العالم العربي، والشخصيات العلمية المعتبرة من البلاد، وقد قوبل هذا المؤتمر بالإشادة والتحبيذ من قبل أهل العلم والدين في من أقاصي العالم وأدانيه.

إن المكتبة العامة لندوة العلماء كانت في قاعة دار العلوم نفسها، فشيدت لها عمارة مستقلة شامخة ذات خمسة طوابق في رحاب دار العلوم، كما تم تشييد بناية إدارية مستقلة، إلى جانب عدد كبير من سكن الأساتذة والموظفين، ولا يزال العمل يتم على شراء قطعة أرضية خارج المدينة ليتم تحويل بعض الأقسام إليها نظرا إلى العدد المتزايد للطلاب، ولقد أصبحت ندوة العلماء الآن مع مباني أقسامها المتعددة المقاصد والأغراض في رحابها بمثابة جامعة نظامية.

ظل الشيخ الندوي رحمه الله يقوم شخصيا بأعمال البحث والتحقيق والتصنيف باستمرار في إطار الدعوة والفكر الإسلامي كما كلف بها الآخرين، فأنشأ تحقيقا لهذا الغرض مؤسسة مستقلة باسم المجمع العلمي الإسلامي، الذي تجاوزت إصداراته لحد الآن على مأتي كتاب، وقد عمل المجمع العلمي الإسلامي على نشر إصداراته في أربع لغات كبرى من اللغة العربية والإنجليزية والأردية والهندية.

وقد جعل كل ذلك ندوة العلماء مؤسسة معروفة بين الأوساط العلمية والشرائح المثقفة في العالم الإسلامي بل في العالم بأسره، وهي مؤسسة تضاهي بمراحلها التعليمية

---

(1) للاطلاع على بيانات هذا المؤتمر الدولي في موضوع التعليم يرجي الرجوع إلى كتاب روداد جمن بقلم الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله.

(2) يرجي مراجعة كتاب كاتب هذه السطور (الأدب الإسلامي: فكرته ومنهاجه)

المعيار التعليمي في الجامعة، كما أنها تحمل بمقرراتها الدراسية خصائص أية مؤسسة دينية كبرى، إلى جانب أنها تجمع في موادها الدراسية ما هو صالح ونافع من المواد الحديثة والقديمة. وإنها الآن مؤسسة تعار أعمالها ومكانتها أهمية وتقديرا.

إن الأهداف والمقاصد التي كان وضعها مؤسسو ندوة العلماء نصب أعينهم، والمحاولات والجهود التي بذلوها لجعل ندوة العلماء مؤسسة تعليمية معيارية كان الشيخ الندوي رحمه الله قد فهمها وتبناها بشكل جيد، وكان يرى المؤسسة التعليمية من وجهة نظره دارا تربوية، يتم فيها صياغة النشء وفقا للأهداف والمقاصد المعينة، ومن هذا المنطلق يجب النظر في كل المنهاج التعليمي والمقررات الدراسية هل هي تشكل وسيلة لتحقيق الأهداف المنشودة أم لا؟ وهل يمكن بها تشكيل الإنسان المطلوب أم لا يمكن؟ ويجب على المسلمين في الصدد أن ينظروا إلى ما يفرض عليهم من مسئوليات وواجبات من ربهم الله عز وجل، وما هي المقتضيات والمتطلبات لحياتهم الدينية؟ وما هي الكفاءات والمؤهلات التي يجب عليهم التحلي بها لتأدية هذين الواجبين؟

كان الشيخ الندوي رحمه الله يرى أن الفرد المثقف منا مكلف بأن يرتقي إلى مكانة الرجل المؤمن مع مراعاة ظروف عصره وأوضاعه، ويجب عليه أن يكون صالحا ومؤهلا بشكل كامل لأداء حاجات أمته وضروراتها، وكان يرى فيما يتعلق بالمقررات الدراسية أن تكون جامعة بين القديم الصالح والجديد النافع، فقرر أن يشمل في مقررات ندوة العلماء الدراسية إلى جانب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والتراث العلمي والأدبي لسلفنا الصالحين، ما هو مفيد وضروري لحياتنا من العلوم التجريبية والآداب والثقافة العصرية، وبالتالي روعي هذا المبدأ في المقررات الدراسية المتبعة في ندوة العلماء، ويتم استعراضها ودراستها من حين لآخر.

أتيحت للشيخ الندوي رحمه الله فرص منذ طفولته ليرى المسئولين عن ندوة العلماء ويسمعهم عن كثب، حيث كان والده العظيم رئيس ندوة العلماء ثم احتل بعده شقيقه الأكبر هذا المنصب لمدة طويلة، مما أتاح للشيخ الندوي رحمه الله فرصا للاحتكاك والتفاعل مع فكرة ندوة العلماء ووجهة نظرها منذ طفولته إلى شبابه بشكل مستمر، فاستوعب الشيخ الندوي رحمه الله وجهة نظر ندوة العلماء التعليمية والفكرية، ومتطلبات العصر ومقتضياته للحفاظ على الأمة الإسلامية والرقي بها، استيعابا كاملا، فعمل لنفسه

خطة عمل توافق الأوضاع والظروف المتغيرة، وطبقها في ندوة العلماء لارتباطه الفعلي بها، ومن خلالها في الأمة الإسلامية.

أدرك الشيخ الندوي رحمه الله واستمر عليه طوال حياته أن المنهاج التعليمي ينبغي أن يكون بحيث يخرج أفرادا يقدرون على قضاء حاجات الأمة الآنية والدائمة، ولا يقلون في كفاءاتهم الفكرية وقدراتهم العقلية عن المعيار والتأثير الذي يتصف به أهل فكر عصرهم ومكانهم، ويستطيعون استخدام نفس الوسائل والمؤهلات التي يتطلبها الزمان والمكان في خدمة الأمة وإثبات تفوق الفكر الإسلامي، ويقدرون في جانب آخر على الاستفادة من المصادر والمراجع الموثوق بها للعلوم الدينية والإسلامية بحيث لا يضعفون في إثبات تفوق الإسلام أمام من يواجهونهم، و يتحلون على جبهة ثالثة وهي جبهة الدعوة وتشكيل الفكر والعقل بالأفضل في الثقافة الفكرية والوسائل البيانية ليقدروا على تأدية واجب الدعوة الإسلامية وبناء وتشكيل العقل الإسلامي، فاعتنى الشيخ الندوي رحمه الله باتخاذ تدابير ووسائل لإحداث تغيير وتعزيز المنهاج التعليمي والمقررات الدراسية المتبعة في ندوة العلماء لتوسيع نطاقها وتعزيزها، وأحرز النجاح إلى حد كبير، و ترى آثار ذلك واضحة فيمن تربي من خلال هذا المنهاج وهذه المقررات الدراسية بشكل جلي.

لم يكن الشيخ الندوي رحمه الله يرى ذلك ضروريا لندوة العلماء فحسب بل كان يقترح إدارة جميع المدارس الإسلامية على نفس هذا المنهاج، وكان يلفت عناية المسئولين من حين لآخر في خطبه وتعليماته في دار العلوم لندوة العلماء، أو حيثما تيسرت له الفرص خارجها أيضا إلى هذا الأمر، كان الشيخ الندوي رحمه الله يرى أن الكتب والمواد المدرسية يجب أن تتصف بما يحقق أهداف التعليم والتربية، وتحقيقا لهذا الهدف أكد على ضرورة إعداد كتب ومقررات دراسية في مختلف المواد آخذا في الاعتبار مقاصدها وأهدافها، بل ساهم في هذه العملية مساهمة فعلية، فقام بنفسه بإعداد كتب في اللغة العربية وآدابها لتحل محل الكتب العربية المصرية في المدارس الإسلامية، كما كلف بهذا العمل عددا من تلامذته وطلابه، فقد حصل لندوة العلماء الآن الاكتفاء الذاتي في اللغة العربية والأدب العربي وفي بعض المواد الأخرى، بل تجمعت لديها ذخيرة علمية لسد الفراغ في المدارس الأخرى أيضا، وهي مدرجة ومتبعة في كثير من المؤسسات التعليمية الدينية والرسمية

داخل البلاد وخارجها أيضا، وأكد الشيخ الندوي رحمه الله على ربط التعليم بالتمرين والتطبيق لأنه كان يرى التعليم النظري المجرد غاية لا فائدة فيها، فأدخل في المناهج التعليمية التمارين والتطبيقات العملية والبرامج التدريبية.

وقد بذلت جهود باستمرار لتطبيق ما سبق في ندوة العلماء لكناؤ حسب تصور وفكرة الشيخ الندوي رحمه الله في إطار وسائلها المالية والإدارية، وقد أنجز من ذلك شيء كثير، وينظر إليه بعين الاحترام والتقدير، غير أنها لم تبلغ حتى الآن لبعض المشكلات والمصاعب الخاصة بالوسائل والموارد إلى المستوى والمعيار الذي كان ينشده الشيخ الندوي رحمه الله، إلا أن المنهج الذي رسمه لا يزال نصب عيون تلامذته والمنتسبين إليه، ويلزمون أنفسهم بالسير عليه.

ظل الشيخ الندوي رحمه الله حتى بعد ما انقطع عن وظيفته التدريسية في ندوة العلماء لمدة عشر سنوات مرتبطا بالشئون التعليمية والتربوية بصفة دائمة، واستمر إلى جانب ذلك في أعماله الدعوية والدينية والعلمية، ثم عهدت إليه مسئولية المشرف التعليمي بالنيابة بشكل رسمي، فبدأ يهتم بشئونها التعليمية والتربوية بجدية، وحصلت لها هكذا فرص لتعزيز ندوة العلماء وتطويرها وترقيتها. وبعد عام 1961م بدأ يهتم بأمورها الإدارية اهتماما خاصا بعد ما عهدت إليه مسئولية الرئاسة والإدارة، ويسهر علي حاجاتها المالية والإدارية، مما أدى إلى تحقق رقي وتطور سبق ذكره فيما سبق على مختلف الأصعدة والمستويات في ندوة العلماء. كان الشيخ الندوي رحمه الله يستعين في أعماله وجهوده بالشيخ محمد عمران خان الندوي، والشيخ عبدالسلام القدوائي الندوي، والشيخ محب الله اللاري الندوي من بين معاصريه، كما أنه تمتع بتعاون الشيخ محمد منظور النعماني في مختلف المجالات، ويجدر بالذكر في هذه القائمة الشيخ محمد أويس النجرامي الندوي، والشيخ إسحاق السنديلوي الندوي، والشاه حليم عطاء سلوني الندوي أيضا من الأساتذة الكبار. وكذلك حصل على تعاون الشيخ محب الله اللاري بصفته مدير دار العلوم لندوة العلماء، وأما الطلاب والتلامذة فكان الشيخ معين الله الندوي أكثرهم تعاونا ومساعدة للشيخ الندوي رحمه الله حيث كان يشغل منصب نائب الرئيس ويعاونه في جميع أعماله الخاصة بندوة العلماء لكناؤ.

حصل الشيخ معين الله الندوي رحمه الله كثيرا على فرص التعاون مع الشيخ الندوي رحمه الله في إتمام وتحقيق أعماله ومشاريعه، فتعاون معه بما كان يتمتع به من مؤهلات وكفاءات ممكنة آخذا في اعتباره برغبات الشيخ الندوي رحمه الله وأهدافه، كل ذلك ساعد الشيخ الندوي رحمه الله مساعدة كبيرة في الإشراف على قسم التطوير والتعمير لندوة العلماء، وعلى اختيار وسائل الدعم المالي للإدارة من خلال الإشراف على الشئون الإدارية، والاهتمام بالتشييد والبناء حسب الضرورة، وتوفير وسائلها ومواردها المالية.

وبما أن الشيخ معين الله الندوي رحمه الله كان قد صرف أوقاته في الأعمال الدعوية بعد التخرج من ندوة العلماء إثر إكمال دراساته المنتظمة فكان يهتم بتشكيل أفكار الطلاب ولفت عنايتهم إلى هذا الجانب الدعوي أيضا.

تعين الشيخ عبدالله عباس الندوي بمنصب المشرف التعليمي لندوة العلماء بعد وفاة الشيخ عبدالسلام القدوائي الندوي الذي كان يحتل هذا المنصب كما سبق، وكان على ارتباط وثيق بالشيخ الندوي رحمه الله منذ أيام دراسته نفسها، وكان له اهتمام خاص بندوة العلماء، وظل يقدم ما كان يجب عليه من التعاون والمساعدة في إطار عمله. إن الشيخ عبدالله الندوي يقيم بمكة المكرمة غير أنه كثير السفر إلى ندوة العلماء على نفقاته الشخصية، ويشرف من خلال أقامته بها على الأعمال والأمور التعليمية والتربوية فيها. (أطال الله بقائه).

شغل الشيخ أبو العرفان خان الندوي منصب مدير دار العلوم لندوة العلماء بعد الشيخ محمد عمران خان الندوي، فقدم تعاونه بشكل كامل من خلال واجباته الإدارية للشيخ الندوي رحمه الله في أعماله ومجهوداته، وهكذا فإن كل ما تحقق في ندوة العلماء من تطور وارتقاء كانت فيه لكل من هؤلاء السادة مساهمة ومشاركة للشيخ الندوي رحمهم الله جميعا، وتمتع الشيخ الندوي رحمه الله باليسر والسهولة من خلال مشاركة هؤلاء الناس في أعمال تطوير وترقية ندوة العلماء لكناؤ.

وقد كان إلى جانب ذلك نصيب لا يستهان به من التعاون مع الشيخ الندوي رحمه الله من قبل عدد من تلامذته وطلابه في مختلف أعماله ومحاولاته، ويجدر بالذكر منهم بصفة خاصة ولد أخيه الشيخ السيد محمد الحسني الندوي رحمه الله الذي لم

يكن يدخر وسعا في تقديم تعاونه للشيخ الندوي رحمه الله من خلال كتاباته وفق اتجاهات الشيخ الندوي رحمه الله الفكرية، وكان معه الشيخ إسحاق جليس الندوي الذي ظل يتعاون مع الشيخ الندوي رحمه الله من خلال المجمع العلمي الإسلامي في أعماله الدعوية والفكرية بشكل مؤثر، غير أنه من الأسف الشديد أنهما فارقا الحياة في عمرهما الصغير، ولم يستمرا في أعمالهما الكبيرة الجليلة لمدة طويلة، وقد كان لهما نصيب كبير في عقد وتنظيم مهرجان ندوة العلماء التعليمي الأول، ويجدر بالذكر منهم على وجه الخصوص الدكتور اشتياق حسين القريشي، والدكتور سعيد الأعظمي الندوي، وشقيقي الصغير الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي، و يذكرعلى وجه أخص الدكتور اشتياق حسين القريشي الذي ظل يقدم تعاونه للشيخ الندوي رحمه الله في جميع أعماله الفكرية والدعوية بحب وإخلاص.

وفي هذا الصدد سعد كاتب هذه السطور أيضا إذ حظي بتكليف الشيخ الندوي رحمه الله إياه بتقديم نصيب من التعاون والمساعدة في أعماله العلمية والفكرية والدعوية والإدارية.

ونقدم في الأخير مقتبسا من كتاب الشيخ الندوي رحمه الله تعالى»كاروان زندكي»(في مسيرة الحياة) ضمنه الشيخ أهداف ورسالة ندوة العلماء، وفيه كفاية لمن يريد الاطلاع على رسالة ندوة العلماء وروحها، وهي المقتبس جزء من خطبة الشيخ الندوي رحمه الله التي ألقاها بمناسبة المهرجان التعليمي لندوة العلماء على مرور 85 عاما على إنشائها، وكان قد احتشد لهذا المهرجان التعليمي نخب من العلماء من داخل الهند وخارجها. قال الشيخ الندوي رحمه الله في خطبته:

«تقوم ندوة العلماء فيما يتعلق بالدين والمعتقدات الدينية على الدين الخالص النزيه عن جميع أنواع الشوائب والرواسب، والصافي عن جميع أنواع التأويل والتحريف، والبعيد عن جميع أنواع الزيف والزيغ، وهو الدين المتكامل بكل اعتبارات، والمحفوظ من كل انتحالات.

تتأسس ندوة العلماء في تفهم الدين وشرحه وتفسيره على الاستفادة من مصادر الإسلام الأولى الصافية الشفافة، والرجوع إلى أصله.

تتأسس ندوة العلماء فيما يتعلق بالأخلاق والأعمال على اتخاذ جوهر الدين ومغزاه، والاستقامة عليه بقوة، والعمل بالأحكام الشرعية، والتمسك بحقيقة الدين وروحه، والتقوى وصلاح الباطن.

تقوم ندوة العلماء فيما يتعلق بتصورها للتاريخ على أن الإسلام كان دوره الأول الذي ظهر فيه وانتشر كان أفضل أدواره وأكثرها احتراما وتقديرا، والجيل الذي ترعرع في حضن النبوة، وتربى في مدرسة الرسالة، وتخرج في مدرسة القرآن والإيمان كان أكثر مثالية وأصلح تقليدا، و أن سعادتنا ونجاتنا تتوقف على الاستفادة منهم أكثر فأكثر، ومحاولة اقتفاء آثارهم أشد فأشد.

تقوم ندوة العلماء في وجهة نظرها التعليمية وفلسفتها على أن العلم بذاته وحدة لا يمكن تقسيمها بين خانات الجديد والقديم، والشرق والغرب، فإذا كان هناك تقسيم للعلم إذا أمكن فهو تقسيمه بين الصحيح والخطأ، والنافع والضار، وعلى اعتبار وسائله وغاياته، وتعمل ندوة العلماء فيما يتعلق بالاستفادة والإفادة وفي الرفض والقبول بالحديث النبوي الحكيم «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها» وبالقول المأثور القديم «خذ ما صفا ودع ما كدر».

تقوم ندوة العلماء فيما يتعلق بالدفاع عن الإسلام والذود عنه وفي مواجهة القوى الملحدة المعاصرة على القوة الرباني العظيم ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ [سورة الأنفال: 60].

وتقوم ندوة العلماء فيما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى، وبيان محاسن الإسلام وفضائله، وإقناع العقل والفكر بصحة الإسلام ومصداقيته، على ما وصانا به سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، من أسلوب حكيم حيث قال «كلموا الناس على قدر عقولهم، أتريدون أن يكذب الله تعالى ورسوله».

تلتزم ندوة العلماء فيما يتعلق بالعقائد والأصول بمسلك جمهور أهل السنة، وترى من الضرورة الالتزام بالتقيد بآراء السلف وتحقيقاتهم في هذا المجال، بينما تذهب فيما يتعلق بالمسائل والقضايا الفقهية الفرعية مذهب الابتعاد والاجتناب عن إثارة القضايا الخلافية، و البعد عن أي أسلوب يحتمل أن يؤدي إلى التنافر والتباغض والتناحر، ويشتت شمل الأمة، ويمزق وحدتها، وإحسان الظن بالسلف الصالحين، وطلب العذر

لهم، وإيثار المصلحة الاجتماعية للإسلام على كل مصلحة وغرض.

وباختصار فإن ندوة العلماء أكثر انسجاما، وأقرب إلى المدرسة الفكرية والعلمية والكلامية والفقهية التي قادها العلاّمة الشاه ولي الله الده لوي، رحمه الله تعالى، وبالتالي تتجاوز ندوة العلماء عن مركز تعليمي محدود لتكون مدرسة فكرية شاملة لها غاياتها ومقاصدها[1]».

(1) كاروان زندكي (في مسيرة الحياة)ص141-142

الباب الخامس

الرحلات العلمية الدعوية

رحلاته إلى البلاد العربية

شعر الشيخ الندوي رحمه الله عند ما قام بدراسة الآراء الدعوية والفكرية والمحاولات العملية للعلامة الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني، والعلامة الشاه عبد الرحيم ولي الله الدهلوي المعروف بحكيم الإسلام رحمهما الله، بأن ما مرت به الأمة الإسلامية من رقي وازدهار، وتخلف وانحطاط إنما هو نتيجة مباشرة للأخطاء والضلالات السياسية والفكرية، كما أن ما اطلاع عليه من أحداث اضطهاد وعدوان أليمة كان يمارسها الاستعمار في الشرق الأوسط، أشعره بأن هناك حاجة إلى التعرف والاستعراض بشكل حكيم ومخلص للأوضاع بين الشرائح المثقفة في البلدان العربية، مما أثار في نفس الشيخ الندوي رحمه الله حماسة إلى أن يذكرهم بأن الرفعة التي ارتفعوا إليها، والعظمة التي بلغوها إنما هي رهينة علاقتهم الحميمة بسيدنا محمد ﷺ، و بالطريقة التي جاء بها، وبتوحيد الأمة الإسلامية في ضوء حياته الطيبة، والاتباع لسلفهم الصالحين، و فيه يكمن نجاحهم وعزهم.

ولقد كان لشقيقه الأكبر الدكتور السيد عبدالعلي الحسني رحمه الله أيضا نصيب في تشكيل هذه العاطفة وهذه النزعة، حيث كان يفيض عاطفة وحماسة للنصح للأمة الإسلامية في مختلف أنحاء العالم، فعزز نزعة الشيخ الندوي رحمه الله وتوجهاته هذه، بل زادها قوة ونشاطا.

فقام الشيخ الندوي رحمه الله في رحلة له إلى مدينة بومبائي بدعوة الموظفين العرب في السفارات والقنصليات العربية المتواجدة في المدينة ولفت انتباههم إلى هذا الجانب المهم، ونشرت تلك الخطبة بعنوان (إلى الراية المحمدية أيها العرب).

ثم خطط الشيخ الندوي رحمه الله لنشر دعوته ورسالته هذه بين العرب مؤكدا على أن شخصية رسولنا الكريم ﷺ هي مركز الاتحاد والعمل للمسلمين جميعا، فاستعرض

الأوضاع والأحوال في البلدان العربية أثناء رحلته إليها للحج عام 1947م، كما تبادل أفكاره مع أهل العلم والفكر فيها، وضمن مما ظهر له بعد تبادل الآراء العلمية والفكرية معهم من جوانب جديدة وما رآه منها مفيدا ونافعا في كتابه الرائع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) أيضا.

ثم قام الشيخ الندوي رحمه الله برحلته الثانية للحجاز عام 1950م وهو مصمم على أنه سيقوم بجولات في العالم العربي ويعرض فيه أفكاره على أهل العلم والفكر.

كانت هذه الرحلة الثانية ممتازة، ومفيدة وتحمل أهمية كبيرة من جوانب عديدة. لم يكن الحجاز حتى ذلك الوقت قد ظهرت فيه مظاهر الثروة الوفيرة والرقي الكبير التي جاءت فيما بعد على نطاق أوسع، بل كان الحجاز لا يزال يتمسك بصبغته الخاصة، ومزيته المحلية، وكان علماؤه الذين كانوا يحتلون مساحة كبيرة من الأهمية والاحترام يلقون دروسهم في رحاب الحرم الشريف نفسه بشكل عام، فكان الحرم الشريف يقوم بمثابة جامعة إسلامية مستقلة، وكان على رأس هؤلاء العلماء الكبار والشخصيات العظيمة الشيخ حسن المشاط، والشيخ عبد الرزاق حمزة، والشيخ محمد علي المغربي، والشيخ علوي المالكي، وكانت لهم مهارة فائقة وباع طويل في تخصصاتهم العلمية.

مما ساعد الشيخ الندوي رحمه الله على الاتصال والارتباط بهؤلاء العلماء الكبار وتبادل الأفكار والآراء العلمية والدعوية قدرته على التحدث والكتابة باللغة العربية وكفاءاته العلمية الفكرية، وقدم الشيخ الندوي رحمه الله كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) على الشيخ عبد الرزاق حمزة الذي كان إمام الحرم المكي أيضا، ويتصف بالاستعداد العلمي والدراسات الموسعة بوجه خاص نظرا إلى سعة علمه وشموله، فأبدى له عن تقديره الكبير، وتبادل معه بعض الآراء، واستفاد منه الشيخ الندوي رحمه الله ما كان يفوته من الفوائد والمعرفة التي كان ليحصل عليها في رحلاته إلى بلاد الشام.

أقام الشيخ الندوي رحمه الله في الحجاز هذه المرة مدة تتراوح بين خمسة أو ستة شهور، وكان الشيخ الندوي رحمه الله اصطحب معه والدته العظيمة، وحرمه الصالحة، وإحدى أخواته، كما اصطحب معه شقيقي الكبير الشيخ محمد الثاني الحسني رحمه الله ليساعدهم هناك، مما أعفى الشيخ الندوي رحمه الله من واجب العناية والإشراف على أفراد أسرته، كما تمتع بخدمة ولد أخته الشيخ محمد الثاني الحسني المتخرج من ندوة

العلماء وكان يمتلك استعدادا علميا كبيرا، فحصلت للشيخ الندوي رحمه الله على المنوال وسائل دولية للاستفادة العلمية بكل هدوء وراحة بال، ثم عندما عاد الشيخ الندوي رحمه الله من رحلته سنحت له فرص لتنويع أعماله الدعوية وتوسعة نطاقها، إلى مزيد من الفائدة والقوة في مجالات الدعوة والعلم والبحث والتحقيق، فاختار لنفسه منهج العمل والدعوة مراعاة لما كان يواجهه في ذلك الحين من أوضاع بسبب حادث انقسام البلاد، الذي ترك في نفوس المسلمين من الشعور بالعجز والخيبة الإحباط وعدم الثقة في المستقبل وحوادث الخطر والضرر على أموالهم وأنفسهم، ونظرا لما توفر له من الوسائل والأسباب.

ومن ميزات هذه الرحلة الخاصة أن الشيخ محمد إلياس رحمه الله مؤسس جماعة الدعوة والتبيلغ، الذي كان قد مضى على وفاته سنوات عديدة، وكانت أعمال جماعة الدعوة والتبليغ تتقدم وتتطور تحت إشراف ابنه الشيخ محمد يوسف رحمه الله، وكان قد حاول ودبر لنشر هذه الأعمال الدعوية في الحجاز أيضا، فكان أرسل الشيخ عبيدالله البلياوي إلى الحجاز لهذا الغرض، والذي بعث بدوره رسائل واحدة تلو الأخرى إلى الشيخ محمد يوسف رحمه الله في مسجد نظام الدين، يؤكد فيها على أن هناك حاجة ماسة إلى شخصية تقدر على تعريف فئة أهل العلم والفكر هناك بأعمال جماعة الدعوة والتبليغ بشكل مؤثر، كما ظل يقترح اسم الشيخ الندوي رحمه الله، أيضا لتحقيق هذا الهدف، فشعر الشيخ محمد يوسف رحمه الله أيضا بهذه الضرورة، كما وافق على رأيه الشيخ محمد زكريا رحمه الله أيضا، فاستغلوا رحلة الشيخ الندوي رحمه الله واستعانوا به في تعزيز أعمال جماعة الدعوة والتبليغ في الحجاز، فكانت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله إلى الحجاز رحلة مفيدة ومؤثرة، قام خلالها بتعزيز أعمال الجماعة في الأوساط العلمية والفكرية، ونشرها بين أهل العلم والأدب أيضا ولفت عنايتهم إلى أهميتها ونفعيتها بعد ما كانت بدأت هذه الأعمال على مستوى عامة الناس فقط[1].

وجاءت الرحلة الثانية للشيخ الندوي رحمه الله إلى الحجاز والبلدان العربية عام 1369هـ الموافق لعام 1950م، وهي الأخرى كانت رحلة دعوية. كان الشيخ عبيدالله

(1) لمزيد من التفاصيل في هذا الخصوص يرجى الرجوع إلى كتاب في مسيرة الحياة ج 1، وسيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي للأستاذ محمد الثاني الحسني رحمهم الله.

البلياوي والشيخ سعيد أحمد خان السهارنفوري رحمهما الله يؤديان مسئولية أعمال جماعة الدعوة والتبليغ، وانضم إليهما في غضون عام واحد تقريبا، متخرجان من ندوة العلماء وهما الشيخ معين الله الإندوري الندوي الذي تولى رئاسة ندوة العلماء بالنيابة فيما بعد، والشيخ عبد الرشيد الأعظمي الندوي بمشورة من الشيخ الندوي رحمه الله، ولما وصل الشيخ الندوي رحمه الله إليهم أصبحوا مجموعة فعالة من الدعاة العاملين هناك.

وكان الهدف الأكبر في مخيلة الشيخ الندوي رحمه الله من وراء بعث الشيخ عبد الرشيد الندوي عبارة عن توفير كتابات، إلى جانب القيام بهذه الأعمال الإصلاحية بين العامة، تلفت عناية الخاصة أيضا إليها، وتساعدهم على إزالة جو الفراغ الفكري والخواء الروحي السائد في الأوساط العلمية في البلدان العربية وخاصة في الحجاز المقدس، وعلى إدراك الأوضاع الراهنة ومكانة الأمة المسلمة ورسالتها. وكان الشيخ الندوي رحمه الله قد ساهم بنفسه في إعداد مثل هذه الكتابات من خلال رسائله، وكان كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لم ينشر بعد، غير أن عددا من الرسائل كانت قد خرجت إلى النور، منها رسالة (إلى ممثلي البلاد الإسلامية)، في نفس الموضوع، التي كان قدمها الشيخ الندوي رحمه الله إل الممثلين المشاركين في مؤتمر دول آسيا، المنعقد في مدينة دهلي، وكان الشيخ الندوي رحمه الله لفت أنظار حكام الدول الإسلامية إلى واجبهم الإسلامي، وإلى منهاج القيادة المنشودة وغايتها في البلاد الإسلامية.

والرسالة الثانية التي أعدها الشيخ الندوي رحمه الله هي بعنوان (بين الهداية والجباية)، وقد بين فيها الشيخ الندوي رحمه الله أهمية حكومة البلاد المقدسة وقيادتها، واسترعى عناية الحكام إلى واجبهم الإسلامي المتمثل بتقديم هداية الناس وتوجيههم الوجهة الإسلامي على المنافع المادية منها، والأداء المطلوب منهم وخاصة فيما يتعلق بالحجاز المقدس. كان الشيخ الندوي رحمه الله يريد أن يدرك المفكرون والمثقفون في العالم العربي ما يترتب عليهم من واجبات ومسئوليات بسبب كونهم في البلاد المقدسة والمحترمة، وكان يرى أن الكتابات العلمية والفكرية ستكون ذات نفع كبير في هذا الصدد وخاصة إذا كانت باللغة الشيقة والفصيحة.

سنحت للشيخ الندوي رحمه الله هذه الفرصة للسفر إلى الحجاز بعد فترة ثلاث سنوات، فاصطحب هذه المرة أربعة من تلامذته وطلابه ممن كانت لهم قدرة ومهارة في اللغة العربية، وكان من بينهم كاتب هذه السطور، وأستاذ اللغة العربية في دار العلوم

لندوة العلماء الشيخ عبدالله عباس الندوي، والشيخ السيد رضوان علي الندوي والشيخ السيد محمد طاهر المنصورفوري المظاهري رحمهم الله، وكان يريد أن يقوم بجولات في البلدان العربية بعد الانتهاء من أعماله في الحجاز، وأن يبقى هؤلاء التلامذة فيه لمدة يؤدون فيها الأعمال المطلوبة.

ومن ميزات هذه الرحلة أيضا أنها كانت بإمارة شيخه ومرشده الشيخ عبدالقادر الرائيفوري رحمه الله، وكان الشيخ الرائيفوري لم يكن ينوي أداء مناسك الحج فقط، بل كان يقصد تعزيز الأهداف الدعوية المنشودة في رحلة الشيخ الندوي رحمه الله أيضا.

ومن أهم ما حدث في هذه الرحلة أن الشيخ الشيبي حامل مفتاح الكعبة دعا بنفسه الشيخ الندوي رحمه الله لدخول الكعبة شرفها الله، وسمح له أيضا بأن يصطحب معه من يشاء من رفاقه وأصحابه. اعتبر الشيخ الندوي رحمه الله ذلك من كرامة مرشده الشيخ عبدالقادر الرائيفوري، حيث إن هذا الشرف لم يتح له بهذه الخصوصية قبل هذه المرة ولا بعدها وإن تكررت له الزيارة والرحلة إلى بيت الله الحرام، غير أنه تشرف بهذه السعادة عام 1996م عند ما قدم له مفتاح الكعبة المشرفة لفتحها ودخولها.

كانت منطقة الحجاز بمثابة وإقليم في المملكة العربية السعودية، بينما كانت نجد عاصمتها، وكرسي حكمها، فكانت الأخيرة تتمتع بأهمية أكبر على المستوى الرسمي بينما كان الحجاز هم الأهم من الناحية الدينية.

سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى الحجاز في أواخر عام 1950م. وإن الميزة التي امتازت بها هذه الرحلة والتي أخبر بها الشيخ الندوي رحمه الله هي أنه سنحت له فرصة للحج في العام المنصرم وهي بعد الأول بسنتين، فكانت الذكريات القديمة للرحلة الأولي والأيام التي قضاها في رحاب بيت الله الحرام تعتلج في نفسه وتملؤه شوقا وحرقة لهذه الرحلة، فكانت النفس نزاعة إلى استغلال هذه الفرصة لهذه الزيارة المباركة، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله كان قد ألزم نفسه منذ طفولته بأنه لا يقوم بأي عمل من الأعمال إلا بمشورة من كباره، فكان لا يقوم بعمل إلا بعد ما يستأذن من والدته وشقيقه الأكبر، كما كان يستأذن من مرشده ومربيه الشيخ عبدالقادر الرائيفوري فيما بعد. فأخبر الشيخ الندوي رحمه الله مرشده بهذا النبأ السار، واستأذنه للخروج في هذه الرحلة، فقال له شيخه: إذا نهيتك ..... فقال الشيخ الندوي رحمه الله: أمتثل لأمرك، ثم امتنع الشيخ الندوي رحمه الله عن هذه الرحلة، مما ترك أثرا طيبا في نفس مرشد وشيخه الشيخ

عبد القادر الرائيفوري، فقدر له شيخه تقديرا كبيرا، بحيث رتب له بنفسه زيارة في العام القادم، وأراد أن يقوم هو الآخر بالحج، وقال له بأنه لا يسافر إلا لاحترامه وتقديره إذ كان تنازل عن رغبته في العام الفائت. إن رحلة الحج بذاتها مناسبة مباركة، ولكنها تزداد بركة وسعادة بصفة خاصة إذا تتم بمعية الشيخ الجليل والمربي الكبير، وبتقديره واهتمامه، وقد ظهرت فعلا آثارها ونتائجها، بحيث أنها صارت رحلة أساسية وبعيدة المدى من الناحية الفكرية والعلمية والتعريفية للشيخ الندوي رحمه الله، كما أتيحت الفرصة لصحبته ورفقته لعدد من تلامذته ومنهم كاتب هذه السطور الذي رأى بأم عينه فوائد هذه الرحلة ومزاياها، بل ظل يشاهد باستمرار كثيرا من النتائج والآثار التي بدأ ظهورها بنفس هذه الرحلة.

وقام الشيخ الندوي رحمه الله بأعمال الدعوة في هذه الرحلة بما يمكن أي يعتبر أساسا وقاعدة للأعمال الدعوية التالية.

وكانت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله الثانية للحج على المعتاد عن طريق البحر، فلما رست السفينة في مكلا بحضرموت لحمل الركاب الآخرين، وظهرت لنا أرض جزيرة العرب هكذا بعد الرحلة عبر البحر طغت على ركاب السفينة فرحة خاصة، إضافة إلى أن من ركب السفينة من الحجاج كان من بينهم ابن قاضي المدينة وغيره من أصحاب العلم، ولما عرفوا أن السفينة تحمل علماء من الهند حضروا للقاء، وكان لقاءا طيبا تعارفيا، ثم رست السفينة بعد ثلاثة أيام في مرسى مدنية جدة، فالتقينا هناك من كان قد وصل من الأصدقاء والمعارف، وبما أن أيام الحج كانت قريبة، فإن الأعمال كلها دارت حول الحج في واقع الأمر، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله اتصل واجتمع بعد الانتهاء من مناسك الحج بالعلماء والمثقفين فيها، وعمل شخصان كوسيط نافع في هذا الصدد، أحدهما الشيخ السيد محمود حافظ، الذي كانت تنتمي والدته إلى شبه القارة الهندية، فكان يعرف اللغة الأردية، وكان فيه نزوع قلبي سكان شبه القارة الهندية، فاستأنس بالشيخ الندوي رحمه الله بشكل خاص، فاستغل الشيخ الندوي رحمه الله هذه العلاقة وأعرب عن رغبته في الاجتماع بأدباء الحجاز ومفكريها بحيث يتحدث إليهم عن أمور ضرورية، ويدعوهم إلى جعل ما عندهم من العلوم والأدب نافعا لدينهم وأمتهم، فعرفه الشيخ بالأديب والأستاذ أحمد عبد الغفور العطار، الذي كانت له مكانة خاصة بين أدباء الحجاز، وكان بنغالي الأصل، فاستأنس بالشيخ الندوي رحمه الله، ودعا من أدباء الحجاز

من كان له نفوذ وأثر طيب على عامة الأوساط العلمية في الحجاز إلى حفلة عشاء أقامها في إحدى الحدائق، وتم هنالك التواصل وتبادل الآراء بينهم وبين الشيخ الندوي رحمهم الله في الموضوعات السائدة في الأدب والفكر، وكان في الجمع السيد علي حسن فدعق، وهو أكثرهم انفتاحا، وتقدميا، وكان مقبولا بين معاصريه وزملائه في مجال الأدب، غير أنه كان يحمل نظريات لا يطمئن إليها فيما يتعلق بالدين والشريعة، فطرح على الشيخ الندوي رحمه الله أسئلة ليختبر بها معرفة الشيخ الندوي رحمه الله واطلاعه على الاتجاهات الأدبية الغربية وأدباء الأدب الإنجليزي من أصحاب الأسلوب، فاستغربنا ما أظهره الشيخ الندوي رحمه الله من اطلاعه الواسع ومعرفته الدقيقة بهذا الموضوع، ليدهش هو وغيره من أهل الأدب والنقد بمؤهلاته العلمية وقدرته على اللغة العربية، فاحتلت تلك الحفلة مساحة مرموقة من الأدب والعلم في قلوب أدباء أهل الحجاز وشعرائهم، وحملة الاتجاهات التقدمية، فلم يعجبوا بذوق الشيخ الندوي رحمه الله الناضج، والمتجدد فحسب بل أولعوا به بحيث أصبحوا محبين له طوال حياته، وكانت النتيجة أن رسخت في قلوبهم العلاقة العميقة بالدين.

وكان بعض من اجتمع بهم الشيخ الندوي رحمه الله مدراء أهم المجلات العلمية والأدبية في المملكة، ويتمتعون بتقدير واحترام بين شباب الأوساط العلمية والفكرية، ورد الشيخ الندوي رحمه الله على أسئلتهم بكل اطمئنان وثقة، مما أدهشهم، وكان ذلك اختبارا وامتحانا للشيخ الندوي رحمه الله، وكان يقول بأنني امتحنت امتحانا صعبا، غير أن ذلك رسخ في قلوبهم مكانة الشيخ الندوي رحمه الله وتفوقه العلمي والفكري بشكل جيد.

اقترح الشيخ الندوي رحمه الله عليهم في هذه الحفلة أن يخرجوا عن جوهم الخاص إلى مكان حر يتم فيه تبادل الآراء ومداولة الأفكار، فتحمس له الجميع، واختاروا قرية معروفة بوادي فاطمة على بعد 15 كيلو متر من مكة المكرمة، فقال لهم الشيخ الندوي رحمه الله بأننا نقيم في المسجد لتجربوا شيئا من الجو الروحي والبيئة الدينية.

فرحلت قافلة من هؤلاء الأدباء والمفكرين من مكة المكرمة بهدف دعوي إلى قرية وادي فاطمة ليقضوا فيها يوما وليلة، حيث تيسرت لهم فرصة طيبة لتبادل الأفكار ومناقشة الآراء، وبما أن كل هؤلاء كانوا حديثي العهد بمثل هذا الجو، وكانت نفوسهم نزاعة إلى اللهو والتسلية، فحمل أحدهم المذياع أيضا، وكان المذياع حتى ذلك الحين

شيئا مستنكرا عند المتدينين، غير أن الشيخ الندوي رحمه الله تجاهله أيضا وصبر عليه لمصلحة الدعوة، وكان لهذا البرنامج أثر طيب، فارتبط الجميع بالشيخ الندوي رحمه الله وانضموا إلى همه الدعوي، وظلوا على ذلك ما لم تفارقهم الحياة، وهكذا بدأت سلسلة من العمل على الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي في الأوساط المثقفة ثقافة عصرية في البلاد المقدسة، وأصبح ثلاثة أو اثنان من أدباء الحجاز الذين كان لهم نفوذ وتأثير على الشباب، مساعدين للشيخ الندوي رحمه الله، يجدر بالذكر منهم بصفة خاصة إلى جانب السيد علي حسن فدعق، الأديب الأريب والصحفي الموقر الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، والأستاذ محمد محسن باروم، الأستاذ سعيد العامود، والأستاذ أحمد عبد الغفور العطار.

وكان لهؤلاء الأدباء والشعراء علاقة طيبة بإحدى الشخصيات الرسمية المهمة في البلاد وهي شخصية الشيخ محمد سرور الصبان، الذي كان يحتل المرتبة الثانية في الهيكل الإداري في البلاد، كما كان يتمتع باحترام كبير بين الأوساط الأدبية، فهو الآخر تعرف على عظم مكانة الشيخ الندوي رحمه الله عن طريقهم، و ومن هنا جاء الاقتراح برحلة إلى الطائف أيضا رتبها الشيخ محمد سرور الصبان، حيث أقام الشيخ الندوي رحمه الله بضعة أيام، واجتمع بمن كان في الطائف من أهل العلم والفكر والأدب، ووصل إليهم الشيخ الندوي رحمه الله أفكاره الدعوية وهمومه الفكرية.

وكان في رفقة الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الرحلة ممن تلمذ عليه كاتب هذه السطور والشيخ معين الله الندوي، علاوة على الشيخ أحمد عبد الغفور العطار، وقد ساعد وجود الشيخ أحمد عبد الغفور العطار في هذه الرحلة مساعدة كبيرة على التعرف على الأوساط العلمية والمثقفة في الطائف، واستمرت الاتصالات بالعلماء واللقاءات معهم حتى بعد العودة من الطائف، وكذلك دعي الشيخ الندوي رحمه الله لإلقاء الخطب في الإذاعة أيضا.

كانت المملكة العربية السعودية لم تتطور لحد ذلك الوقت تطورا كبيرا في المجالات التعليمية، ولا تكاد توجد في البلاد إلا بضع مدارس على المستوى الثانوية، وأما بقية المدارس فكانت كلها تنتهي بمستوى المدارس الابتدائية، التي كانت أنشئت وفقا للمبادئ والأصول الحديثة للتعليم، فكان الطلاب بعد إتمام تعليمهم في هذه المدارس يرحلون إلى مصر بشكل عام، حيث يكملون دراستهم. وأما المدارس القديمة فكانت منها المدرسة

الصولتية في مكة المكرمة، وكانت مدرسة دينية خاصة منهجها هو المتبع في شبه القارة الهندية، ولها مقررات دراسية تناسب لظروف الحجاز وأحوالها، وكان الراغبون في المنهاج التعليمي القديم يتعلمون فيها، وكانت شبيهة بها مدرسة الفلاح التي كانت مدرسة شعبية، يتم فيها التعليم على المنهج القديم السائد في الحجاز فيما سبق. وأما في المدينة المنورة فكانت فيها مدرسة العلوم الشرعية التي كان يديرها الشيخ السيد محمود المدني شقيق الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمهما الله، وكان أسسها أخوه الشيخ السيد أحمد الفيض آبادي، وكانت تتبع نفس المنهج القديم، وكان يتعلم فيها طلاب العلم من المدينة المنورة وغيرها من المدن الأخرى. ولقد تخرج من هاتين المدرستين - مدرسة العلوم الشرعية والمدرسة في المدينة المنورة والمدرسة الصولتية في مكة المكرمة - اللتين أسسهما الشيخ رحمة الله الكيرانوي وهو علامة كبير تصدى لفتنة التنصير من شبه القارة الهندية نفسها، عدد كبير من أهل العلم وقاموا بخدمة العلم والأدب، غير أن حلول نظام التعليم الجديد في البلاد قلل من الاهتمام السابق بهاتين المدرستين، وتقلصت دائرة عملهما بشكل تدريجي.

قرر الشيخ الندوي رحمه الله بعد ما كون له حلقة من المعجبين به والمتبنين لأفكاره في الحجاز أن يسافر إلى مصر والشام والسودان، حيث كان التقدم والرقي في مجالات التعليم والفكر تؤثر على العالم العربي كله وكان قد أحرز فيها شيء كثير وكانت تلمس آثاره في العالم العربي بأسره، وكانت مصر بصفة خاصة قد أصبحت مركز القيادة العلمية والفكرية للعالم العربي.

وأما العالم العربي فكانت مصر تشهد منذ سنوات عديدة محاولات تبذل بقيادة الشيخ حسن البناء الشهيد رحمه الله لإعلاء كلمة الله، ورفع راية الإسلام، وكانت هذه المحاولات قد حمست الشباب المصري وعامة الناس على السواء لهذا الغرض، وبالتالي كانت قد بدأت فيهم عملية الإصلاح في حياتهم على مختلف الأصعدة والمستويات، وبينما كانوا كذلك إذ استشهد الشيخ حسن البناء، رحمه الله، وكان ذلك ضربة قوية للراغبين في إعلاء كلمة الإسلام دون وعي منهم، وكانوا بحاجة إلى ما يعزز عواطفهم ومشاعرهم لنصرة الإسلام، فجاء كتاب الشيخ الندوي رحمه الله - والوضع كما ذكرنا - ليكون عامل طمأنتهم ودعمهم معنويا، فوجد كل واحد منهم في الكتاب خير مستشار له، وأنصح متعاطف.

إضافة إلى ذلك سنحت للشيخ الندوي رحمه الله فرصة للتجول والترحال في مصر وما يجاورها من الدول العربية الإسلامية، وأحس الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الرحلة الثانية إلى الحجاز والتي أقام فيها هنا أربعة شهور بأن مصر تحتل المركزية العلمية والأدبية والمكانة القيادية والتوجيهية في العالم العربي، وهي بالذات تشكل منبعا لكل من الأفكار والآداب المريضة والسقيمة، والكتابات الفوضوية، وفي مقابلها الأفكار الصحيحة، والقيادة العلمية والفكرية الصالحة، فإذا كان هناك شيء يقصد نشره، وإعارته أهمية كبيرة، أو إحداث تغيير أو ثورة في العالم العربي، فإنه لا يمكن إلا عن طريق مصر، وهنا تجلت له أهمية الرحلة إلى مصر بشكل واضح، فقرر السفر إليها.

كان كتاب الشيخ الندوي رحمه الله قد سبقه إلى مصر، وتلقي فيها بقبول حسن، فما إن وطأ الشيخ الندوي رحمه الله قدمه على أرض مصر حتى استأنس بها، ولفت الشيخ الندوي رحمه الله انتباه الناس فيها من خلال خطبه ومحاضراته واجتماعاته إلى أن يتبنوا في مثل هذه الظروف التي يمر بها العالم العربي والإسلامي نفس المنهج العملي الذي كان اختاره الإمام أحمد السرهندي رحمه الله الذي طبق منهج الموعظة والبيان والشرح عندما انتشرت موجات الإلحاد والزندقة بتأثير الاتجاهات التي نشرها الإمبراطور أكبر في الشعب والبلاد، فكانت النتيجة أن حدث انقلاب تدريجي في نزعات وأفكار الملوك، وهو المنهج الذي يمكن أن يكون أكثر نفعا في الأوضاع غير المواتية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله بعد ما عاد من هذا السفر قد تفهم واستوعب تعقيدات ما كان يمر به العالم الإسلامي من ظروف وأوضاع، ومخاطر وإمكانات، وطموحات وتوقعات بشكل جيد، وكان قد حصل على فرص كثيرة هناك للقاء والاجتماع بزعماء الحركات والمؤسسات الدعوية والإصلاحية والجهادية في آسيا الوسطى، حيث لقي هناك الشيخ شامل القوقازي، والشيخ عبد الكريم الريفي المراكشي، والأمير عبد القادر الجزائري، والمفتي أمين الحسيني الفلسطيني، الذين كانوا قد اضطروا للجوء إلى القاهرة بعد ما هجروا بلادهم وأوطانهم، فساعد ذلك الشيخ الندوي رحمه الله على إدراك سياسة القوى الاستعمارية وعزائمها، كما أنه لقي عددا من العلماء القادمين من تركيا يجدر بالذكر منهم بصفة خاصة الشيخ أمين السراج. كان الشيخ الندوي رحمه الله استفاد في هذه الرحلة فرصا للسفر إلى السودان وبلاد الشام والاجتماع بشخصيتها وعلمائها، وكل هذه المعلومات أشعلت في قلب الشيخ الندوي رحمه الله عاطفة وتألما وحماسة، مما ميزه عن

غيره من العلماء وأعطاه ميزة وتفوقا عليهم في إدراك وفهم ما كان يمر به العالم الإسلامي من أوضاع وظروف.

ومن هنا بدأ الشيخ الندوي رحمه الله يخصص للعالم العربي والإسلامي مساحة خاصة في كتاباته ومحاضراته الفكرية والدعوية، ووجد ما كان كتبه في ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين موافقا للضرورة تمام الموافقة، وترجمانا صحيحا لأفكاره وآرائه، وظل الكتاب يؤثر تأثيره باستمرار كما بدأ عند ما نشر. ولم يتح له بعد هذا السفر أن يذهب إلى الحجاز لمدة عشر سنوات، غير أنه دعي بعد خمس سنوات خلال هذه الفترة إلى دمشق كأستاذ زائر لإلقاء المحاضرات في كلية الشريعة، وحصلت له الفرصة في هذه السفرة أن يلتقي ويستفيد من كبار العلماء والمفكرين والمشايخ، وكان الشيخ الكبير أحمد الحارون العسل الحجار الذي كان من كبار شيوخ السلسلة الغزالية هناك استأنس به استئناسا للغاية، وكان يحضر في محاضراته كبار علماء دمشق وأساتذتها المتخصصين، ويجدر بالذكر من هؤلاء العلماء والمفكرين بصفة خاصة الشيخ مصطفى السباعي، والدكتور معروف الدواليبي، الذي تولى منصب رئاسة الوزراء فيما بعد، والعلامة بهجة البيطار، والشيخ مصطفى الزرقاء، والأستاذ محمد المبارك وأمثالهم من كبار العلماء والأساتذة رحمهم الله جميعا.

وفي إحدى رحلاته إلى الشام نفسها سنحت له الفرصة لأن يزور بلاد تركيا، فاطلع على أوضاعها وأحوالها فيها عن كثب.

اطلع الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الرحلات على حقيقتين كان العلماء الهنود كلهم على جهل بهما، وكانوا قد كونوا رأيهم في هذا الخصوص على ما وصلهم من دعايات فارغة، وما رأوهم من مظاهر جوفاء. تتعلق إحدى هاتين الحقيقتين بالثورة العسكرية التي أحدثها في مصر الجنرال العسكري جمال عبد الناصر، وقضى من خلالها على الملوكية فيها، وكان استعان في إنجاح هذه الثورة بحركة الإخوان المسلمين التي كانت أكبر حركة وأقواها لرفع راية الإسلام، وبالتالي حاز على شعبية كبيرة، واعتبرت هذه الثورة على ما بدا محاولة للإسلاميين، غير أن جمال عبد الناصر لم ينتظر طويلا حتى نفض يديه من نظريات الإسلاميين، وأحكم قبضته على البلاد، واختار طريقة لحكم البلاد كما شاء، وبدأ يحقق أهدافه وغاياته مما أدى إلى فرقة واختلاف بينه وبين وجهة النظر الإسلامية التي كان يدعو إليها الإخوان المسلمون.

كانت حركة الإخوان المسلمين لها قوة عريضة وشوكة كبيرة في مصر، لم يكن بالإمكان التغلب عليها أو احتواؤها بسهولة ويسر، فتبنى جمال عبد الناصر شعار القومية العربية لكسر هذه الشوكة، واتخذ على أساسها سياسات متعسفة متشددة، وحاول ما وسعه للقضاء على الإخوان المسلمين وقمع حركتهم، واستعان في ذلك بالقوى العلمانية، والتجأ إلى القوى الخارجية، وقد خدع شعار القومية العربية حتى علماء مصر أيضا، فانضموا إلى جمال عبد الناصر بدلا من أن يناصروا الإخوان المسلمين، ولم يتمكنوا من إدراك أن شعار القومية العربية وإن كان في ظاهره عنوان العودة إلى الإسلام غير أنه بطبيعته العلمانية كان يتعارض مع الإسلام وتعاليمه السماوية.

ولما عاد الشيخ الندوي رحمه الله من السفر بين للناس ما كان للإخوان المسلمين من أهداف صالحة صحيحة، وما كانت تحمل سياسات حكومة جمال عبد الناصر العلمانية من ضرر على الإسلام والعالم الإسلامي، فقام علماء الهند بالاستنكار لموقف الشيخ الندوي رحمه الله بسبب معلوماتهم العابرة السطحية، إذ كانوا يعتبرون جمال عبد الناصر بطلا إسلاميا، والإخوان المسلمين حركة ثورية متمردة. والشيء الثاني الذي طرحه الشيخ الندوي رحمه الله أمام الناس بعد هذه الرحلة كان يتعلق بأوضاع تركيا وأحوالها، حيث كانت الخلافة الإسلامية مستمرة متواصلة حتى بداية القرن المنصرم، وقضى عليها مصطفى أتاتورك، وهو الذي كان قبل أن يتخذ هذا الموقف المعادي للإسلام أنقذ البلاد وحماها في أسوأ أحوالها بقيادته العسكرية المحنكة عندما كانت تخوض غمار الحرب مع اليونان، وكان مصطفى كمال أتاتورك قائدا عسكريا في ذلك الحين، فأكرم بلقب الغازي، غير أنه تبنى فيما بعد الموقف العلماني المتشدد فنقض كل ما قام به من أعمال جليلة أهلته للقب الغازي، وقام بإلغاء الخلافة الإسلامية، و حظر بشكل قاطع على جميع الشعائر والمعالم الإسلامية بما فيها من استخدام الخط العربي، والأذان باللغة العربية، وما إلى ذلك، وأعلن العودة إليها تمردا وخروجا عن النظام في البلاد، كما اعتبر اتخاذ الشعار الإسلامي جريمة في الدستور التركي لكونه منافيا للعلمانية، فكأنه أخرج تركيا من دائرة الإسلام إخراجا كليا، وطبق وجهة نظره العلمانية بقوة وشدة في البلاد، وأعاد تركيا في نظره من إسلامها إلى جاهليتها، وسار على سياساته العلمانية المتطرفة زميله ورفيقه السيد عصمت أنونو بعد وفاته، وهكذا لا تزال تركيا ترزح تحت وضع معاد للإسلام منذ ما يزيد على نصف قرن من الزمن.

بين الشيخ الندوي رحمه الله هذا الوضع بعد ما عاد من السفر بلغة واضحة وأسلوب صريح، فأنكر عليه بشدة العلماء الذين كانوا لحد الآن يعتبرون مصطفى كمال أتاتورك غازيا لمواقفه الشريفة السابقة، إذ اعتبره الشيخ الندوي رحمه الله عدوا لتركيا الإسلامية، وسببا مباشرا لمواقف تركيا غير الإسلامية، فلم يقبله العلماء وتمسكوا بمعلوماتهم القديمة، غير أن الأوضاع اللاحقة أثبتت أن ما كان أعرب عنه الشيخ الندوي رحمه الله من مواقف وانطباعات هو الصحيح.

وجد الشيخ الندوي رحمه الله أن أكبر سبب في حدوث ما حدث في العالم الإسلامي من مشاكل ومصائب هو المتغربون الذين تبنوا من خلال خداع الجمهور العام في العالم الإسلامي سياسات أرادت جعل هذه البلاد في تبعية تامة سياسيا وفكريا للقوى الغربية، فقام الشيخ الندوي رحمه الله بلفت عناية من تيسرت له فرصة للقاء معه من الحكام والرؤساء في الدول الإسلامية إلى هذه الأوضاع الخطيرة، وبعث إلى من لم يتيسر له فرصة للقاء معه منهم رسائل وكتبا ناصحة لاسترعاء انتباههم إليها، كما لفت الأنظار في كتبه وخطبه ومقالاته إلى الأسباب والعوامل والسياسات والمؤامرات الغربية التي أدت إلى أوضاع العالم الإسلامي المؤسف عليها، ولا شك أن ذلك يكون قد ترك أثرا بشكل أو آخر، غير أن الجهود الاستعمارية والاستشراقية التي ظلت تعمل على تشكيل العقول والأفكار للفئة المثقفة في العالم الإسلامي جعلت الحكام فيه يعجزون عن اتخاذ وتبنى السياسات الصحيحة لبلادهم مما أدى إلى ما يتأسف عليه كل مسلم في العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه.

ولقد سنحت الفرصة لكاتب هذه السطور أيضا أن يرافق الشيخ الندوي رحمه الله في أغلب رحلاته إلى دول العالم الإسلامي بشكل عام، وإلى دول أوروبا أمريكا بشكل خاص، فشاهد بأم عينه مدى اهتمام الشيخ الندوي رحمه الله وقلقه على الأوضاع السائدة فيها، وكيف كان يحاول لفت عناية المثقفين فيها إلى هذا الجانب المهم، وأول رحلة رافقت الشيخ الندوي رحمه الله فيها كانت هي الرحلة إلى الحجاز نفسه، وقد مر ذكره فيما سبق من الصفحات.

حاول الشيخ الندوي رحمه الله أن يبين ويوضح ما للحجاز من المكانة المركزية في العالم الإسلامي كله، وما يترتب على المسئولين والرؤساء والشخصيات البارزة المهمة فيه من واجبات جراء هذه المكانة المركزية بكل تألم وتحرق قلب ونصح، وكان الشيخ

الندوي رحمه الله مقتدرا على استخدام اللغة العربية تحدثا وكتابة اقتدار أهل اللغة عليها، وبالتالي كلما تكلم الشيخ الندوي رحمه الله استمع الناس لكلامه وأصغوا إليه. ولم يحصل للشيخ الندوي بعد ذلك فرصة للرحلة إلى الحجاز لمدة عشر سنوات، غير أنه ظل يبلغ ويوصل رسالته إلى الحجاز من خلال جهوده الكتابية والعلمية في ضوء ما كان انطبع في نفسه عن العالم الإسلامي خلال رحلته الأولي والثانية، حتى دعي إلى مناسبة إنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وانتخب عضوا في مجلسها الأعلى، فبدأ يحصل على فرص للرحلة إلى الحجاز كل سنة لحضور اجتماعاتها الاستشارية، وبذلك بدأت سلسة رحلاته إليها بصفة مستمرة.

ولما تم إنشاء رابطة العالم الإسلامي أكرم الشيخ الندوي رحمه الله بمكانة مهمة في هذه المؤسسة العالمية أيضا، والسبب الأكبر في ذلك يرجع إلى أن الشخصية المهمة الكبيرة وهي شخصية الشيخ سرور الصبان كانت معجبة بالشيخ الندوي رحمه الله أيما إعجاب، منذ رحلة الشيخ الندوي رحمه الله الثانية نفسها عام 1950م، عند ما دعي الشيخ إلى ندوة دعوية في الطائف، وكان الشيخ سرور الصبان أيضا حاضرا فيها، وكان آنذاك وزير المالية في الحكومة السعودية العربية، كما كان أديبا وشاعرا، وكانت له مكانة مرموقة في هيكل الحكومة، إلى جانب حرصه على رعاية الشعراء والأدباء. ولما وافقت الحكومة السعودية على مقترح إنشاء رابطة العالم الإسلامي أوكلت إليه بالذات هذه المهمة.

اختار الشيخ سرور الصبان الشيخ الندوي رحمه الله أيضا فيمن اختاره للأعضاء المؤسسين لرابطة العالم الإسلامي، وكانت هي ميزة كبيرة سعد بها الشيخ الندوي رحمه الله، وهكذا تكررت رحلات الشيخ الندوي رحمه الله إلى الحجاز لصلته بكل من الجامعة الإسلامية بالمنورة ورابطة العالم الإسلامي.

حاول الشيخ الندوي رحمه الله استغلال رحلاته لأهدافه ومقاصده الدعوية أيضا، ولم يمتنع أبدا عن التعبير عما كان يحمله من مواقف واتجاهات كلما تيسرت له الفرص، وقد اتفق له أن يرأس الجلسات والاجتماعات أيضا، كما تكررت له فرص تقديم كلمة الوفود مرارا، واستغل الشيخ الندوي رحمه الله كل هذه الفرص والمناسبات، ونبه الناس على ما كان يمسهم من القضايا والمسائل في ضوء الأخطار العالمية المحدقة بهم، وقام بتحديد وتصحيح المسار أيضا. كان الشيخ الندوي رحمه الله يستخدم للتعبير عما في نفسه من أفكار وآراء من الأسلوب ما كان يدمع العيون ويبكي القلوب، ولم يكن الاجتماع

ينتهي إلا و في قلوب الحضور هم وإرادة، وفكر ورسالة.

ومن أجل رابطة العالم الإسلامي نفسها لقي الشيخ الندوي رحمه الله الملك فيصل أمير المملكة العربية السعودية، ونصحه الشيخ الندوي رحمه الله أيضا فيما يتعلق بحكم البلاد ونبهه على ما للمملكة من مكانة متميزة في العالم الإسلامي، وعلى تحويلها إلى أنموذج وقدوة للدول والبلدان الإسلامية، كما لفت انتباهه إلى ما رآه من الأمور التي تحتاج إلى النصح والإشارة في إطار المجتمع والدولة، وقد تيسر لي أن أكون شاهدا لإحدى المناسبات، وإن كنت أتسمع إلى الحديث من بعد، وأخبرني الشيخ الندوي رحمه الله بانطباعه عن الملك فيصل الشهيد رحمه الله بأنه كان حاكما زكيا فطنا للغاية، فلما بدأ الشيخ الندوي رحمه الله بلفت انتباهه إلى الأمور التي كان يريد التكلم فيها بادره إليها الملك فيصل الشهيد رحمه الله، وأخذ يذكرها، وأبدى ما كانت تريد حكومته من مشاريع ومصممات، فأنه أدرك في البداية نفسها ما كان الشيخ الندوي رحمه الله يريد الخوض فيه، وأكد له عزيمته وتصميمه على العمل على تلك الجبهات لطمأنته، وكان في السنوات اللاحقة داعيا إلى حركة الوحدة في الدول الإسلامية، في الوقت الذي كانت فيه حركة الوحدة الإسلامية مرفوضة تماما في دول أوروبا وأمريكا، ولم يكن هناك إلا حاكمان وهما أحمد بللو من نيجيريا والملك فيصل من المملكة العربية السعودية، اللذان دعوا إلى هذه الحركة، وإن لم يستطيعا تنفيذ هذا الاقتراح بشكل فوري إلا أن الملك فيصل وضع حجر أساس لهذه الوحدة من خلال إنشاء رابطة العالم الإسلامي فيما بعد، ثم شارك بعد سنوات في تشكيل مؤتمر العالم الإسلامي، الذي لا قائما منذ ذلك الحين، غير أن أحمد بللو لم تستطع أن تستسيغه أوروبا، فأردته ونال الشيخ أحمد بللو شهيد الأمة شهادته على الأيدي الماسونية.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد كتب وذلك حتى قبل رحلته الأولى إلى الحجاز، إلى ولي العهد السعودي آنذاك وملك المملكة العربية السعودية لاحقا الشيخ سعود بن عبدالعزيز آل سعود، رسالة هامة لفت عنايته فيها إلى كون الإسلام دين الدعوة والنشر، ومكانة المملكة العربية السعودية، وقد نشرت الرسالة فيما بعد بعنوان «الجباية والهداية» أيضا، كما أنه كان قدم مقالا في مؤتمر ممثلي البلاد الإسلامية الذي كان عقد في مدينة دهلي بعد استقلال الهند مباشرة، وقد نشر فيما بعد بعنوان «إلى ممثلي البلاد الإسلامية». فكانت إقامة الشيخ الندوي رحمه الله هذه في المملكة العربية السعودية مع هذه الكتابات الدعوية

الإسلامية والتي كانت في رحلته الثانية للحج إقامة مؤثرة ونافعة جدا، وساعدت على تأسيس قاعدة جيدة للعمل الدعوي، وبهذه الرحلة ربط الشيخ الندوي رحمه الله رحلاته في البلاد العربية الأخرى فراح يزور بلاد مصر والسودان.

كان الشيخ الندوي رحمه الله على قناعة حصل عليها من خلال الرحلات في الدول العربية الإسلامية بأن الحجاز ولأجله المملكة العربية السعودية تتمتع بمكانة مرموقة قيادية للعالم الإسلامي، وإذا يقوم الحجاز أو المملكة العربية السعودية بأداء مهام منصب القيادة طبقا للمتطلبات الحقيقية للقيادة، فإنه يمكنها إحداث تغيير جيد في العالم الإسلامي، ويمكن إخراجه من حالة عدم الاستقرار والمهانة من الناحية الدينية، كما كان يعتقد أن مصر العربية تمتاز على جميع البلدان العربية بما فيها من ثقافة ومعرفة وعلم، ومن بيئة مساعدة على تحقيق المقاصد والأهداف العلمية والمعرفية فإذا يتم بذل الجهود من مصر في تصحيح اتجاهات سكان الدول العربية وإعادة المنحرفين إلى جادة الطريق فإن تلك الجهود ستكون ذات تأثير ونفع كبيرين، وإن الشعب المصري بما يغلب عليه من حماس للعمل، وما يمتاز به سكانه من تفوق على سكان البلدان الأخرى بشكل ملموس، وما أحرزته مصر من تقدم علمي وثقافي يتأهل لأن يقود العالم الإسلامي كله عن جدارة، ويتأكد ذلك من خلال حركة الإخوان المسلمين التي سادت مصر وسكانها بفضل جهود مؤسسها ومنشئها الشيخ حسن البناء الشهيد رحمه الله، والتي كانت قد غيرت حياة الكثيرين من سكانها، وتركت أثرا واضحا على حياتهم فيها، وكانت آثارها تمتد وتتعدى إلى الدول العربية الأخرى أيضا، فإن الشيخ الندوي رحمه الله عندما سافر إلى مصر ارتبط بالأوساط الدعوية والعلمية فيها، وتبادل معهم ما كان عندهم من أفكار وآراء، وأطلعهم على أفكاره وفكره أيضا، وهكذا تيسر للشيخ الندوي رحمه بأن يعرف في العالم الإسلامي كله بصفته داعية إسلاميا ممتاز، ومفكرا إسلاميا كبيرا.

وقد قام الشيخ الندوي رحمه الله بإلقاء الخطب والمحاضرات في كل من طبقة الخواص وطبقة العوام فيما غير مصر أيضا من بلاد الشام والأردن والإمارات العربية المتحدة، وقطر والكويت واليمن إضافة إلى المغرب الأقصى، كما أتيحت له فرصة لخطاب العسكريين أيضا في اليمن. كان الشيخ الندوي رحمه الله قام خلال رحلاته في هذه الدول والبلاد بإعداد مقالات لفت فيها انتباههم وذكرهم بمسئولياتهم الإسلامية والخلقية بأسلوب مؤثر، ونشرت هذه المقالات في كتيبات بعنوان «اسمعي»، مثل «اسمعي يا

مصر!» و«اسمعي يا زهرة الصحراء» و«بين العالم جزيرة العرب». وقد تركت هذه المقالات والكتيبات بما تتضمنه من علوم الشيخ الندوي رحمه الله وأفكاره الدعوية، وبصيرته النافذة وفراسته الممتازة، ونظره العميق في المسائل و القضايا في العالم الإسلامي أثرا عميقا في نفوس جميع السامعين والقارئين، وأحسوا بأن الشيخ الندوي رحمه الله ما يريد إلا الخروج برسالة الصدق والحق التي جاء بها الإسلام من إطار الإقليمية والطبقية الضيقة، وشرح ضرورتها ونفعيتها للإنسانية جمعاء وعلى المستوى العالمي، ومن هنا اهتم الشيخ الندوي رحمه الله في جميع رحلاته إلى البلدان العربية بأن لا يغره هو أو أحدا من زملائه ورفقائه ما تملكه هذه الدول من ثروة وما تنتشر فيها من روح مادية، وبالتالي آثر الزهادة والاستغناء والأولويات الدينية بذاتها على كل مناسبة وفرصة[1].

(1) يمكن الاطلاع على تفاصيل هذه الرحلات في كتب (من نهر كابول إلى اليرموك) ونفحات الإيمان بين اليمن وعمان) و (أسبوعان في تركيا) و(أسبوعان في المغرب)

رحلات الشيخ الندوي رحمه الله إلى
أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية

ولما حدثت صراعات عنيفة بين حركة الإخوان المسلمين والحكومة المصرية خرج من البلاد عديد من الشخصيات المهمة التي كان يحتمل أن تتعرض للمشاكل على أساس سياسي ومنهم الدكتور سعيد رمضان، الذي عرف في مصر بكونه صهر الشيخ حسن البنا، وبصفته محاميا قانونيا، وكان شابا يفيض حماسا ونشاطا وكان له تأثير على وسط الشباب أيضا. إن الدكتور سعيد رمضان كان رجلا طيبا بطبعه، ومتحمسا لإعلاء كلمة الإسلام بعقله وفكره.

قام الدكتور سعيد رمضان بإنشاء مركز للفكر والدعوة الإسلامية في جنيف بسويسرا، وبما أنه كان على اتصال بالشيخ الندوي رحمه الله خلال رحلته إلى مصر فإنه أدرج اسمه أيضا في الأمناء الخمسة أو الأربعة للمركز، وأخذ تأكيدات من الشيخ الندوي رحمه الله لحضور اجتماعات المركز السنوية الاستشارية، وهكذا حصلت للشيخ الندوي رحمه فرص للعمل في عديد من المدن الأوروبية الكبرى خدمة ونصرة للفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية، فاعتبر الشيخ الندوي رحمه الله هذه الفرصة من سعادته وشرفه وتقبلها بسرور ورضا.

جاءت أولى هذه الرحلات والتي كانت أول رحلة للشيخ الندوي رحمه الله في المناطق الأوروبية في عام 1962م، واصطحب فيها الشيخ الندوي رحمه الله الدكتور المعالج اشتياق حسين القريشي الذي كان يسانده ويعينه في الأعمال الدعوية والدينية التي كان يقوم بها الشيخ الندوي رحمه الله في الأوساط المثقفة الجديدة، وكان الشيخ الندوي رحمه الله بحاجة ماسة إلى مرافق ومساعد في أية رحلة من هذا النوع لما كان يعانيه من مرض في عينه، فكانت مرافقة الدكتور اشتياق حسين القريشي للشيخ الندوي رحمه الله في مكانها وأوانها.

سافر الشيخ الندوي رحمه الله خلال هذه الرحلة بعد مشاركته في برنامج مركز الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية في جنيف إلى لندن أيضا كما أنه زار ألمانيا أيضا، ثم خطط للرحلة إلى اسبانيا وهي رحلة تنم عن عاطفة دينية وإسلامية لكل مسلم يحمل

الفكر والدعوة. ولم يكن المسلمون حتى ذلك الوقت يتمتعون بأي تسامح يذكر من قبل الحكومة الإسبانية، ولم يكن هناك إلا عدد ضئيل من المسلمين إما على المستوى الدبلوماسي أو كان هناك عدد قليل من الطلاب الذين كانوا سافروا إليها للتعليم والدراسة لظروفهم وأوضاعهم الخاصة.

اجتمع الشيخ الندوي رحمه الله بهؤلاء الطلبة وحثهم على تكوين وحدة دينية مع من وصل إليها من المسلمين، كما حرضهم على أداء الصلاة جماعة في مكان معين أيضا، فجاءت بداية هذا العمل المبارك بتوجيه وقيادة من الشيخ الندوي رحمه الله، واعتبرت فيما بعد بداية طيبة ومباركة عند ما ازداد فيها سكان المسلمين، وبعد ما حصلوا على شيء من التسامح من قبل الحكومة الإسبانية، وقد بدأ الناس يهتمون وينشطون في الأعمال الدعوية والنشاطات الفكرية، واتسعت هذه الأعمال وانتشرت، وبرز المسلمون فيها كأقلية معتبرة.

زار الشيخ الندوي رحمه الله خلال هذه الرحلة عددا من المدن المختلفة، كما شاهد فيها الآثار القديمة. كان أسلوب الدليل الذي كان يساعد السياح والزوار في مشاهدة الآثار ويشرح لهم أهميتها وتاريخها أسلوبا عدائيا بالنسبة للمسلمين، إذ كان يقول وهو يشير إلى أثر تاريخي معين من عهد المسلمين فيها «إن هذا يرجع تاريخه إلى ما قبل أن طردنا المسلمين من البلاد» فأبلغه الشيخ الندوي رحمه الله بواسطة أحد رفقائه بأن هذا التعبير يؤلمنا نحن المسلمين، فغير الدليل عبارته، وعاد الشيخ الندوي رحمه الله عل كل حال بكثير من الذكريات، ودبج فيها مقالا انطباعيا مؤثرا.

كانت بداية حضور الشيخ الندوي رحمه الله في المركز الإسلامي بجنيف بداية سلسلة الرحلات المتكررة في الدول والمدن الأوروبية، وبدأ الشيخ الندوي رحمه الله يذهب إليها كل سنة في اجتماعات المركز. واصطحب الشيخ الندوي رحمه الله كاتب هذه السطور في السنة التالية، ومن ميزة هذه الرحلة إلى جنيف أنه كان يحصل على فرص وتسهيلات لزيارة لندن وما يجاورها من الدول الغربية الأخرى، وكان يساعده فيها كثيرا الدكتور سعيد رمضان، بل كان كثيرا ما يحاول أن يجول الشيخ الندوي رحمه الله في دول أوروبا، ويقوم فيها بتعريف الفكر والدين الإسلاميين في الأوساط المثقفة، فقد قام الشيخ الندوي رحمه الله بجولات عديدة في كثير من المدن البريطانية إضافة إلى لندن، وعدد من الدول الأوروبية الأخرى، كما تيسرت له فرص لإلقاء الخطب والمحاضرات أمام طلاب

الجامعات وأساتذتها، ولقد رافق الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الرحلات كثير من المساعدين له، غير أنني أنا كنت أتمتع بهذه السعادة في أغلب الأحوال والأحيان.

كان الشيخ الندوي رحمه الله يلقي خطبه ومحاضراته في هذه الرحلات باللغة العربية بشكل عام، إذ كان بين الحضور عدد كبير من الطلاب العرب، الذين كانوا يقيمون فيها للدراسة والتعليم، وأما الحضور المحليون فكان يكلف أحد من هؤلاء الطلاب العرب أنفسهم بنقل كلامه لهم باللغة الإنجليزية، وأما بالنسبة للغة العربية والحضور العرب فلعل الشيخ الندوي رحمه الله كان يعتقد أني أتأهل لمثل هذه الخدمة، وإن كان قد أكرم بهذه السعادة تلامذته الآخرين أيضا.

استخدم الشيخ الندوي رحمه الله أسلوب الحكيم في بيان محاسن الإسلام ومآثره عندما ألقى خطبه ومحاضراته في الدول الأوروبية إذ كان يراعي فيها عقل الشعب الأوروبي ومذهبه ودينه في الحياة، فكانت خطبه مؤثرة وآخذة بنفوس السامعين، كما لفت إلى جانب ذلك عناية أفراد الشعوب الشرقية الذين كانوا هناك طلبا للعلم أو كسبا للمعاش إلى ما يجب عليهم من واجبات دينية ودعوية في الدول غير الإسلامية، إضافة إلى ما تتطلب منهم الأخلاق والسيرة الإسلامية.

كانت جولات الشيخ الندوي رحمه الله في الدول الأوروبية تأتي كل سنة دون انقطاع، وظل يستغلها للأعمال والأهداف العليا للدعوة والفكر الإسلامي، وخلال هذه الفترة وجهت إلى الشيخ الندوي رحمه الله دعوة من قبل اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا للحضور والخطاب في اجتماعه السنوي، وكان يشارك فيه مشاهير أهل الفكر والعلم والدعوة من العالم الإسلامي، فتقبل الشيخ الندوي رحمه الله هذه الدعوة، اعتقادا منه أن ما ينشر ويذاع من أمريكا يمكن أن يكون له تأثير أوسع ونفوذ أعمق لما لها من سيادة وسيطرة على مستوى الدول الغربية كلها، بالإضافة إلى أنه كان يعاني من ضعف وغيره من الأمراض المختلفة في البصر منذ فترة فاعتقد أنه سيحصل بهذه المناسبة على فرصة لمعالجتها، غير أن الأخير كان هدفا ثانويا، وأما المقصد الحقيقي فكان يتمثل بتعزيز الدعوة والفكر الإسلامي في تلك الديار.

فخطط الشيخ الندوي رحمه الله ليستغل هذه المناسبة للأعمال الدعوية والفكرية برامج الرحلة إلى مختلف مدن الولايات المتحدة الأمريكية، والتي بدأت بعد الانتهاء من اجتماع اتحاد الطلبة المسلمين، واستمرت لما يتراوح ما بين خمسة عشر يوما أو عشرين

يوما، تمت خلالها رحلات إلى المدن الكبرى الولايات المتحدة وكندا، وألقى فيها الشيخ الندوي رحمه الله خطبا مؤثرة وذات مغزى، وكان قد وصل إلى أمريكا عدد وجيه من سكان الدول الشرقية لطلب العلم، وعدد كبير من العرب وسكان شبه القارة الهندية طلبا لغايات أخرى، وكانوا كلهم من الفئات والشرائح المثقفة، بينما كان قد وصل إلى دول أوروبا عدد لا بأس به من العمال والموظفين ما عدا أهل العلم والثقافة من شبه القارة الهندية، وبالتالي كان المخاطبون في أمريكا كلهم من أهل الفكر والعلم، فكان من المتوقع أن يعقد بهم الأمل الكبير. قام الشيخ الندوي رحمه الله بإجراء عملية جراحية في العين بعد الانتهاء من جولاته وكانت بفضل الله عملية ناجحة[1].

امتازت رحلات الشيخ الندوي رحمه الله هذه بأنه كان يركز في مختلف المؤسسات والمنظمات والمناسبات الأخرى على الجوانب التي كان يراها تحتاج إلى الاهتمام والعناية بصفة خاصة، وكذلك لم يكن يتكلم إلا بما كان نابعا من الإخلاص والنصح، غير أنه كان دائما ينبه على ما كان الناس يتجاهلونه أو يتغافلون عنه من قصور، فمثلا لفت عناية الناس خلال جولاته في المدن البريطانية وخاصة في المدن التي يقطنها كثير من سكان شبه القارة الهندية، وقد حصلوا على الجنسية البريطانية إلى ما لحق بهم من قصور وخطأ، وذلك أنه وجد أسلوب حياة السكان – من المنتمين إلى شبه القارة الهندية من مسلمين وغيرهم – في هذه المدن يحتاج إلى إصلاح وتعديل، لأن السكان البريطانيين الأصليين بدؤوا يهجرون هذه المدن لسبب أن ما تمتاز به حياتهم من نظافة ظاهرة ولباقة عملية لم يكن يهتم به الوافدون من شبه القارة الهندية مسلمين وغيرهم في حياتهم بشكل كامل، ومجرد نظرة عابرة على هذه المناطق تعلن بأنها تحتضن سكان شبه القارة الهندية. أكد الشيخ الندوي رحمه الله في محاضراته أن المسلمين ينبغي لهم أن لا يتركوا انطباعا سيئا عما يخص بالنظافة واللباقة والانضباط والنظام، ويجب عليهم بصفتهم مسلمين وبصفتهم مثقفين أن يلتزموا بما يمكن الالتزام به من النظافة واللباقة والآداب العامة للحياة.

كما لفت الشيخ الندوي رحمه الله عناية المسلمين إلى إصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح في المؤسسات والمنظمات الإسلامية وإن كانت أهدافها ومقاصدها صحيحة.

---

(1) مذكرات هذه الرحلة التي استغرقت أكثر من شهرين، تم تدوينها على يدي كاتب هذه السطور بأمر من الشيخ الندوي رحمه الله، ونشر بعنوان «شهران في أمريكا» باللغة الأردية، يمكن الرجوع إلى الكتاب لمزيد من التفاصيل.

فمثلا زرنا مدرسة دينية وهي مدرسة كبيرة ومهمة، غير أنها متمسكة بنهج المدارس الدينية القديمة في الهند، غير مهتمة بمقتضيات وحاجات موقعها، فتحدث فيها الشيخ الندوي رحمه الله وأشاد بما تتصف به من ميزات المدارس الدينية القديمة ولفت أنظار المسئولين عنها إلى خصائص هذه المدارس الرئيسية مؤكدا على ضرورة الاهتمام بالمقتضيات الدعوية والإسلامية التي يفرضها المكان والزمان، حيث أن العالم يجب أن يكون عارفا ومطلعا على حاجات الزمان والمكان اللذين يعيشهما ليكون على بصيرة عند ما يخاطب الناس، ويكون على دراية بأساليب وطرق إزالة سوء الفهم والتصورات الخاطئة العالقة بالنفوس والقلوب عن الإسلام. فإذا لم يتم الاهتمام بهذا الجانب في المقررات والمناهج الدراسية وتم اتباع عين المقررات والمناهج الدراسية المتبعة في الهند فإن ذلك سيكون عملا إضافيا وتغافلا سافرا عن المتطلبات المعاصرة.

ذهب الشيخ الندوي رحمه الله إلى مؤسسة دعوية وفكرية تقوم بأعمالها الدعوية والفكرية ضمن منهجها الفكري والدعوي، وهي أعمال مفيدة ومقبولة، غير أنها تعتبر أسلوبها وفكرها هما الأسلوب والفكر والوحيدان اللذان يمكن تطبيقهما، فتحدث الشيخ الندوي رحمه الله في هذه المؤسسة ووجه عنايتهم وهو يشيد بأعمالهم وأهميتها إلى أنه لا ينبغي أن نعتبر طريقة معينة أو أسلوبا دعويا معينا هو الأسلوب الوحيد للعمل والدعوة، كما لا ينبغي أن نعتبر شكلا معينا من أشكال الدعوة هو الشكل النهائي، بل ينبغي لنا أن نتوسع في العمل والدعوة، وأن نقدر لأعمال خدمة الدين والجهود في سبيلها حيثما كانت وبأي شكل كانت، ما دامت مصحوبة بالإخلاص، ويجب الاستفادة منها إذا كانت قابلة للاستفادة.

حضر الشيخ الندوي رحمه الله مركزا للدعوية الدينية، يقوم بأعماله الدعوية الجليلة في إصلاح عامة الناس والجماهير، فأشاد الشيخ الندوي رحمه الله بأعماله الإصلاحية والدينية وتأثيرها وأهميتها، ووجه أنظارهم إلى أن هناك جانبا مهما وهو الجانب التربوي للنشء الجديد في هذه البيئة الغربية، فإذا ما كلفنا أنفسنا بتوفير نظام للتعليم والتربية يضمن الحفاظ على خصائص التعليم والتربية الإسلامية، واكتفينا بنظم التعليم الحديثة المتداولة فإن ذلك سيؤدي إلى عواقب وخيمة، ومن الممكن جدا في هذه الحالة أن يكون الأب متدينا ومتهجدا وبكاء في الليل مستحضرا لمعاصيه وخطاياه، بينما يكون الولد قد وقع فريسة للإلحاد والعلمانية بسبب التعليم العلماني الخالي من القيم الإسلامية، وبسبب

البيئة التي يعيش فيها، ويكون خلافا لما هو أبوه، فيحمل فكرا غربيا، وعقلا علمانيا فيما يتعلق بالدين والإيمان، وذلك لأن قلوب النشء الجديد وعقولهم لا تصاغ إلا في القوالب التي يكون عليها نظام التعليم المتداول في بيئته.

وقال الشيخ الندوي رحمه الله في مناسبة أخرى بأنكم إذا ما تقدرون على اختيار الطرق والحيل للحفاظ على إيمان جيلكم الجديد وعقيدتهم، ولمساعدتهم في البقاء على الإسلام الخالص وتدفعونهم ليكونوا فريسة للإلحاد والبعد عن الدين والإيمان فإني أعتبر بقائكم في هذه البلدان معصية وعملا آثما.

وكذلك قال الشيخ الندوي رحمه الله في خطبة له ألقاها في كاليفورنيا في أمريكا عندما لاحظ هناك ما يتطلب الاهتمام والعناية بأن المسلمين وهم في بيئة غير إسلامية ينبغي لهم أن لا يصبغوا إسلامهم بصبغة وهي مختلفة عن صبغته الأصيلة والأساسية، فإن ارتكب هذا الخطأ ولا سمح الله بذلك فإن الإسلام سيتوزع في أنواع وألوان مختلفة متنوعة، فيكون هنالك إسلام أمريكي وإسلامي بريطاني. ينبغي لنا أن نجعل مهد الإسلام محط أنظارنا، وأن لا نتأسى إلا بعهد الإسلام الأول ليبقى الإسلام على لون واحد وصبغة واحدة، ولا يبتعد كالديانات الأخرى عن حالته الأصلية ولونه الأصيل.

وقال الشيخ الندوي رحمه الله بصراحة تامة بأن الدين واحد، فلا تتأثروا بالمؤثرات المحلية لدرجة أن يحدث هناك إسلام أمريكي وإسلام آسيوي وإسلام أسترالي أو إسلام أفريقي، لأن قيم الدين الأساسية وأحكامه هي قيم وأحكام واحدة، وقد راعى الدين نفسه لمختلف الأوضاع والظروف، غير أنه بمجمله دين واحد، فيبقى الدين - حيثما كان - بهذه الصفة الأساسية، فلا يمكن التغيير أو التبديل في شكله الأصيل وحالته الأصلية خضوعا للمؤثرات والمقتضيات المحلية.

لم يقصر الشيخ الندوي رحمه الله حديثه على ما يسمى بالتسامح والمروءة في محاضراته وخطبه بل وتعدى ذلك فحاول أن يدقق في مختلف المجالات ووجهات النظر ليحدد فيها مواطن الضعف التي هي على ما يبدو مختفية وغير محسوسة عادة، أو كانت مهملة لا يركز عليها للمروءة أو التسامح. كان الشيخ الندوي رحمه الله قد درس الحياة والأفكار الأوروبية قبل أن يسافر إليها وتأكد منها بعد السفر، فقام بلفت عناية المسلمين وغيرهم أيضا إلى مواطن الضعف هذه وتحدث فيها عن الإسلام ومزاياه.

ألقى الشيخ الندوي رحمه الله خطابا له في إحدى جامعات ألمانيا وجامعة الهندسة، وتكلم فيه عن خصائص الشعب الألماني وذكر فيه بعض أهم الأفكار والطرق التي كان اختارها بعض الفلاسفة والمفكرين الألمان وأكد على أن شعبا بهذه الدرجة من الذكاء والعقلانية كان جديرا بأن يتفهم قيم الإسلام وأفكاره وتعلياته تفهما صحيحا، ويستفيد منها استفادة كاملة، وذلك لأن الإسلام مازال يحتفظ بصورته الصحيحة النقية، وإنه يهتم ويراعي لكل ما ينصب في صالح الإنسانية، ويشجع على استغلال المواهب والقوى العقلية التي أودعها الله في الإنسان، وبالتالي فإنه يمكن لأوروبا أن تستفيد منها للسير بهذه الحياة الراقية والتقدم الحضاري على الصراط المستقيم. كان هذا الخطاب الذي ألقاه الشيخ الندوي رحمه باللغة العربية، فقرأت على الجمهور ترجمته الألمانية في نفس الوقت.

كما قال الشيخ الندوي رحمه الله وهو يخاطب الشعب الألماني بأنه قد ظهرت فيكم شخصيات عباقرة، وأنتم شعب عملي، فجربوا الإسلام وتعلياته، فتروا العجائب، إنه سيساعدكم في تعزيز قوتكم وتقدمكم..... وقد نشر هذا الخطاب باللغتين العربية والألمانية.

وكذلك قال الشيخ الندوي رحمه الله وهو يوضح أهمية الإسلام والحاجة إليه في كل زمان ومكان في إحدى محاضراته في الولايات المتحدة بأنه من الجدير بالتأمل والتفكر أن الإسلام يجمع بين الدين والدنيا، ويدعو إلى اتباع المتطلبات الدينية مع مراعاة الضرورات الإنسانية الفطرية، فكان الإسلام بطبيعته أصلح لأوروبا وأكثر جدارة لها، ولكنه من العجب العجاب أن أوروبا اختارت من الأديان ما يدعو إلى قطع كل العلاقات بالأمور الدنيوية، فلو كانت أوروبا التي قد أحرزت التقدم الهائل في جميع المجالات الحيوية قد اختارت الإسلام لعرفت مطابقته دين الإسلام لضرورتها وحاجتها، وكانت قد أصلحت ما لحق بحياتها من فساد على المستوى الخلقي والإنساني.

وقال الشيخ الندوي رحمه في إحدى محاضراته بأن المسيحية ديانة تركز على الرهبانية وترك الدنيا بصفة خاصة، بينما الإسلام يجمع بين الدين والدنيا في نفس الوقت، ويعترف بأهميتهما، ويدعو إلى اختيار الاثنين بشكل مناسب في الحياة، فإن أوروبا التي توسعت وتسامحت فيما يتعلق بالحياة الدنيوية كانت تستطيع أن تستهدي بتعاليم الإسلام بطريقة أفضل، حيث إنها لا تجد في المسيحية توجيهات وتعليمات خاصة في هذا الصدد، ولكنها

قد اختارت المسيحية بالرغم من ذلك وهي مازالت متمسكة بها والواقع أن الإسلام كان أقدر على الوفاء بضروراتها وحاجاتها.

كان الشيخ الندوي رحمه الله – على كل حال – يخاطب الناس مع المراعاة لظروفهم، وكان يقدر لمحاسنهم في الوقت الذي كان فيه ينتقد لمساوئهم، بأسلوب يمنح المخاطبين شيئا جديدا ويساعدهم في السير على مسار أصلح وأفضل.

إن هذه التوجيهات والإرشادات للشيخ الندوي رحمه الله يمكن الاطلاع عليها في كتاباته ورسائله بتفصيل أوفى، وقد نشرت مجموعة الخطب والمحاضرات التي ألقاها الشيخ الندوي رحمه الله بهذه المناسبات بعنوان «أحاديث صريحة في أمريكا» على نطاق أوسع، وحظيت بإقبال كبير، وكذلك توجد هناك «رسائل أوروبا» وهي مجموعة الرسائل التي بعث بها الشيخ الندوي رحمه الله من لندن، بالإضافة إلى «مذكرات الرحلة إلى أمريكا» بعنوان «شهران في أمريكا» التي كلفت أنا بجمعها وتأليفها.

رحلات الشيخ في البلدان المجاورة
(باكستان وبنجلاديش وسري لانكا) وبورما وماليزيا

بعد رحلتين إلى الحجاز المقدس كان قام بهما الشيخ الندوي رحمه الله في عام 1947م وعام 1950م واللتين اطلع فيهما شخصيا - اطلاع معاينة ومشاهدة - على أوضاع المسلمين خارج الهند، وكان اطلاعا على أوضاع المسلمين في العالم العربي وعلى مجريات الأمور في مركز الإسلام والعالم العربي، مرت بعد ذلك ثلاث سنوات حتى كانت له رحلة ثانية إلى بلاد الشام وتركيا، فحصلت للشيخ الندوي رحمه الله فرص مباشرة للاطلاع على العالم العربي عن كثب، فقام فيها بما استطاع من أداء مسئولية النصح والمشورة حسب ما شاهد ورأى من محاولات المنظمات الاجتماعية والسياسية، ورجال المجتمع الصالحين والمفسدين، وأمور الدعوة الدينية، كما مر في الصفحات السابقة.

لكن البلدان الآسيوية التي تتصل بشبه القارة الهندية، وتتقارب حدودها لم تكن قد سعدت بقدوم الشيخ الندوي رحمه الله إليها حتى الآن، فتقرر في عام 1960م أن يقوم الشيخ الندوي رحمه الله برحلة إلى بورما، مما يساعده في التعرف على أوضاعها، حيث كانت بورما تعتبر جزءا من شبه القارة الهندية لقربها منها ولسبب الاتصالات والارتباطات المستمرة بينها وبين شبه القارة الهندية في عهد الاستعمار الإنجليزي، وكان قد استقر فيها كثير من سكان شبه القارة الهندية للأعمال التجارية وللأسباب الأخرى، وبالتالي لم تكن بورما غريبة عليه.

وكان يرافقه في هذه الرحلة زميله ومساعده الشيخ معين الله الندوي رحمه الله ليشرف على الأمور التي تتعلق بدار العلوم لندوة العلماء، وكانت هذه الرحلة ناجحة جدا، واستقبل الشيخ الندوي رحمه الله فيها استقبالا حارا، وألقيت الخطب والمحاضرات في كثير من الأمكنة، واستمع الناس إليها بعاطفة من التقدير والاستفادة، وكان ذلك في العصر الذي كان المسلمون من التجار وخاصة ممن كانوا هاجروا إليها من شبه القارة الهندية في وضع مريح ومرفه، وكانت أعمالهم وتجارتهم في ارتقاء وازدهار، وأما وضعهم الديني فقد كانوا فيه متسامحين، مما ترك أثرا بالغا على قلب الشيخ الندوي رحمه الله لأنه

كان قد تعرف من خلال دراسته للقران الكريم على أوضاع الشعوب والأمم السابقة التي نبهها أنبياؤها على أسباب الخير والشر في الحياة، وبذل لهم كل النصح والتوجيه، ثم داهمتها المصائب والمحن لعدم قيامها بإصلاح الحال، و وتذكر الشيخ الندوي رحمه الله بصفة خاصة قول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لشعوبهم «إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». وتحدث الشيخ الندوي رحمه الله مشيرا إلى هذه الآية الكريمة بأني أرى رخاء وافرا ورفاهية بالغة، وفرحة متناهية، وأرى كذلك في مقابله تسامحا شديدا فيما يتعلق بالأمور والمتطلبات الدينية، وأخاف أن تزول هذه الرفاهية المتناهية وهذا الرخاء العظيم دفعة واحدة لسبب من انقلاب الأوضاع والأحوال، ثم تعود عليكم ظلمات بعضها فوق بعض، وذلك لأن تاريخ الشعوب والأمم يشهد بأن التقصير في أداء المسئولية الملقاة على الأمم من قبل ربها رغم استمتاعها بالنعماء والخيرات قد جر عليها انقلابات وتغييرات محرجة من نفس هذا النوع، فإنني أخاف أن يحدث انقلاب سياسي مفاجئ يؤدي إلى إغلاق هذه المصانع وإقفال هذه المحلات العظيمة.

وكذلك لفت الشيخ الندوي رحمه الله عناية الناس إلى القيام بأعمال الحفاظ على الإسلام ونشره في البلاد، وطالبهم بأن يفكروا في طريقة تعريف السكان المحليين بالإسلام ومحاسنه، وتقريبهم من المسلمين والمجتمع الإسلامي وذلك لأنه الضمان الوحيد لبقاء المسلمين وسلامتهم في البلاد، كما أنه أكد للمسلمين البورميين على ضرورة كسب المهارة والقدرة على اللسان البورمي المحلي.

أقام الشيخ الندوي رحمه الله أكثر من شهر في بورما، وقام فيها بإلقاء عشرات من الخطب والمحاضرات فاستمع الناس إليه، ولكنهم استمعوا إليه استماعهم إلى كلام واعظ أو قصاص، مثلما اعتاد الناس عليه في هذه الأيام، حتى فاجأتهم بعد أيام قليلة فقط من رجوع الشيخ الندوي رحمه الله سلطة شيوعية، وقامت بمصادرة أموال وثروات التجار الكبار والأثرياء المعروفين بحجة القضاء على التفوق الرأسمالي، مما حول كبار الأثرياء والمرفهين إلى فقراء معدمين، فالتجأ كثير منهم هروبا من هذا الجحيم إلى بلادهم السابقة باكستان والهند، كما هاجر بعضهم إلى لندن والبلدان الأفريقية، فكان يقول على ملأ من الناس من كان قد استمع إلى حديث الشيخ الندوي رحمه الله بأن كلامه كان تنبأ صادقا، وقد تحقق ما كان الشيخ الندوي رحمه الله يخافه.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد صرح بنفس هذا الكلام تقريبا في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام، لأنه كان قد شاهد في رحلته فيها نفس الجو من الرفاهية والرخاء، وعدم التنبه لأسباب الخطر إلى جانب غاية من التسامح والتساهل فيما يتعلق بالمسئوليات والمتطلبات الدينية، فحذرهم أيضا بالإشارة إلى نفس هذه الآية الكريمة التي يقول فيها الأنبياء عليهم السلام لشعوبهم «إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». ومن العجيب أنه لم يمر على عودة الشيخ الندوي رحمه الله من البلاد إلا سنة ونصف حتى بدأ فيها مسلسل من الانقلابات السياسية حوّل البلاد النضرة مثل بلاد الشام وحياتها المرفهة الراقية ورخاءها الظاهر إلى ضيق وضنك وعدم استقرار، واضطر عدد كبير من الطبقة العليا من المجتمع مغادرة البلاد طلبا للسلامة والحفاظ على حياتهم.

جاءت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله إلى بورما رحلة تذكارية، ظل سكان بورما يرددونها باستمرار، و يستمعون إلى أشرطة خطبه ومحاضراته، ويستغربون كيف تحقق ما تنبأ به الشيخ الندوي رحمه الله. الداعي إلى هذه الرحلة كان الشيخ المقرئ عبدالرحمن القاسمي، الذي كان له سابق معرفة بالشيخ الندوي رحمه الله، وأما الشخصية الثانية التي عملت على إنجاح هذه الرحلة من الناحية الدينية والدعوية فكانت شخصية الشيخ إبراهيم أحمد المظاهري رئيس تحرير «العهد الجديد» رنغون.

حصلت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله هذه في وقت كان فيه شقيقه الكبير الدكتور عبدالعلي مدير دار العلوم لندوة العلماء يعاني من الأمراض في القلب، وكان قلقا على صحته، وكان يرغب في أن يعود الشيخ الندوي رحمه الله بأعجل ما يمكن. أبلغ الشيخ الندوي رحمه الله بهذا الأمر فاختصر الرحلة وعاد إلى بلاده، فاستراح شقيقه بعد عودته، ولكن من الغريب أن الشيخ الندوي رحمه الله استمر في برامجه ورحلاته داخل البلاد وهو لا يخشى حدوث خطر كبير عاجل، غير أن الدكتور فوجئ بنوبة قلبية عندما كان الشيخ الندوي رحمهما الله في إحدى رحلاته في منطقة سهارنفور وغيرها من المناطق المجاورة لها فأسرع الشيخ الندوي رحمه لله إليه غير أن الدكتور رحمه الله لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يصله شقيقه بيوم واحد.

لم يكن الدكتور السيد عبدالعلي رحمه الله مجرد شقيق كبير بالنسبة للشيخ الندوي رحمه الله بل كان يقوم مقام والده لسبب وفاته في طفولته، فكان يعطف ويشفق عليه شفقة الوالد على ولده، وكان يرغب شديد الرغبة في أن يكون إلى جانبه في لحظاته

الأخيرة، غير أن رغبته هذه لم تتحقق. حاول الشيخ الندوي رحمه الله عند ما بلغه الخبر عن تدهور حالته الصحية أن يرجع بسرعة، غير أنه أبلغ عندما وصل إلى لكناؤ صباح اليوم التالي بأن شقيقه قد انتقل إلى رحمة الله سبحانه وتعالى في البارحة، فهرع إلى راي بريلي ولكن لم يسعد حتى بحضور جنازته فحزن حزنا شديدا ظل يشعر به لمدة طويلة. اختار الشيخ الندوي رحمه الله كل الطرق الشرعية لأداء حقوق شقيقه الكبير واستمر عليها طول حياته. وعلى كل، كانت هذه الرحلة الخارجية للشيخ الندوي رحمه الله رحلة مهمة في سبيل نصرة الدين والدعوة إليه.

أما الرحلة الثانية التي قام بها الشيخ الندوي رحمه الله إلى البلدان المجاورة فكان رحلته إلى ماليزيا في عام 1986م، وكانت ماليزيا هي الأخرى قد خضعت في الماضي للاستعمار الإنجليزي مثل شبه القارة الهندية، ثم حصلت على استقلالها أخيرا، غير أن الاستعمار الإنجليزي كان قد ترك آثاره البالغة على مدنية البلاد وثقافتها. كان المسلمون فيها يشكلون أغلبية بنسبة 2% من مجموع سكانها، وبما أنهم كانوا من السكان المحليين القدامى كان لهم نوع من التفوق على السكان الجدد الذين جاؤوا إليها واستوطنوها من شبه القارة الهندية ومن الصين، والشيء الثاني أن البلاد كلها كانت مقسمة وموزعة بين الأمراء والإقطاعيين الذين كانوا قد استقلوا بمناطقهم بعد خروج الإنجليز من البلاد، واعتبروا ملوكا وكانوا كلهم مسلمين.

اختير لتسيير أمور البلاد نظام الفيدرالية الذي يسمح لكل الأقاليم بالسلطات الإقليمية مع بقاءها تحت نظام مركزي موحد فيما يتعلق بالشئون الأساسية على مستوى البلاد. شعر المسلمون بعد استقلال البلاد لكونهم أغلبية بالمسئولية أكثر من غيرهم، وشهدت البلاد تطورا وتقدما كبيرا، وكانت قد أنشئت فيها جامعة دولية، وكثير من المدارس والمنظمات الدينية.

رتب للشيخ الندوي برنامج الرحلة إلى ماليزيا، وسافر ضمن الرحلة إلى كوالالمبور التي هي عاصمة البلاد، وإلى مدينة القدح الواقعة في شمالي البلاد، حيث تعمل مدرسة جيدة تحت إشراف المعنيين والمتصلين بدار العلوم لندوة العلماء، كما أنه سافر إلى جنوبي البلاد حيث تم تطبيق النظام الشرعي تحت قيادة عالم متخرج من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، واستقبل في جميع المناطق استقبالا لائقا، واستمع إليه.

شعر الشيخ الندوي رحمه الله بأن المثقفين المسلمين في البلاد يدركون مسئولياتهم الدينية والاجتماعية بشكل جيد، فاستبشر الشيخ خيرا، كما كان لكلامه فيها تأثير ملموس على الناس. إن عددا كبيرا من طلاب العلم الماليزيين كانوا قد عادوا إلى البلاد بعد إتمام دراستهم في دار العلوم لندوة العلماء، فكان لندوة العلماء مكانة مرموقة في قلوبهم حيث أن هؤلاء المتخرجين كانوا قد بدءوا بأعمالهم الدعوية والدينية والتعليمية في مناطقهم المختلفة، وبإنشاء المدارس والمؤسسات الإسلامية أيضا، مما أثلج صدر الشيخ الندوي رحمه الله. زار الشيخ الندوي رحمه الله كذلك الجامعة الإسلامية العالمية في كوالالمبور وأعجب بنظام التعليم المطبق فيها، وعلق عليها آمالا كبيرة، وبذل لهم من النصح والمشورة النافعة ما تيسر.

لكن الشيخ الندوي رحمه الله اختصر هذه الرحلة لما شعر به من تدهور مستمر في حالته الصحية، و كانت النقاهة قد بلغت مبلغها، ومازالت به حتى نزل له الدم بشكل مفاجئ مما أدى إلى مزيد من التدهور في حالته الصحية، ولم يستطع حضور حتى صلاة عيد الفطر في أقرب مصلى من بيته، ثم حمل إلى لكناؤ للمعالجة الطبية حيث تعالج تحت إشراف الدكتور اشتياق حسين القريشي، فتحسنت حالته الصحية قليلا، واستمر الشيخ الندوي رحمه الله بعد ذلك يخدم العلم والدين لمدة تتراوح مابين 13 أو 14 سنة.

إن مدينة القدح تتصل بالإقليم الجنوبي من تايلاند، ويشكل المسلمون أغلبية في كلتا المنطقتين، وإن المنطقة التايلاندية التي يسكنها المسلمون تعاني من مشاكل كثيرة على الصعيد السياسي، وبالتالي يلجأ بعض سكانها هروبا من المشاكل إلى مدينة القدح، وهاتان المنطقتان تتصل حدودهما ببورما.

ومما امتازت به الرحلة إلى مدينة القدح أنه نشأ هناك ارتباط خاص بين مدراء مدرسة التربية الإسلامية وبين دار العلوم لندوة العلماء، وتم انتخاب خريجي ندوة العلماء وهما الأستاذ أحمد فهمي زمزم والأستاذ محمد علي رجب بين القائمين على إدارة أمور المدرسة، وهما على علاقة قرابة بالشيخ يوسف نعمت وهو المسئول الأول للمدرسة. إن الشيخ يوسف نعمت عالم وداعية ومن المتخرجين من جامعة الأزهر، وهو الذي قام بإنشاء هذه المدرسة، وهو الذي دعا الشيخ الندوي رحمه الله إليه، واستشاره في أموره بكل رغبة واهتمام، وكان قد سبقت له زيارة لندوة العلماء في الهند أيضا، مما أتاح لنا فرصة لزيارة المدرسة وقضاء شيء من الوقت معهم في جو من الألفة والأنس.

كانت في ماليزيا في ذلك الوقت منظمات مسلمة متعددة، وكان زعماؤها يحملون فكرا صائبا، وتأثيرا ونفوذا في أجهزة الحكومة أيضا، فكان من الجدير أن تعلق فيها آمال كبيرة لتطوير البلاد وتحسين أوضاعها. ومن الصدفة أن ماليزيا كانت تشهد آنذاك قضية ساخنة وهي قضية تحريف القرآن الكريم، حيث كانت قد قامت بعض العناصر بتحريف القرآن الكريم وإدخال نسخته في الإنترنت باسم القرآن الكريم قبل أيام من سفر الشيخ الندوي رحمه الله إليها، فتقوّل بعض الناس وزعموا بأن الساعة قد حان قيامها على أساس أن الله سبحانه وتعالى كان قد تكفل بحفظ القرآن الكريم وحمايته من كل نوع من التحريف حتى تقوم الساعة، وإذا كان التحريف قد تحقق فيه فإن ذلك لا يعني إلا اقتراب الساعة، ونهاية عمر المعمورة، فكان بعض الناس على هذا الأساس في هلع وخوف، فأوضح لهم الشيخ الندوي رحمه الله بأن محاولات التحريف في القرآن الكريم ليست أمرا جديدا، وقد شهدها التاريخ مرات عديدة، وبأن مجرد المحاولات ليست أمرا مهما، والمهم أن تنجح هذه المحاولات، ويجب علينا أن نبذل ما في وسعنا لإفشال هذه المحاولات والقضاء عليها، وسيكتب لنا النجاح فيه إن شاء الله، ويحفظ لنا القرآن الكريم من جميع التحريفات، وظهرت النتيجة ناصعة حيث قام المسلمون في جميع أنحاء العالم بالاحتجاجات والمظاهرات ضد هذه الظاهرة الخبيثة وتم شطب النسخة من الإنترنت.

لم يستطع الشيخ الندوي رحمه الله أن يبذل وقتا كثيرا في هذه الرحلة لضعف صحته، ولا استطاع أن ينجز أعمالا مفصلة وموسعة، غير أنها لم تخل من النفع، إذ أنها جاءت دعما وتعزيزا وتشجيعا لمن كانوا يعملون هناك من الندويين، وأنار لهم الشيخ الندوي رحمه الله سبل العمل في ضوء تجاربه ودراسته.

من بين الرحلات إلى البلدان المجاورة رحلاته المتعددة إلى باكستان بما فيها الرحلة التي تمت قبل انقسام البلاد، وأما الرحلة الأولى إلى باكستان بعد قيامها فكانت في عام 1954م، ولكن هذه الرحلة لم تكن رحلة دعوية بل كانت رحلة الاستفادة من شيخه ومربيه، إذ كان الشيخ العلاّمة عبدالقادر الرائبوري رحمه الله مقيما في باكستان آنذاك، فأراد الشيخ الندوي رحمه الله أن يمضي أوقات رمضان المبارك في صحبته ومعيته، فسافر الشيخ الندوي رحمه الله وحيدا على خلاف عادته في السفرات، وأقام في لاهور عند شيخه عدة أيام ثم زار أستاذه مربيه الشيخ أحمد علي اللاهوري، وسعد بشفقته ومحبته.

أما الرحلة الثانية للشيخ الندوي رحمه الله إلى باكستان فحصلت في العام التالي نفسه وهو عام 1955م، وكان يرافقه في هذه الرحلة ابن اخته وهو شقيقي الكبير الشيخ محمد الثاني الحسني الندوي، وكانت هذه الرحلة ناجحة ومفيدة من الناحية الدعوية والدينية، ثم حصلت له رحلات أخرى أيضا إلى باكستان، كان لها تأثيرها ونفعها، غير أن الرحلة التي حصلت له عند ما قررت رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عقد مؤتمرها الآسيوي الأول في موضوع السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام في باكستان كانت رحلة مقترحة للشيخ الندوي من قبل رابطة العالم الإسلامي نفسها، فاصطحب الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الرحلة عددا من مساعديه منهم مساعده الخاص الشيخ معين الله الندوي، والشيخ السيد محمد الحسني الندوي وكان كاتبا بارزا وصحفيا ممتازا باللغة العربية والأردية، والشيخ إسحاق جليس الندوي رحمهم الله جميعا. كان الشيخ إسحاق جليس الندوي رحمه الله موجودا في باكستان من ذي قبل، وكان قد رتب برامج عديدة لإنجاح هذه الرحلة وجعلها نافعة أكثر، ليصل صوت الشيخ الندوي رحمه الله إلى أوساط العلم والفكر والنفوذ، فكانت له محاضرات إلى جانب مشاركته في المؤتمر في المؤسسات التعليمية والدعوية وبين العاملين في مجالات الدعوة والتعليم، ووجههم الشيخ الندوي رحمه الله إلى أسمى ما يمكن من الأهداف، وأفضل ما يمكن من الطرق والأساليب لأية دولة إسلامية وذلك في ضوء المعطيات والأوضاع الدولية حسب ما وافق رأيه ودراسته.

تحدث الشيخ الندوي رحمه الله في خطبته في المؤتمر وكانت خطبة ختامية للمؤتمر عن الجملة التاريخية القوية التي جرت على لسان سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عند فتنة الارتداد (أينقص الدين وأنا حي)، وقال بأن خلاصة المؤتمر والرسالة النهائية التي سيحملها المشاركون المحترمون معهم من هذا المؤتمر، والتي ستذكرهم باستمرار بمنصبهم القيادي ومسئولياتهم القيادية بصفتهم ورثة الأنبياء (العلماء ورثة الأنبياء) لا يمكن أن تكون أحسن و أبلغ من هذه الجملة التاريخية، التي جرت على لسان الخليفة الأول للنبي الكريم ﷺ عند ما قامت فتنة الردة، وهي جملة تعكس بصدق شعوره بمسئولية خلافته للنبوة، وتشكل مرآة لغيرته الإيمانية ومظهرا جليا لمكانته الصديقية، والتي غيرت مجرى التاريخ بحيث تحولت موجة الارتداد إلى موجة الانتصار وتسخير البلاد، وكانت الجملة هي (أينقص الدين وأنا حي).

كانت للشيخ الندوي رحمه الله لقاءات كذلك مع بعض الزعماء والشخصيات التي تقوم بأعمالها جمعا بين الدين والسياسة، فلفت انتباههم ودعاهم إلى العمل على رقي البلاد ورفاهية المجتمع اتباعا للمنهج الصحيح الإسلامي، وإذا حصل له لقاء مع أحد من رجال الحكومة دعاه إلى ضرورة تحسين العلاقات بين الهند وباكستان وإيجاد علاقة ودية بينهما.

اشتملت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله هذه على محاضرات وخطب مختلفة، وقد نشرت مجموعتها فيما بعد بعنوان «حديث باكستان» من كراتشي، ثم أعيد نشرها بعنوان «دعوة إلى الفكر والعمل» من لكناؤ. وكانت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله إلى باكستان في وقت كان يترأسها الجنرال ضياء الحق الشهيد، وكان قد قرأ مقالات الشيخ الندوي رحمه الله وكتبه، وتأثر بها، فأعرب عن مسرته بقدوم الشيخ الندوي رحمه الله، وزاره وطلب منه النصح والمشورة، فنصحه الشيخ الندوي رحمه الله بمثل ما نصح به الرؤساء والزعماء الآخرين، وقال له بأن يبذل الجهد لتحسين العلاقات مع الهند، فأجاب بأنه قائم بهذا الأمر.

كان الجنرال ضياء الحق دائم القراءة والدراسة لكتابات الشيخ الندوي رحمه الله، كان الشيخ الندوي رحمها لله دبج مقدمة على المجلد السابع لسيرة النبي للشيخ العلاّمة سليمان الندوي رحمه الله، فقرأها الجنرال ضياء الحق وسر بها سرورا وتأثر بها تأثرا كبيرا، وأعلن جائزة للشيخ الندوي رحمه الله تقدر بمائة ألف روبية. فوزع الشيخ الندوي رحمه الله هذا المبلغ على أهل العلاّمة الشيخ السيد سليمان الندوي رحمه الله وعلى دار المصنفين في أعظم جراه.

وفي رحلته الأخرى إلى باكستان تجشم الجنرال ضياء الحق بنفسه مشقة السفر إليه من إسلام آباد عند ما كان الشيخ مقيما بكراتشي، وعامل الشيخ الندوي رحمه الله معاملة تكريم وتقدير.

جاءت رحلة الشيخ الندوي رحمه الله الأخيرة إلى باكستان للمشاركة في المؤتمر الذي عقده فرع رابطة الأدب الإسلامي العالمية في باكستان مابين 24-25 أكتوبر عام 1997م، وكان يعاني في ذلك الوقت من ضعف في الصحة، وبالتالي كانت رحلته إلى باكستان رحلة صعبة، ولكنه استعد لها لأنه هو كان رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وكان المسئولون الآخرون عن الرابطة يتشوقون لقدومه وللقاء معه بإصرار وإلحاح، غير أن هذه الرحلة اقتصرت على مدينة لاهور وحدها، حيث كان المقرر عقد هذا المؤتمر، ولما

سمع الرئيس الباكستاني آنذاك السيد سردار فاروق أحمد خان لغاري عن قدوم الشيخ الندوي رحمه الله قرر هو الآخر حضور هذا المؤتمر.

ذكره السيد سردار لغاري الرئيس الباكستاني آنذاك بأنه قد تشرف باللقاء مع الشيخ الندوي رحمه الله قبل أن يرقي إلى منصبه الرئاسي الرسمي في أحد البرامج المنعقدة في مركز إسلامي في جنيف، وكان يشتاق منذ ذلك الحين أن يتاح له فرصة أخرى للاجتماع بالشيخ الندوي رحمه الله. دار الحديث بينهما في إطار خلقي واجتماعي، وألقى الشيخ الندوي رحمه الله خطبته في الجلسة الافتتاحية التي كان يرأسها السيد لغاري، واستمع الناس إليها بكل شوق ولهفة، وقد شارك في هذا المؤتمر كبير وزراء ولاية بنجاب، وحاكمها، والوزير الفيدرالي للشؤون الدينية، إلى جانب رئيس القضاة للمحكمة الشرعية في باكستان.

استمر المؤتمر يومين، وألقي فيه أهل العلم والأدب والمثقفون وكذلك الذين رافقوا الشيخ الندوي رحمه الله مقالاتهم في موضوع «مذكرات السفر إلى الحرمين الشريفين». وقام رجال المؤسسات العلمية والمراكز الدينية في لاهور، والشخصيات الكبيرة، وأهل العلم والثقافة البارزون باستقبال الشيخ الندوي رحمه الله وحاولوا أن يستفيدوا من حضرة الشيخ الندوي رحمه الله بهذه المناسبة.

أقام الشيخ الندوي رحمه الله مع من كان معه في الجامعة الأشرفية التي هي مؤسسة دينية وتعليمية كبيرة في لاهور، كما زار الشيخ الندوي رحمه الله مركز راوند لجماعة الدعوة والتبليغ حيث ألقى خطبة للناس.

وعندما سافر الشيخ الندوي رحمه الله إلى باكستان بمناسبة المؤتمر العالمي الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في موضوع السيرة النبوية في عام 1978م ظهرت هناك انتقادات من قبل بعض أعضاء البرلمان الهندي، لرحلة الشيخ الندوي إلى باكستان ومشاركته في المؤتمر، وكانت الانتقادات نابعة من سوء التفاهم حيث فهم هؤلاء الأعضاء أن الرابطة هي نفس الرباط عاصمة المغرب، وهي المكان الذي حاول فيه الوفد الهندي المشاركة في مؤتمر الدول الإسلامية، فمنعوا من الحضور على أساس أن الهند ليست دولة إسلامية، وبما أن الحدث وقع بعد وصول الوفد الهندي في العاصمة فإنه أدى إلى نوع من الإهانة والاستخفاف بها، فهؤلاء الأعضاء كانوا يحتجون بأن الشيخ كيف يشارك في المؤتمر في البلد الذي قد نال من الوفد الهندي. فقام السيد أتال بيهاري فاجبائي الذي كان وزير الخارجية الهندية آنذاك وتدخل في الموضوع موضحا بأن رحلة الشيخ الندوي رحمه الله

كانت رحلة غير سياسية، ولا تشتمل على شيء ضد الهند، كما أوضح بأن هذه الرحلة لا علاقة لها بالرباط. اعتبر موقف أتال بيهاري فاجبائي هذا مع انتمائه إلى الحزب الهندوسي المتطرف المعادي للمسلمين علامة على ما تتسم به شخصيته من تسامح ورحابة صدر.

كانت للشيخ الندوي رحمه الله رحلتان إلى بنجلاديش بعد قيامها وانفصالها عن باكستان، وكانت الرحلتان في إطار الارتباط الديني والعلمي، وأعجب أهل العلم والدين فيها بالخطب والمحاضرات البناءة والدعوية التي ألقاها الشيخ الندوي رحمه الله أيما إعجاب، واستفادوا منها استفادة كبيرة، وقام الشيخ الندوي رحمه الله بزيارة المراكز الدينية والمعاهد العلمية حيث تلقي بحفاوة و تكريم.

تركزت خطب الشيخ الندوي رحمه الله في رحلته الأولى إلى بنجلاديش على ضرورة الحفاظ على إسلامية البلاد، ودوام ارتباطها بالإسلام وحماية شخصيتها الإسلامية، كما دعا الشيخ الندوي رحمه الله العلماء والمثقفين إلى ضرورة نشر الاتجاهات والأفكار الإسلامية بين الجمهور باللغة المحلية البنغالية، وصرح في إحدى خطبه بأن أمن الدولة الإسلامية وسلامتها، ورخاءها وعزها رهن ارتباطها وعلاقتها بالإسلام، فإذا انفصلت عن الإسلام فإنها لا تجد لها استقرارا، كما لفت العلماء إلى واجبهم بأن يكونوا متيقظين ومنتبهين لئلا تضعف صلة البلاد بالإسلام. كانت هذه الرحلة في مارس عام 1984م، وكان يرافقه في هذه الرحلة الأولى الشيخ أبو العرفان الندوي والشيخ عبد الكريم الباريكه والشيخ سلمان الحسيني الندوي.

وقد نشرت مجموعة هذه الخطب والمحاضرات من المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ بعنوان «تحفة المشرق».

وكانت الرحلة الثانية تحت مظلة رابطة الأدب الإسلامي - فرع بنجلاديش، لحضور المؤتمر الذي كان دعا إليه الشيخ محمد سلطان ذوق الندوي، بعنوان «الاتجاهات الإسلامية في لغات الشعوب الشرقية وأدبها»، كان من الضروري حضور الشيخ الندوي رحمه الله في هذا المؤتمر بصفته مسئولا عن الرابطة رغم ضعف وتدهور في حالته الصحية، وبالتالي اشتد عليه المرض عند ما وصل دكا بسبب الصعوبة التي لاقاها في سفره، وساد هنالك جو من الهم والقلق، واضطر أن يعتذر عن حضور الحفلة التي كان يريد إقامتها الرئيس البنجلاديشي.

كان من المقرر أن يعقد المؤتمر تحت إشراف وإدارة جامعة المعارف الإسلامية الواقعة

في تشاتغام، وكان السفر من دكا إلى تشاتغام سفرة صعبة بالنسبة للشيخ الندوي رحمه الله، ولكنه استجمع قواه وعزم السفر، وشارك في الجلسة لمدة قصيرة وترأسها.

وبما أن هذا المؤتمر كان تحت مظلة الرابطة العالمية للأدب الإسلامي فقد شارك فيه المشاركون من مختلف البلدان الإسلامية إلى جانب المشاركين المحليين، وجاء المؤتمر ناجحا ونافعا، وكانت هي آخر رحلة للشيخ الندوي رحمه الله إلى بنجلاديش، واجتمع الشيخ الندوي رحمه الله في هذه الرحلة على قصرها بكثير من الناس، وأسدى لهم نصيحة ومشورة، في المجالات العلمية والدينية. اقتصرت لقاءاته في هذه الرحلة على الأوساط العلمية والدينية فقط.

دعي الشيخ الندوي رحمه الله إلى سري لانكا وهي الدولة المجاورة للهند للحضور في حفلة دينية، فرافقه في الرحلة الشيخ سلمان الحسيني الندوي وكانت هذه الرحلة هي الأخرى مختصرة وقصيرة، غير أنه اجتمع فيها بالشخصيات المسلمة البارزة، وحاولوا أن يستفيدوا من قدوم الشيخ إليهم، وكانت الرحلة رغم قصرها مفيدة وناجحة.

كانت هذه الرحلة جاءت على دعوة من الجامعة النظيمية في سيلون وبإيماءة من قبل الشيخ محمد علي الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي أيضا، فسافر إليها الشيخ الندوي رحمه الله في مايو عام 1982م، ولما وصل الشيخ الندوي رحمه الله إلى الجامعة أبلغوه بأن السبب والباعث لإنشاء هذه الجامعة هو رسالة الشيخ الندوي رحمه الله بعنوان «ردة ولا أبا بكر لها». وتعمل هذه الجامعة بتمويل من تاجر صالح ثري وهو الحاج محمد نظيم، وهو الباني لها والمنفق عليها.

قال الشيخ الندوي رحمه الله في حفلة الجامعة التي كان يحضرها وزير الخارجية السريلانكي، وعدد من سفراء الدول العربية والإسلامية والزعماء المسلمين في خطبته بأن هذا بلد اشتهر عنه بأنه على أرضه نزل أبونا آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة، وقد قال النبي ﷺ «أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد». يعني ذلك أنتم إخوان بقرابتين، قرابة الدين وقرابة الدم، وأضاف بأن هذا الإعلان النبوي هو أقوى الأسس للأخوة الإنسانية، وأهم بنود ميثاق حقوق الإنسان، فإذا كانت الدول الإسلامية الأخرى تعلن ذلك مرة فإنكم جديرون بأن تعلنوا عشر مرات بناء على القرابة التي تحصل لكم حسب الرواية المشهورة، ويجب عليكم أن تكونوا دعاة إلى الأخوة الإنسانية. ولم تحصل له رحلة أخرى فيما بعد إلى سريلانكا.

الباب السادس

الكتب والرسائل

استعراض موجز

لمؤلفات الشيخ الندوي رحمه الله

1) سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد (المؤلف الأول)

بدأت أرى الشيخ الندوي رحمه الله وأتعرف على أعماله وجهوده عند ما كنت قد بلغت عمر النضج الشعوري، وربما كان ذلك في عام 1938م أو 1939م، وكان أول كتاب ألفه الشيخ الندوي رحمه الله حتى في ذلك الوقت، وكلفت أيضا بقراءة ومراجعة بعض أجزاء الكتاب.

قام الشيخ الندوي رحمه الله بتأليف كتاب سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله لما كان في الثاني والعشرين من عمره، فأدى كتابه هذا الذي كتبه وهو في مقتبل شبابه إلى إثارة الهمة والشوق إلى العمل في العقول والأذهان المنكسرة لدى المسلمين في العهد البريطاني الاستعماري في الهند، وأشعل في قلوبهم لهيب الثورة على الحكم الاستعماري البريطاني، والتطلع إلى حياة الحرية الحافلة بالعز والكرامة، وبالقيم العليا.

لقد تضمن هذا الكتاب السيرة المفصلة للسيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله وجهوده وإنجازاته التجديدية، والإصلاحية، والتاريخ الكامل لأكبر حركة جهادية وإصلاحية ومحاولة لإحياء الخلافة الإسلامية في الهند غير المنقسمة، وقد قسم هذا الكتاب إلى مجلدين، ظهر المجلد الأول منهما في بداية الأمر، ثم جاء المجلد الثاني متضمنا للإضافات المهمة والتحقيقات الجديدة فيما بعد، فتضاعف حجم الكتاب. يحتوى المجلد الأول على 125 بابا و588 صفحة، بينما يحتوي المجلد الثاني على 50 بابا و588 صفحة، وقد كتب العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله وهو يشيد بالكتاب «لقد ألف الكتاب صاحبه في موعده، وقد قدمه إلى قرائه كصحيفة رشد وهداية وعزم وهمة». لقد كان المجلد الأول من الكتاب يتضمن أحوال وأخبار محبه ومريديه، وكان يشكل ملحقا للكتاب، ثم نشر هذا الملحق بعنوان «كارفان إيمان وعزيمة» بشكل مستقل، ثم قام المجمع العلمي الإسلامي بلكناؤ بنشر السيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد ضمن سلسلة رجال الفكر والدعوة.

أحدث هذا الكتاب بعد ظهوره بريقا من الأمل في قلوب المسلمين الهنود المنكسرة المنهزمة، كما عمل على تعارف الشيخ الندوي رحمه الله في الأوساط العلمية والدينية أيضا، فاستغل الشيخ الندوي رحمه الله هذه المناسبة للسفر إلى الشخصيات الدينية والدعوية البارزة في الهند ليتباحث معهم فرص وإمكانيات نصرة الدين والأمة الإسلامية، وكان قد سنح له فيما مضى فرص السفر والزيارة إلى أمكنة مختلفة لجمع وإعداد مواد كتابه سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وهكذا تحقق ارتباط بينه وبين أبرز الشخصيات والدينية والعلمية والدعوية في عصره، فزار وعاين الأمكنة المختلفة التي كانت تتم فيها أعمال نصرة الدين والملة الإسلامية، واعتبر أعمال حركة الدعوة والتبليغ للشيخ محمد إلياس رحمه الله أكثر الأساليب والوسائل الدعوية تأثيرا ونفعا، فقرر الشيخ الندوي رحمه الله أن يقدم تعاونا خاصا مع هذه الحركة، وأقام ارتباطا قريبا واتصالا وثيقا بالشيخ محمد إلياس رحمه الله، كما أحس الشيخ الندوي رحمه الله بأن شريحة كبيرة من الطبقة المثقفة قد تأثرت بالتطور العلمي والفكري والغلبة الحضارية والمدنية لأوروبا، وقد بلغ تأثرهم بهذا لدرجة أن عددا كبيرا منهم بدأ يفقد الإيمان والثقة بتفوق الإسلام وبالتالي فإن هناك حاجة ملحة إلى المحاولات الفكرية والأدبية لإنقاذ هذه الشريحة، فاختار الشيخ الندوي رحمه الله هذا المجال أيضا للعمل، كما رأى من الضروري أن يخاطب الهندوس أيضا لكونهم أغلبية سكان البلاد ليعرض عليهم محاسن الإسلام وفضائله، وقرر أن يعمل برنامجا لإعداد الكتابات والمؤلفات نظرا إلى المجالين.

وهكذا تمركز عمله رحمه الله على ثلاثة مجالات، أولا: مجال العمل بين عامة المسلمين، وثانيا: مجال إعداد الكتابات والمؤلفات لإصلاح أحوال الطبقة المثقفة من المسلمين، وثالثا: تعريف غير المسلمين من سكان البلاد بمزايا الإسلام ومحاسنه. كما حاول على إعداد الوسائل اللازمة لتقدم المسلمين ورقيهم في مجال التعليم وحمايتهم من المشاكل المختلفة، فقام الشيخ الندوي رحمه الله بالعمل شخصيا في هذه المجالات كما أنه لفت أنظار الآخرين أيضا إلى هذا الجانب المهم، واستمر الشيخ الندوي رحمه الله طوال حياته على هذه الأعمال التي يمكن الاطلاع على تفاصيلها من خلال سيرته الذاتية بعنوان «في مسيرة الحياة».

2) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

ترك هذا الكتاب أثرا كبيرا على العالم العربي، وأعاد إلى الشباب الطبقة المثقفة منهم الثقة بالإسلام والمسلمين، التيَ كانت قد تزلزلت وتزعزت. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الأردية بعنوان «انساني دنيا بر مسلمانون كي عروج وزوال كا اثر».

من قصة هذا الكتاب أن الشيخ الندوي رحمه الله كتب عدة مقالات للفت أنظار العرب وعنايتهم، وجعلته هذه المقالات يفكر في إضافة ما يناسبها من مواد ليحولها إلى كتاب جامع مستقل، يتضمن استعراض الفتوحات الدينية والسياسية للعهد الإسلامي الأول، إلى جانب تحديد الأسباب والعوامل التي عملت على تأخر خير الأمة وتقدم أعدائها وتطورهم في مختلف مجالات الحياة، بالإضافة إلى استشراف المستقبل المضيء للأمة بعد استيعاب هذه الأسباب والعوامل. وبينما كان الكتاب في أحد أطوار إعداده إذ سنحت للشيخ الندوي رحمه الله فرصة للسفر إلى بيت الله الحرام، وتوفرت له أسباب الإقامة لمدة عدة شهور في مركز الإسلام، فلم يكتف الشيخ الندوي رحمه الله بلقاء العلماء الذين كانوا ينتمون إلى مختلف البلاد، بل تبادل معهم المعلومات وناقش الموضوعات، فساعدته فوائد هذا السفر على إدخال مزيد من التنقيحات والتحسينات والإضافات المهمة على الكتاب، ورأى من المناسب أن يتم نشر هذا الكتاب من قبل دار نشر موقرة في العالم العربي وخاصة في القاهرة وهي المركز العلمي فيه، فاختار لجنة التأليف والنشر بإدارة الدكتور أحمد أمين الذي كان يحمل عقلا مثقفا مستنيرا إلى جانب اتجاهه الفكري الإسلامي، حتى حصل عل موافقته على نشر الكتاب، فظهر الكتاب في العالم العربي عام 1950م، ونال من القبول والتأثير ما فاق الحسبان.

إن كتابي «سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد» و«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» هما من الكتب المهمة التي أبرزت الشيخ الندوي رحمه الله مؤلفا بارزا ومفكرا عالما وداعية إسلامية في العالم العربي والإسلامي، وأما الكتب الأخرى التي ظهرت في أوقاتها المختلفة فقد استخدمها الشيخ الندوي رحمه الله للدعوة والإصلاح متماشيا مع متطلبات الزمان والمكان. ونقدم فيما يلي عرضا موجزا لبعض هذه الكتب، يلقي الضوء على تنوع مؤلفاته وسعة دراساته وعمق مطالعاته، كما أنها تشكل دليلا على كونه رحمه الله حكيما ومطلعا على العصر الذي عايشه.

3) السيرة النبوية

لقد حاول المؤلف أن يعرض فيه السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بشكلها الواقعي الحقيقي من غير أن يخضعها لذوق الكاتب وميوله الفكرية أو النظريات العلمية السائدة، قد راعي فيه المؤلف لعقل النشء الجديد ونفسيته والأسلوب العلمي العصري مراعاة كاملة، إضافة إلى أنه قام ببيان الخلفية التاريخية الهامة لجزيرة العرب وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة بتفصيل وإسهاب، الأمر الذي لا يمكن بدون فهمها والاطلاع عليها تقدير إنجازات الإسلام وانتصاراته المدهشة، وهو كتاب تقوم فيه السيرة النبوية ذاتها على صاحبها الصلاة والسلام بعرضها والتعبير عنها، وقد قام المجمع العلمي الإسلامي بنشر ترجمة الكتاب باللغة الأردية بشكل جذاب، وقد صدرت لها إصدارات مختلفة، كما نشرت ترجمتها بعدد من اللغات الأخرى.

4) سيرة الرسول الأكرم ﷺ

وقد عرضت السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام في هذا الكتاب بأسلوب مبسط لتسهل قراءته في المجالس الدعوية والإصلاحية، ويمتاز هذا الكتاب من بين الكتب الأخرى في موضوع السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بتأثيره ومكانته، وقد نشر هذا الكتاب من قبل أكاديمية السيد أحمد الشهيد في دار عرفات براي بريلي، وقد صدرت له ترجمته الهندية أيضا.

5) الطريق إلى المدينة

وهو كتاب يتضمن مجموعة محاضرات ومقالات مختلفة، تتعلق بشخصية الرسول الكريم ﷺ، وسيرته المباركة وتعليماته السامية، ورسالته الكريمة وعطاءاته الجمة للإنسانية، كما أنها تتحدث عن الإنجازات والنتائج العالمية للسيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، وقد ألحقت بالكتاب مساجلة شعرية يمثل فيها شعراء الفارسية والأردية يتقدمون بما عندهم من ضرائب الحب والتقدير للنبي الكريم ﷺ، وقد نشرت ترجمته باللغات المختلفة، ونالت القبول والتقدير في الأوساط المسلمة.

6) سيرة خاتم النبيين للأطفال

وهو كتاب يعرض السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بإيجاز واختصار، وقد ترجم إلى عدد من اللغات العجمية.

7) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن

هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في ذي القعدة عام اثنين وثمانين وثلاثمائة وألف أيام كان نائب رئيسها الشيخ عبدالعزيز بن باز، ثم أضاف إلى هذه المحاضرات مقالين قيمين عن فضل عقيدة ختم النبوة على الإنسانية والصحف السماوية في ميزان العلم التاريخ. وقد تضمن الكتاب ما للنبوة من فضل ومنة على الإنسانية، وما للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ميزة وخصيصة، وما للعقلية التي أوجدتها النبوة من رفعة وسمو، إضافة إلى الإنجازات الأبدية التي أحرزتها النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، إلى جانب أهمية وضرورة ختم النبوة، وهذا الكتاب هو الآخر يعتبر من أهم كتب الشيخ الندوي رحمه الله وأكثرها قبولا وتداولا.

8) المرتضى

وهذا الكتاب عبارة عن سيرة مفصلة لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويتضمن ميزاته وفضائله العائلية، ومكارمه الموهوبة، والحكمة الإلهية والمصلحة الدينية والإسلامية والملية في الترتيب الزماني للخلفاء الراشدين، كما ذكر التعاون المخلص الذي قدمه الخليفة الراشد الرابع للخلفاء الثلاثة المتقدمين عليه في أدوارهم المختلفة لمصلحة الإسلام بشكل لا يوجد له نظير، إلى جانب بيان المشاكل التي ثارت في زمنه، وإلى الدور التربوي والإصلاحي الذي لعبه، وكذلك السيرة والأخلاق التي كان يتحلى بها ابناه سيدا شباب أهل الجنة حسن وحسين رضي الله عنهما، مع بيان القرارات الصائبة التي اتخذوها لمصلحة الدين والملة، كل ذلك في ضوء الكتب الموثوق بها، ومن خلال الدراسات التحليلية والمقارنة، وقد قام بترجمة الكتاب إلى اللغة الأردية الدكتور عبدالله عباس الندوي رحمه الله بإيعاز من الشيخ الندوي رحمه الله.

9) رجال الفكر والدعوة في الإسلام

يحتوي كتابه هذا على خمسة مجلدات، ونشرت هذه السلسلة بعنوان رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ونالت القبول والتقدير في الأوساط العلمية الدينية، ونقلت إلى الفارسية بعنوان «تاريخ دعوت وإصلاح» بقلم الأستاذ الشيخ إبراهيم دامني، والشيخ قاسم القاسمي، كما نقلت هذه السلسلة إلى اللغة التركية والإنجليزية أيضا. لقد استعرض الشيخ الندوي رحمه الله وحاول أن يبحث عن التسلسل والتتابع في المجهودات التي بذلت للإصلاح والتغيير في تاريخ الإسلام الذي يغطي مدة 13 قرنا، وحدد الشخصيات البارزة والحركات الممتازة التي عملت في عصورها المختلفة حسب مؤهلاتها وإمكاناتها في مجال إحياء الدين وتجديده، وفي مجال الحفاظ على الشريعة الإسلامية وحماية المسلمين، وهي الجهود بمجموعها التي عملت على توصيل الإسلام إلينا في شكله الحي والمصون.

يحتوي المجلد الأول من الكتاب على استعراض تاريخي للمحاولات الإصلاحية والتجديدية الإسلامية التي تمت منذ القرن الإسلامي الأول حتى القرن السابع، كما يتضمن بيان السيرة والإنجازات العلمية وآثارها ونتائجها الباهرة لأعمال المصلحين الكبار، والفاتحين العظام، وأهل الدعوة والعزيمة البارزين من أمثال الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز، والشيخ حسن البصري، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام أبو الحسن الأشعري، والإمام الغزالي، والشيخ عبدالقادر الجيلاني، والعلامة ابن الجوزي، والسلطان نور الدين الزنجي، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، والشيخ جلال الدين الرومي غيرهم من العلماء والمصلحين الكبار في التاريخ الإسلامي.

ويتضمن المجلد الثاني من الكتاب ترجمة حياة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله، وصفاته وإنجازاته وجهوده في مجال الإصلاح والتجديد، والحديث عن خصائصه العلمية والتأليفية، ومكانتها في التاريخ الإسلامي، بالإضافة إلى بيان سير تلامذته الكبار والمنتسبين إليه من أمثال العلاّمة الحافظ ابن القيم، والعلامة ابن الهادي، والعلامة ابن كثير، والحافظ ابن رجب.

ويحتوي المجلد الثالث ترجمة شخصيات التصوف والإحسان، والذين مثلوا الإسلام بسلوكهم وأعمالهم، وقدموا من الأخلاق والمعاملة أنموذجا رائعا أدخل الإسلام في قلوب الناس، واختار لبيان هذا الموضوع ثلاث شخصيات مثلت تمثيلا فعليا للإيمان

واليقين، والعشق والمحبة، والتألم والهم، وعاطفة اتباع السنة، والعزيمة وعلو الهمة، الرغبة في عملية الدعوة والتبليغ، وإصلاح الأعمال والأخلاق، وهم الشيخ الخواجة معين الدين الجشتي، والشيخ نظام الدين الأولياء، والشيخ شرف الدين يحيى المنيري، الذين تضمن المجلد الثالث لآثار أعمالهم وجهودهم الإصلاحية.

ويتضمن المجلد الرابع من الكتاب على حياة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني، (971-1034هـ) الذي قاوم فتنة إلحاد أكبر الملك المغولي، وحاول محاولة ناجحة للسير بخلفائه على الصراط المستقيم من خلال أعمال التربية والإصلاح، وقد تضمن الكتاب قصة الحياة المفصلة للمجدد وأحوال عصره وبيئته، ونوعية إنجازاته وأعماله الانقلابية والإصلاحية، بالإضافة إلى الآثار العميقة والنتائج للأعمال الإصلاحية والتربوية التي تركها مشايخ سلسلته في قرنه وفي القرون التي تلت.

يتضمن المجلد الخامس من الكتاب على تاريخ المحاولات التاريخية التي بذلت في الهند في مجال إحياء الدين، وتجديده، ونشر الكتاب والسنة، وبيان أسرار ومقاصد الشريعة، والتربية والإرشاد، وفي مجال الحفاظ على الأمة الإسلامية وشخصيتها في الهند، وهي المحاولة التي بدأت على يد العلاّمة الشاه ولي الله الدهلوي وخلفائه الكرام، وقد تضمن الكتاب أحد معاصري الشيخ ولي الله الدهلوي وهو الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب النجدي الذي تركزت أعماله وخدماته في إطار الدعوة إلى التوحيد الخالص ورفض جميع آثار وعلامات الشرك.

10) إذا هبت ريح الإيمان

يتضمن هذا الكتاب نماذج وأخبار المجدد المصلح في القرن الثالث عشر وهو أمير المؤمنين الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته المجاهدة، وهي قصص مؤثرة جدا، كتبها الشيخ الندوي رحمه الله بعنوان إذا هبت ريح الإيمان، نشرته دار عرفات براي بريلي، ونقلها إلى الأردية الشيخ محمد الحسني رحمه الله بعنوان «جب إيمان كي بهار آئي». ولقد نال هذا الكتاب قبولا واسعا وشعبية كبيرة.

11) كارفان إيمان وعزيمت

يتضمن هذا الكتاب سير الشخصيات التي شاركت في حركة الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله الإصلاحية والجهادية، وخلفائه والمنتسبين إليه، بمن فيهم من الشيخ إسماعيل الشهيد، والشيخ عبدالحي البدهانوي، والشيخ كرامت علي الجونبوري، والشيخ ولايت علي الصادقبوري، والشيخ يحيى العظيم آبادي، والسيد محمد علي الرامبوري، وأمثالهم من أولي العزم من المجاهدين. كما يتضمن الكتاب في أواخره سيرة الشيخ المصلح المربي السيد خواجه أحمد النصير آبادي بأسلوب مؤثر جذاب، ونشر هذا الكتاب أول ما نشر من لاهور تحت إشراف الشيخ الشاه السيد نفيس الحسيني أطال الله بقائه ثم أعيد نشره من مكتبة إسلام في لكناؤ.

12) ترجمة الشيخ الشاه فضل رحمن كنج المرادآبادي رحمه الله

يتضمن هذا الكتاب حياة الشيخ الجليل المربي الكريم المصلح العظيم من القرن الرابع عشر الهجري، وهو الشيخ فضل رحمن كنج المرادآبادي، وكان شيخا مقبولا لدى عامة الناس وخاصتهم، ولقد نال الشيخ رحمه الله من المكانة والمرتبة ما لم ينله غيره. يحتوي الكتاب على أحوال حياته وأعماله العلمية وخدماته الدينية والتربوية إلى جانب توجيهاته وتعليماته، إضافة إلى الانطباعات التي أعرب عنها معاصروه من العلماء والمشايخ. يتضمن الكتاب 152 صفحة، ونشر من المجمع العلمي الإسلامي بلكناؤ.

13) ترجمة الشيخ محمد إلياس رحمه الله ودعوته إلى الدين

يتضمن هذا الكتاب مواد مفيدة ونافعة لفهم دعوة الشيخ محمد إلياس رحمه الله وحركته الدعوية والتبليغية، ومكانتها وأهميتها بصفة خاصة، وأهمية الأعمال الدعوية والإصلاحية بصفة عامة، كما هو مفيد في إيجاد الشعور بأهمية تفضيل الأعمال الدعوية على غيرها من الأعمال، وبما أن المؤلف قد عمل مع صاحب السيرة ورآه عن كثب، فقد تضمن الكتاب مشاهداته وتجاربه الشخصية معه مما يزيد الكتاب أهمية وقيمة فعلية.

14) رسائل الشيخ محمد إلياس رحمه الله

يتضمن هذا الكتاب مجموعة قيمة من رسائل الشيخ محمد إلياس رحمه الله الدعوية ومعظمها موجهة إلى الشيخ الندوي رحمه الله نفسه.

15) ترجمة الشيخ عبد القادر الرائبوري رحمه الله

جمع الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب ترجمة الشيخ عبدالقادر الرائيفوري وهو شخصية مربية مرشدة معروفة في عصره، ويتضمن الكتاب أحوال حياته وصفات شخصيته، وأسلوبه في التربية والإرشاد، واتزانه وصلته بالله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما كان يفيض به قلبه من حب وإخلاص، وفيض وتأثير، ومعرفة وسلوك. يحتوي الكتاب على 352 صفحة ونشر من مكتبة الإسلام بلكناؤ.

16) ترجمة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي

جمع الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب أحوال وأخبار الشيخ الكبير والمحدث الجليل والعالم المحقق وهو الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله، (وكان الشيخ الندوي رحمه الله على صلة به صلة استرشاد وإشراف روحي). يتضمن الكتاب مآثره العلمية والدينية والشخصية بالإضافة إلى توجيهاته وإرشاداته العظيمة الفائدة.

17) حياة عبدالحي

كتب الشيخ الندوي رحمه الله ترجمة والده الكريم وهو العالم البارز في عصره، والمؤلف الشهير والمؤرخ الناقد الشيخ السيد عبدالحي رئيس ندوة العلماء سابقا، تناول فيها مآثره العلمية ومزاياه الشخصية، ومكانته العلمية والاجتماعية والدينية بالإضافة إلى خدماته العلمية والتأليفية، ونشر الكتاب أولا من ندوة المصنفين بدهلي، ثم نشرته دور النشر الأخرى، وقد ألحق به الشيخ الندوي رحمه الله ترجمة شقيقه الكبير الدكتور السيد عبدالعلي، وقد قامت أكاديمية السيد أحمد الشهيد رحمه الله براي بريلي بنشر الأخيرة بعنوان «تذكرة الدكتور السيد عبدالعلي» في كتاب مستقل.

18) الذكر الحسن

جمع الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب السيرة الطيبة لأمه الكريمة السيدة خير النساء بهتر، وما قامت به من أعمال وخدمات تربوية وتأليفية، وقد نشر الكتاب من مكتبة الإسلام بلكناؤ.

19) في مسيرة الحياة

يشتمل هذا الكتاب على سبعة مجلدات، جمع فيه الشيخ الندوي رحمه الله ما مر به في حياته الشخصية من مشاهدات وتجارب، وأحاسيس ومشاعر، وانطباعات، كما اشتمل الكتاب على خلاصة ما حدث من حوادث في الهند والعالم الإسلامي، وما قام فيه من حركات وشخصيات، وقد تضمن الكتاب خلاصة تاريخ القرن العشرين. كان هذا الكتاب باللغة الأردية أصلا فقام الأستاذ السيد سلمان الحسيني الندي بنقل المجلدات الأولى منه إلى العربية بهذا العنوان، وأما البقية منه فهي تحت التعريب بقلم الأستاذ جعفر مسعود الحسني الندوي.

20) المصابيح القديمة

يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء، جمع فيها الشيخ الندوي رحمه الله انطباعاته الشخصية ومشاهداته الذاتية عن العلماء والمشايخ والزعماء والقواد والأحباب والأقرباء وبعض المخلصين له بأسلوب أدبي جذاب، وقد اشتمل الكتاب على ترجمة 69 شخصية ونشر من مكتبة فردوس لكناؤ.

21) المسلمون في الهند

جمع فيه الشيخ الندوي رحمه الله الجهد العلمي والدعوي والتربوي والإصلاحي الذي قام به المسلمون وذلك من المنظور التاريخي، كما سلط الأضواء على ما تركته الحكومة الإسلامية في الهند من آثار حضارية وفكرية وثقافية على البلاد وحضارتها.

22) نظرة على المسلمين في الهند

يعرض الكتاب ويقدم تصويرا دقيقا لما يحمله المسلمون في الهند حيا من حضارة دينية ومؤسسة اجتماعية، وعقائد وعبادات، وأعياد دينية، وعادات وتقاليد اجتماعية، وأعمال وأخلاق وخصائص ملية بأسلوب محايد وموضوعي.

23) روائع إقبال

تناول الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب شعر إقبال وآثاره الانقلابية الثورية في المجتمع، كما حاول من خلال شعره بيان ما تحمله الحضارة والقيم الغربية من أضرار وأخطار للإنسانية. ولقد صدرت لهذا الكتاب عدة طبعات في اللغة الأردية والإنجليزية من المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ.

24) مع أهل القلوب

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة توجيهات وتعليمات للشيخ محمد يعقوب المجددي، وتصوير وبيان لمجالسه الإصلاحية والتربوية و الإرشادية، يتضمن الكتاب رسالة إصلاح الحياة وترسيخ الإيمان واليقين في النفوس والقلوب، ومواد تحث الناس على التزكية والإحسان، بأسلوب عصري ومن خلال القصص والحكايات، ولقد تضمن الكتاب خلاصة التصوف الإسلامي والمعرفة الروحية. إن آخر المجالس المتضمنة في هذا الكتاب قام بترتيبه الشيخ محمد الثاني الحسني رحمه الله، وصدر الكتاب من مكتبة الفرقان لكناؤ.

25) الأضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند.

وهو كتاب ألفه الشيخ الندوي رحمه الله في وقت شعر بأن المسلمين أصبحوا ضحية للخلافات والتمزق بعد ما انشغلوا بالمسائل الدينية الفرعية، مما يسبب ضررا بمجهودات الدعوة والإصلاح في الهند. كما يتضمن الكتاب خدمات وتضحيات العلماء والمصلحين الذين يعود الفضل إليهم في بقاء المسلمين بدينهم وشخصيتهم الإسلامية في الهند.

26) إصلاحيات، وهي مجموعة مقالات ومحاضرات وخطب إصلاحية

ودعوية، تناول فيها الشيخ الندوي رحمه الله السيرة النبوية ومسائل الإيمان والعقيدة، ودعا إلى أسلوب جديد للتفكير بذل الجهد. يتضمن الكتاب مقالات مؤثرة مثل عيد ميلاد العالم، والصورة والحقيقة، والبحث عن الإنسان، والشوكة في العيون، وقد جمعت هذه المقالات من جريدة «تعمير»، والخطب التي ألقيت الاجتماعات التبليغية المنعقدة في مدينة لكناؤ عام 1954م.

27) بين الدين والمدنية

وهو من أهم كتب الشيخ الندوي رحمه الله، وقد بين الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب أن المجتمع الصالح، والحضارة الصالحة والمدنية الصالحة لا يمكن أن يقوم إلا على العقيدة الصحيحة والمعرفة الحقة بهذا الكون وبخالق الكائنات وبالهدف الحقيقي للحياة. وما هي العقائد والنظريات التي تمخضت عنها الأدوار الحضارية التي مر بها العالم الإنساني حتى الآن، وكيف أن الإسلام يوجد مدنية صحيحة صالحة.

28) العقيدة والعبادة والسلوك، وهو كتاب يتضمن نظاما متكاملا للحياة

في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، بكل ما فيه من عقائد وعبادات وأخلاق وعادات وشمائل إسلامية، مستنبطة من التعليمات والسيرة النبوية، بالإضافة إلى التعليمات القرآنية والتوجيهات النبوية الخاصة بمجال إصلاح النفس وتزكيتها، إلى جانب بيان أهمية الجهاد في سبيل الله، والأذكار والأدعية المأثورة في مناسبات وأوقات خاصة.

29) ثلاث عقائد أساسية في الإسلام، (العقيدة والعبادة والسلوك)

لم يكن الشيخ الندوي رحمه الله قد كتب كتابا مستقلا بالعقائد، وإن كان قام بتعريب كتاب تقوية الإيمان للشيخ إسماعيل الشهيد رحمه الله، والتعليق عليه، وهو كتاب رائع جدا، فكتب ثلاث مقالات تتضمن بيان التوحيد والرسالة والآخرة، وقام بجمعها في كتاب مستقل الشيخ السيد بلال عبدالحي الحسني الندوي، ونشره من دار عرفات براي بريلي.

30) الأركان الأربعة في الإسلام

استعرض الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب الحكم والمقاصد لأركان الإسلام الأربعة من الصلاة والزكاة والصيام والحج، وفوائدها الحقيقية وتأثيرها ونتيجتها على الحياة الإنسانية، كما يمتاز الكتاب بالدراسة المقارنة لما في الديانات المسيحية واليهودية والهندوكية. ويحتل هذا الكتاب مكانة ممتازة بين جميع كتب الشيخ رحمه الله. وقد نقل إلى اللغة الأردية بقلم الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله.

31) ربانية لا رهبانية

قام المؤلف رحمه الله في هذا الكتاب باستعراض التزكية التي سميت في العهد الأخير بالتصوف وبيان حقيقتها وروحها الأصيلة، وأهميتها وضرورتها فيما يتعلق بالحياة الإسلامية والإنسانية، ولإتمام عبودية العباد، بالإضافة إلى تأثيرها الرائع المعجز على الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، والحكومات والإمارات بأسلوب تأريخي وتحليلي.

32) تعريف بالإسلام

ولقد جمعت في هذا الكتاب مقالات للشيخ الندوي رحمه الله تتحدث عن عقائد الإسلام الأساسية، وواجباته الدينية، ومبادئه الاجتماعية والحضارية، وبما أن الكتاب الضخم تصعب قراءته على كثير من المسلمين وغير المسلمين أيضا، كانت هناك حاجة ماسة إلى تأليف كتاب خفيف المبنى وكثير المعنى يحتوي على تعريف إجمالي، وتصوير دقيق للإسلام. وإذا رأينا من هذه الناحية فإن هذا الكتاب مفيد ونافع لجميع الطوائف والفرق، ولسائر المثقفين والمنصفين. وقد قام الشيخ السيد عبدالله الحسني الندوي بجمع وترتيب هذا الكتاب تحت إشراف الشيخ الندوي رحمه الله نفسه، ونشره من دار عرفات للنشر في راي بريلي، وقد طبعت له طبعات إنجليزية وهندية عديدة وفي عدد من اللغات المحلية والدولية الأخرى أيضا، وظهرت له نتائج طيبة بفضل الله تبارك وتعالى.

33) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته

وهي حلقة من سلسلة المحاضرات التي ألقيت تحت رعاية رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، في شهر ذي القعدة عام 1401هـ في جمع من علماء مكة المكرمة وحجاجها الكرام، وقد بذل الجهد في هذا الكتاب لإبراز مدى حاجة الأمة الإسلامية إلى الحديث النبوي على صاحبه الصلاة والسلام، وبيان مخاوف ومخاطر ضياع الأمة الإسلامية بدون التمسك به.

34) الإسلام: أثره في الحضارة وفضله على المدنية

استعرض الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب منة الإسلام العظيمة وآثاره البعيدة المدى على الحضارة والمدنية الإنسانية بصفته محللا ومفكرا، كما ناقش فيه التأثير

العالمي للإسلام، وعطاءاته للعالم الإنساني، وعقيدته الصافية الواضحة للتوحيد، وفكرته للمساواة بين الناس، والحقوق التي منحها الإسلام للمرأة، وأسس الحضارة الإسلامية ومكوناتها.

35) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية:

استعرض الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب الصراع الدائر بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وتناول فيه الاتجاهات الغربية وتطورها وانتشارها وما تمخض عنه هذا الصراع من بروز الحركات التجديدية ونتائجها المضرة في المجتمع، وضرر تأثر الحكام في الدول الإسلامية بهذه الحركات والنظريات.

36) القادياني والقاديانية

وهو كتاب قام الشيخ الندوي رحمه الله بتأليفه بإيعاز من شيخه عبد القادر الرائبوري رحمه الله لسد باب فتنة القاديانية، وقد صدرت له طبعات بالأردية والإنجليزية.

37) صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول ﷺ

الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالي الأول عبد أهل السنة والشيعة الإمامية: جاء هذا الكتاب عند ما كانت الثورة الإيرانية بقيادة الزعيم الروحي الخميني في ذروتها، فقدم الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب دراسة مقارنة لعقائد أهل السنة والجماعة والفرقة الشيعية الاثنا عشرية، وأثبت ما يقوم به الشيعة من سب الصحابة رضي الله عنهم وشتمهم، وتحريف القرآن الكريم، في ضوء كتب الفرقة الشيعية التي كان يتزعمها الزعيم الخميني، وقد تضمن الكتاب مادة دسمة تلقى الضوء على خدمات الخلفاء الراشدين، ومآثرهم، وتضحيات أهل البيت النبوي، ومكارمهم العالية.

38) التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب

لقد تناول الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب وتعرض للتفسيرات المختلفة التي ظهرت لبعض المصطلحات القرآنية، وكانت أفكارا لا تتوافق والروح الإسلامية.

39) الصراع بين الإيمان والمادية

قدم الشيخ الندوي رحمه الله دراسة لسورة الكهف في ضوء التفاسير والسنة والتاريخ القديم، والمعلومات الحديثة، والأوضاع الراهنة، كما وجه إلى الناس الدعوة للتفكير والعمل.

40) الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف

وهو رسالة تتضمن 68 صفحة، تلقي الضوء على الإنجازات والمآثر الإصلاحية والجهادية العظيمة التي قام بها الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، كما يتحدث الكتاب عن الاضطهادات والمظالم التي أجيزت في حقه من قبل أعدائه وأصدقائه على السواء. وقد نشرته دار الاعتصام بالقاهرة بعدد كبير.

41) الإسلام والمستشرقون

وهو مقال أعده الشيخ الندوي رحمه الله لتقديمه في المؤتمر العالمي الذي عقدته دار المصنفين أعظم جراه في موضوع: (الإسلام والمستشرقين) ويتضمن هذا الكتاب تحليلا منصفا للأعمال التحقيقية والبحثية التي قام بها المستشرقون الأوربيون كما يتضمن استعراضا مسهبا لما قام به الكتاب المسلمون في العالم الإسلامي من أعمال وبحوث.

42) حديث مع الغرب

قام الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب بتصوير الداعية الإسلامي المثالي الذي يدعو الغرب إلى الإسلام بدون خجل أو اعتذار، كما قام بانتقاد جريء لما في الحضارة الغربية من نقائص، بالإضافة إلى استنكار ما يعاني منه المتغربون من العبودية العقلية والتقليد الأعمى للغرب، وقد حدد الشيخ الندوي رحمه الله الطريق الوسط لتوجيه الإنسانية وخدمتها.

43) أحاديث صريحة في أمريكا

وهي عبارة عن مجموعة لأهم الخطب والمحاضرات للشيخ الندوي رحمه الله في أمريكا وكندا، وقد قام فيها الشيخ الندوي رحمه الله باستعراض وتحليل المجتمع الأمريكي، وتقديم مشورات ونصائح للمسلمين المقيمين فيه، وقد تكلم الشيخ الندوي رحمه الله في هذا المركز العظيم للحضارة الآلية من حيث يرى الرائي أنها سراب لا حقيقة له.

44) أزمة العالم العربي

وهو من أهم كتب الشيخ الندوي رحمه الله، وقد قدم الشيخ الندوي رحمه الله في هذا الكتاب وذلك في ضوء دراسته القرآن الكريم وقانون الطبيعة تحليلا واستعراضا للمشاكل والقضايا التي تواجه العالم الإسلامي، وما هي مسئولياته تجاهها، وما هي مواقع التقصير في هذا الصدد، وما هي الأدوار التي ترتجى منه. يشتمل هذا الكتاب على 200 صفحة.

45) دعوة للفكر والعمل

وهي مجموعة لأهم خطب الشيخ الندوي رحمه الله ومحاضراته التي ألقاها خلال جولته في باكستان، وقد نشرت هذه المجموعة بعنوان «حديث باكستان» من باكستان، ثم أعيد نشره بهذا العنوان من المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ. كانت جولة الشيخ الندوي رحمه الله هذه بمناسبة المؤتمر الإسلامي الآسيوي، وقد خاطب الشيخ الندوي رحمه الله مختلف فئات المجتمع في هذه المجموعة من الخطب التي تحتوي على موضوعات مختلفة.

46) روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة

وهي مجموعة للمحاضرات التي ألقاها الشيخ الندوي رحمه الله في قسم الدعوة والفكر الإسلامي التابع لندوة العلماء أمام الطلبة المسلمين في عام 1400هـ. ويتحدث هذا الكتاب عن الخصائص والمزايا التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية الإسلامي، وعن الأساليب والطرق التي يستخدمها للحديث الدعوي، إضافة إلى الحكمة المطلوبة اللازمة لتبليغ الدعوة والرسالة. وقد بين الشيخ الندوي رحمه الله كل ذلك بنماذج من القرآن الكريم والسيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام

47) ابحث عن عنوان الحياة المثالية

وهي مجموعة خطب ومحاضرات ألقاها الشيخ الندوي رحمه الله أمام طلاب علوم النبوة، وقد دعا الشيخ الندوي رحمه الله الطلاب إلى أن يعيشوا الحياة متحلين بوقار العلماء وخلق الدعاة. طبع هذا الكتاب أول ما طبع بإشراف الشيخ عبدالعزيز الندوي البهتكلي أستاذ في دار العلوم لندوة العلماء، من قبل طلاب بهتكل في دار العلوم لندوة العلماء، ويتم إصداره الآن من قبل المجمع العلمي الإسلامي لكناؤ.

48) المدخل إلى الدراسات القرآنية

وهي مجموعة مقالات قدمها الشيخ الندوي رحمه الله خلال تدريسه لمادة القرآن الكريم في دار العلوم لندوة العلماء، فيما يتعلق بأهمية القرآن الكريم ومكانته، ومبادئ فهمه وتلاوته. وقد قدم الشيخ الندوي رحمه الله في هذه المقالات خلاصة تجاربه في فهم معاني القرآن الكريم.

49) الإفادات القرآنية

وهي مجموعة لما جاء في كتابات الشيخ الندوي رحمه الله ومحاضراته من حقائق القرآن الكريم ومفاهيمه معانيه، وما ورد فيهما من دعوة للتفكير والعمل في هذا الصدد. وقد نشرت ترجمته باللغة الإنجليزية من بريطانيا.

50) المدخل إلى دراسات الحديث النبوي

ويتضمن الكتاب تعريفا بالحديث وعلمائه وكذلك بأمهات كتب الحديث النبوي الشريف بالإضافة إلى مبادئ وآداب دراسة الحديث النبوي الشريف على صاحبه الصلاة والسلام.

51) نساء الإسلام وخدماتهن الدينية

لقد سلط الشيخ الندوي رحمه الله الأضواء في هذا الكتاب على الإنجازات العلمية والخدمات الدينية التي قدمتها نساء الإسلام في مختلف الأدوار، وألحق بالكتاب الرسائل التي أرسلتها إليه أمه الصالحة خير النساء خلال حياته الدراسية. رحمهم الله جميعا.

52) مكانة المرأة في الإسلام وحقوقها وواجباتها

وهي مجموعة للخطب والمحاضرات للشيخ الندوي رحمه الله والتي تجمع بين طياتها توجيهات وتعليمات للنسوة المسلمات. وقد قام بترتيبها الشيخ السيد عبدالله الحسني الندوي ونشرها الشيخ محمد رضوان الندوي رحمه الله من جامعة المؤمنات الإسلامية التي أسسها في لكناؤ.

53) الأدعية المسنونة

وهي مجموعة مختصرة للأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، وفيها ما ورد في القرآن الكريم من أدعية جامعة يدعو بها المسلم في حياته اليومية، وهذه المجموعة تشكل هدية قيمة للمسلمين وغيرهم لما فيها من نعمة الدين والدنيا.

وقد خلف لنا الشيخ الندوي رحمه الله ثروة كبيرة من الكتب والمصنفات، وقد قمت بتعريف بعض الكتب المهمة تعريف موجزا ليكون حافزا على دراستها ومطالعتها.

كان الشيخ الندوي رحمه الله قد اختار لخطبه ومحاضراته وكتبه ومؤلفاته اللغة العربية واللغة الأردية، وإن كان مطلعا وعارفا باللغة الإنجليزية والفارسية أيضا، إلا أن مؤلفاته ومحاضراته جاءت إما باللغة العربية أو باللغة الأردية، بينما قام بنقل أعماله إلى اللغات الأخرى أفراد كان الشيخ الندوي رحمه الله يثق بهم ويعتمد عليهم، فظلت أعماله تترجم إلى اللغات الإنجليزية، والتركية والفارسية والهندية والبنغالية وغيرها من اللغات. فأما اللغة التركية فبادر إلى نقل أعماله إليها الأستاذ يوسف كراتشه، وأما الفارسية فيجدر بالذكر ممن ترجموا إليها الشيخ قاسم القاسمي، والشيخ إبراهيم الدامني، والشيخ عبد القادر، وأما اللغة البنغالية فالشيخ عمر علي، والشيخ سلطان ذوق الندوي، والشيخ سلمان القاسمي، الذين بذلوا جهدا مشكورا في نقل أعماله. وأما اللغة الإنجليزية فكان للشيخ الندوي رحمه الله عديد من المترجمين إليها، ويخص بالذكر منهم الدكتور آصف القدوائي المرحوم، والسيد غلام محيي الدين المرحوم، والدكتور الشاه عباد الرحمن نشاط، والدكتور عبد الرحيم القدوائي، وأما الترجمة إلى اللغة الهندية فكان يقوم بها الأستاذ محمد حسن الأنصاري. جزاهم الله خير الجزاء.

كما تم العمل في حياته وكذلك بعد وفاته على إخراج كتاباته ومقالاته حسب الموضوعات والعناوين في شكل كتابي، فظهرت بهذه الطريقة كتب مهمة ومتعددة، ونالت الرواج والقبول. ويختص بالذكر منها «تعريف بالإسلام» وقد صدرت له إصدارت أردية وإنجليزية وهندية كثيرة وبأعداد كبيرة، كما نقل إلى اللغات الأخرى أيضا. ومنها «الإفادات القرآنية»، وقد سبق أن تحدثنا في السطور السابقة أيضا، إضافة إلى «مكانة المرأة في الإسلام» و«النظام المالي في الإسلام» و«ثلاث عقائد أساسية في الإسلام» و«حياتي الدراسية والعلمية».

إن ما تمتاز به كتابات الشيخ الندوي رحمه الله من صحة التفكير واعتداله، ومن مراعاة لطبيعة الدين والشريعة، ولتغير الأوضاع والأحوال، واهتمام بحسن أسلوب المخاطبة والتحرير، واختيار للألفاظ والتعبيرات، قلما يجتمع مع النقد والبحث بصفة عامة، وقد صدر من قلم الشيخ الندوي رحمه الله عديد من الكتب في تراجم الشخصيات البارزة من المسلمين، ومنها ما يشتمل على دراسة واستعراض أحوال المسلمين الأخلاقية والفكرية، ومنها ما يحتوي على موضوعات التربية والإصلاح، كما أن هناك مؤلفات متعددة تتضمن مواد علمية وفكرية محضة، إلا أن أسلوب الشيخ الندوي رحمه الله في كل هذه الأعمال الكتابية يمتاز بكونه دعويا وتربويا وإصلاحيا. إن أسلوب الشيخ الندوي رحمه الله في كتاباته ومحاضراته على تنوع موادها أسلوب مؤثر وشيق، مع النضج والبلاغة. وقد أعد الشيخ الندوي رحمه الله مؤلفات مهمة ومتعمقة في موضوعات دينية أيضا، وخص منها ما يتعلق بالتربية والإصلاح بالاهتمام والعناية والتركيز، فقدم في هذا الصدد معلومات مثيرة للاهتمام والتفكير عن أعمال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومكانتهم، كما ألف كتابا مستقلا وكتيبات عديدة في جوانب السيرة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، ولقد حظيت كتاباته هذه بالقبول والشيوع في الأوساط العلمية.

كما قام الشيخ الندوي رحمه الله بإعداد سلسلة من الكتب في تاريخ المسلمين الديني والعلمي والحضاري، تتحدث عن أعمالهم البناءة الخاصة بعيدا عن الانقلابات والصراعات السياسية.

كما ترك الشيخ الندوي رحمه الله بالإضافة إلى المؤلفات السابقة الذكر عددا من الكتب في الموضوعات المفيدة من الأدب والثقافة والحضارة، يحتل أهمية كبيرة مكانا مرموقا في موضوعه، كما ترك كتبا في موضوع التعليم والمناهج الدراسية التي تلعب دورا أساسيا في تشكيل عقلية النشء الجديد وبنائه، وعلى رأسها قصص النبيين، والقراءة الراشدة، ومختارات من أدب العرب، كما توجد هناك سلسلة من مذكرات السياحة والرحلات، التي لا تتضمن مجرد تفاصيل الرحلة لكنها تقدم فوائد ومعلومات نافعة في المجالات العلمية والتاريخية والجغرافية، كما تقدم معلومات عن الصعوبات والمشاكل التي يواجهها الداعية في أعماله الدعوية والإصلاحية. كتب الشيخ الندوي رحمه الله كتابا بعنوان «من بيتي إلى بيت الله» وهو بيان وتسجيل لعواطف الحب والشوق لحضور بيت الله الحرام كما توجد بقلمه رحلات مهمة أيضا منها على سبيل المثال: مذكرات سائح

في الشرق الأوسط، و«من نهر كابل إلى نهر اليرموك» و«أسبوعان في المغرب الأقصى» و«12 يوما في ميسور» و«أسبوعان في تركيا»، وغيرها من الرحلات المهمة. وفوق ذلك كله يوجد له كتاب في ترجمته الذاتية بعنوان «في مسيرة الحياة» الذي يسجل تاريخ قرن كامل، وخلاصة حياته المتعددة الجوانب بصفته داعية، ومعلما، ومربيا، وكاتبا، ومفكرا، ومؤرخا، ومصلحا.

إضافة إلى ذلك ترك الشيخ الندوي رحمه الله مجموعات من الخطب والمحاضرات نشرت بعناوين تشير إلى المناطق التي ألقيت فيها، مثل تحفة باكستان، وتحفة مشرق (وهي محاضرات ألقيت في ينغلاديش)، وتحفة دكن، (هي مجموعة خطب ومحاضرات ألقيت في حيدر آباد وأورنغ آباد) وتحفة الإنسانية، أو حديث مالوه، وتحفة كشمير، وتحفة بهاتكل.

أما حركة رسالة الإنسانية التي كان الشيخ الندوي رحمه مؤسسها ورئيسها فقد نشرت أهم خطبه الخاصة بها في شكل رسالة وكتيبات، ونالت القبول والرواج على نطاق واسع في اللغات الهندية والإنجليزية والبنغالية إضافة إلى اللغة الأردية.

ولكن الواقع أن الشعبية والقبول والشهرة التي تمتع بها الشيخ الندوي رحمه الله بكتابه الرائع «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لم ينلها بأي كتاب آخر، حيث اعتبره العرب من بين الكتب العديدة المهمة المؤلفة في القرن الكامل، ولا يمكننا أن نقدر ونحسب بدقة كم هي أعداد الإصدارات باللغات العربية والإنجليزية والأردية على المستوي العالمي، وخاصة الإصدار العربي لهذا الكتاب الذي تنشره دور النشر المختلفة بأعداد هائلة.

وإلى جانبه يقوم كتابه الثاني الرائع «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» الذي يشتمل على استعراض محايد وتحليل جريء للقيادة السياسية والفكرية في العالم الإسلامي، وقد عرض الشيخ الندوي رحمه الله الشعوب المغلوبة المخدوعة بالحضارة الغربية تنقسم إلى ثلاثة اتجاهات: اتجاه الزعماء والقادة الذين استسلموا استسلاما كاملا للسياسة والقيم الغربية، وحاولوا أن يصوغوا شعوبهم بقوة في قالب الأفكار الغربية، والاتجاه الثاني هو عبارة عن رفض مطلق للحضارة والأفكار الغربية بحذافيرها، وحاولوا أن يحتموا بنظام حياتهم المتخلف، بينما تمثل الاتجاه الثالث باختيار ما هو صالح منها ورفض ما لا يصلح لهم، ثم بين الشيخ الندوي رحمه الله أمثلة

ونماذج لهذه الاتجاهات الثلاثة وأوضح أسبابها ودواعيها بكل إسهاب وتفصيل، و دعا إلى اختيار الاتجاه المفيد والمتزن.

وهكذا فإن الثروة العلمية التي تركها الشيخ الندوي رحمه الله ثروة علمية متنوعة مؤثرة جامعة، ويوجد إلى جانب ذلك فهرس للكتب التي وإن لم تصدر من قلم الشيخ الندوي رحمه الله إلا أنها رتبت وألفت تحت إشرافه واهتمامه، ومن هذه الكتب ما يدخل ضمن المناهج الدراسية مثل منثورات ومعلم الإنشاء وغيرهما، ومنها ما يدخل ضمن التراجم والسير والتاريخ مثل تاريخ ندوة العلماء، للأستاذ إسحاق جليس الندوي، والدكتور شمس تبريز، وسيرة الشيخ محمد علي المونغيري للأستاذ الشيخ محمد الحسني، وسيرة الشيخ المحدث محمد يوسف الكاندهلوي للأستاذ محمد الثاني الحسني، وسيرة السلطان تيبو الشهيد للأستاذ محمد إلياس البهتكلي الندوي، ومنها ما يدخل تحت عنوان الرحلات مثل أسبوعان في أمريكا بقلم كاتب هذه الحروف، إلى جانب كتب ورسائل فكرية وإصلاحية أخرى.

مما يثلج الصدر أن جامعة دهلي المركزية عقدت مؤتمرا حول مؤلفات الشيخ الندوي رحمه الله، وقدمت فيها مقالات وأوراق عمل، جمعها الشيخ الدكتور محسن عثماني الندوي ونشرها بعنوان «دراسة مؤلفات الشيخ السيد أبي الحسن علي الندوي رحمه الله» كما قام الأستاذ السيد مرتضى الندوي بإعداد دليل للمؤلفات العربية والأردية وترجماتها إلى اللغات الأخرى للشيخ الندوي رحمه الله، وعمل على جمعها وترتيبها الأستاذ الشيخ طارق زبير الندوي، وهذان العملان لهما أهميتها ومكانتهما.

وكذلك يتم العمل حاليا على رسائل الشيخ الندوي رحمه الله ومكاتباته، وقد أكمل العزيز الأستاذ السيد حمزة الحسني الندوي مجلدين للمكاتبات، وظهرا إلى النور، وأما المجلدات الأخرى فهي تحت الترتيب والإعداد، كما يتم العمل على جمع وترتيب الإفادات التي أتحفنا بها الشيخ الندوي رحمه الله، يقوم بها الأستاذ الشيخ نذر الحفيظ الندوي أستاذ دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ. فجزاهم الله خيراً.

محتويات الكتاب

كلمة المعرب 5
تقديم: فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي 7
تعريف بالكتاب 9
مقدمة الكتاب 13
كلمة المؤلف 21

الباب الأول

موجز عن حياة العلاّمة الداعية الإسلامي الكبير
الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله 29

الباب الثاني

التربية والتعليم وعوامل تشكيل الشخصية 47
المزايا والخصائص والأخلاق والصفات 63
إصلاح الباطن وتزكية النفس والإحسان 75

الباب الثالث

جوانب مختلفة من جهوده وحياته العملية 87
الدعوة إلى الدين 87
إصلاح المجتمع 97
نصائحه لزعماء البلاد والأمة وقادة البلدان الإسلامية 108
إصلاح مناهج التعليم والتربية 118

الباب الرابع
حركات ومؤسسات

مقاومة الفلسفات والأفكار الغربيةوإنشاء المجمع العلمي الإسلامي..... 129
محاولة لإبراز تصور الأدب الإسلامي وإنشاء رابطة الأدب الإسلامي 141
عملية تعريف غير المسلمين بالإسلام وإنشاء حركة رسالة الإنسانية 151
التعليم الأساسي وإنشاء مجلس التعليم الديني 159
الحفاظ على الدين والشريعة: وإنشاء مجلس المشاورة الإسلامي
لعموم الهند وهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين 166
ندوة العلماء 176

الباب الخامس
الرحلات العلمية الدعوية

رحلاته إلى البلاد العربية 189
رحلات الشيخ الندوي رحمه الله إليأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية..... 206
رحلات الشيخ في البلدان المجاورة (باكستان وبنجلاديش وسري لانكا)
وبورما وماليزيا..... 214

الباب السادس
الكتب والرسائل

استعراض موجز لمؤلفات الشيخ الندوي رحمه الله 227

دار الغرب الإسلامي
تونس
لصاحبها : الحبيب اللمسي
6 نهج الدانية بالفي - تونس – فاكس: 0021671396545 – خلوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P.1035 TUNIS

الرقم : 531 / 1000 / 12 / 2012

الطباعة : دار صادر – بيروت